لكي لا تتكسر مساحة البياض

جاسم عاصي

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

لكي لا تتكسر مساحة البياض

سرد

جاسم عاصي

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

الطبعة الأولى 2018

لكي لا تتكسر مساحة البياض

جاسم عاصي

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ او طبع او اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

First Edition 2018

Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq

Revised copyright © The Union of Iraqi Writers the right of the Authors of this work has been asserted in accordance with the copyright, Design and Patents Act 1988.

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

إشارة

هؤلاء في هذا الكتاب..

هم من كتبوا بأفعالهم واستحقوا التخليد ..إنهم من استنطقوا اليومي ليحولوه إلى مدونة واسعة ، خوفاً من امحاء مساحات لا تشغل الورق إلا بياضها ، فهي كتابات بيضاء القلب،منتمية إلى الذاكرة التي اختزنت وقائع المدينة المسوّرة بالمياه ، من خلال شخوصها ذوي التاريخ الاستثنائي ، وحيث شكّلوا نبض حركته وملهاته ، استحقوا مثل هذا المركز في ذاكرة الجميع .

على أية حال هم ورثة تاريخ بعيد وقريب ..هم .. ورثة الأجداد في تضحياتهم ..الأثيرة ، إنهم ورثة الآباء والأجداد ، ورثة الماء والقصب والبردي ، شكلوا علامات مضافة إلى عمق حضارتهم العريقة : حضارتهم الماء والطين والرسم والكتابة :

عبد الرحمن مجيد الربيعي ،

قيس لفته مراد ،

قاسم دراج ،

أحمد الباقري

عبد الخالق العطار ،

رشيد مجيد ،

عبد القادر رشيد الناصري ،

عبد الرزاق رشيد الناصري ،

عزيز السيد جاسم ،

رزاق النجار ،

صبري حامد ،

مهدي السماوي ،

كاظم ساجت الخالدي ،

نفيس نعمه العزيز

رحيم المصور ،

جبار المصور ،

غانم المصور

خضير فليح الزيدي ،

محسن الخفاجي ،

جاسم عاصي ،

رزاق شناوة،

إبراهيم سبتي ،

حسن عبد الرزاق ،

خالد الأمين ،

أبو أيمن ،

عبد الله ناصر ،

شاكر الغرباوي،

شاكر شناوة،

وسواهم من الذين دأبوا على تدوين ما قد تبعثره الأيام المتراكمة لسنين عجاف قتلت وتقتل كل ما هو حيوي ومؤثر..

إلى من شغلوا فهرست المدوّنة هذه :

حسين جني

شنيشل

كوزان

عمي جوعان

كريم الربيلي

عبد الرضا

كريم أبو الكوت

الفتى سماوي

أبو صدّام

مسلم بلادية

طالب هوبي

توفيق السراج

نهديهم مدوّنتهم هذه.

محرر المدوّنـــــــة

المنتفك...
ذاكرة الماء والطين والشجر

لا يعقل أحد – ممن عمرت ذاكرته صور المدينة – بنشاطها وحموها اليومي تأريخها الاجتماعي والسياسي والميثولوجي ، وبكل ما حفلت به مدونتها من سحر وجمال وقهر واستلاب ، وبكل ما ترفد حواشيها ولا أقول هوامشها المتمثلة بما يحيطها من مدن صغيرة وقصبات ، لأن لكل واحدة منها مركز في كل مخطوطة المدينة التي لم يجرؤ أحد على تحريرها وطبعها . نذكر أن المرء العابر والقاطن ، المعاصر والقديم ؛ تحضر في ذاكرته حقيقة هذه المدينة ، فما ارتبطت إلا بالماء .. والماء وحده كان مداها ومدادها لأصابع أبنائها النجباء التي تكتب بوجد القلب. لذا كان تأريخها كما يعرفه المؤرخ ، والإنسان عموما هو تأريخ مائي ، لأن نشأتها الأولى كانت مع الماء وبسببه .هكذا تقول الذاكرة .ولو تحدث أحد في هذا الضرب من الكلام أو ذاك ، فلابد أن يكون لكلامه مصدر هو بمثابة كلام آخر يقف إلى صفه أو يغايره في

الرأي . وحين يزداد الكلام ويكثر الحديث ويتشعب ، لابد من التذكر ، وحصراً الانتباه إلى ما هو مرئي وترك ما هو مخبأ.، وما كان دأب الذاكرة يستدرج الأشياء والصور ، لكي يستكمل سياحته في كل تشعبات البحث في الذاكرة الشعبية للمدينة ، وهنا يمكن الأخذ بنظر الاعتبار ، نشأتها وعلى قاعدة لكل شيء نشأة ، ولنقل بداية ولكل بداية قصد وغير قصد ، فهو بالتالي ينحو باتجاه السحر والتأريخ . والمدن لا تُشيّد إلاّ بقصد . ولننظر إلى ما هو في ذاكرة الجميع ، إذ يلاحظ الصغير والكبير ، الشاب والشيخ ، ويذكر كل واحد مما خفي عنه . فالمدينة تنطرح على ضفاف الفرات طولاً منذ أن وعينا صورتها ، وهي ما امتد عمرانها إلاّ على هذا الامتداد الطولي . يفرح المرء لهذا الغنج حيث تحُل المدينة جدائلها وتحل شعرها على رمل ساحله ، متباركة بمياهه ، تُطفئ عطشها في كل لحظة بسلسبيل دفقه المبارك ، فالفرات مباركة مياهه ، قدسته الكتب السماوية وذكره الأئمة والصالحين.

وماذا بعد هذه النعمة ، حيث يذكر الشيخ للفتى عن واجب الإصغاء والانتباه إلى ما كمن من السر فيسأل التأريخ :كم مرة كان الفرات وبالاً على المدينة ..؟ ولا يجد الجواب إلاّ في البحث والتقصّي ، إذ يأخذه ذلك الديدن . وحين يستقر على حال يقول :حقاً لقد كان مقصوداً اختيار المكان أسفل حوض النهر ، وتزيده طاقة البحث والسؤال ، سواء الإصغاء إلى (شاكر الغرباوي ،عناية الحستاوي قيس لفتة

مراد ، صبري حامد ،حسين الهلالي)، أو تلاميذهم ممن حفظوا تأريخ المدينة عن ظهر قلب . وكتبوا ما حلى لهم الإحساس بعمق حضارة مدينتهم فهم خير من يجيب عن أسئلته . وفي كل محطة جواب يقول :حقاً ذلك ما حدثني به أبي يوماً ، فقد اختير المكان بقصد،فالشوارع مستقيمة : شارع الهوى – الخبوبي – ،شارع النهر، شارع عشرين أو شارع فهد .

كل هذه الشوارع القليلة تقطع المدينة طولياً .. لماذا ..؟ يسأل ،وحين يسمع الجواب يردد أيضاً : حقاً كان ذلك يضمر في خفاياه هدفاً عسكرياً ، فالشوارع مكشوفة والعشائر كثيرة ومن طبعها أن لا تسكت على ضيم أو قهر أو غزو واحتلال ، إن استعصى الأمر فالنهر عالي الحوض ، وبالإمكان فتحه على المدينة بأقل من ساعة كي يغرقها ومن فيها .،عجيب !! . قال الفتى ثم أردف .. حقاً .. ويسأل: وبعد ..؟ ثم يُصغي للجواب إذ يقول الشيخ :هناك أبو جذاحة. ويكون السؤال :ومن يكون أبو جذاحة.. هل هو نهر أيضاً ..؟ فيسمع ما يقوله الشيخ :لا بل هو نهر ، فمه ضيق ، وجذاحة من جذح أي قدح يقدح وهي بدء اشتعال النار ، أي أنه يغرق كل ما يصادف مجرى مائه ، ما أن تعمل المسحاة أو أية آلة حفر بسيطة أخرى عملها على حوافي فمه حتى يتدفق الماء كتيار جارف . يقول المؤرخ .. هذا ماحدث فعلاً في عام 1954 يومها كنا صبية نتطلع إلى إتمام إنجاز مدرستنا المرتقبة الشرقية ومديرها (قاسم أفندي)فهي محاذية مرتفع التراب —

الروف ـــ الذي أسس الحاج فرحان ـــ الأوتجي ـــ مدينته ما بعد المرتفع حيث تنفتح الأرض الخلاء ما أمتد البصر وهذا حكاية أخرى بعد انسحاب مياه الفيضان نحو جوف (أبو جناحة) . قال الشيخ للفتى : إنه يُعرف كل المسافات ما أن تندلق مياهه ليستكمل دائرة الماء حول مدينة المنتفك ، والمنتفك ـــ قال الشيخ ـــ تسمية جاءت من كلمة المتفق أي فعل الاتفاق بين عشائر المدينة دائماً بوجه الأجنبي ، حيث تطور الاسم إلى المنتفك. وذكر في (لغة العرب الجلد الأول) ؛ تُذكر بالمنتفق والمنتفك والمنتفج. وكل هذه التسميات تعني في ما قال المؤرخون إنها تسمية للاتفاق بين قبائل ثلاث هي : قبيلة بني مالك وقبيلة بني سعيد وقبيلة الأجود . أستغرب الفتى من الأمر لكنه أزداد يقيناً بقدم حاضرته .قال الفتى للشيخ : الماء والشوارع المستقيمة خير ما يعرقل حركة الاختباء والظهور ، حقاً إنها فكرة من تدبير مدبر ، قال الشيخ :إنها مدينة صممت تصميماً عسكريا . فالناصرية من ناصر باشا أيضاً مثلما هي ذي قار نسبة إلى معركة ذي قار. هكذا يتحدث لسان التأريخ ، مدونة العقل والذاكرة الجمعية التي تختزن الكثير ، سيما فيضان 1954، حيث نام الناس بعد انقضاء يوم من الكد والتعب في العمل ، ناموا على هدوء وطمأنينة ليلتها ، وفي الصباح استيقظوا مذعورين ، فقد كبرت المآذن وكثرت الدعاءات ، فهرع الناس من بيوتهم وتعطل كل فعل سوى تتبع ما أعلن عنه منذ الفجر الباكر والنداء المنتشر: أسرعوا يا أهل المدينة فقد

فاض أبو جدّاحة فأدركوه .يومها أجتمع القوم كل حسب مهنته ؛ يحمل بعضهم البيارق والأعلام و المساحي والمعاول . مرددين الهوسات ضاربين بأرجلهم سطح الأرض .خرجوا من المنعطفات كثورة عارمة لرد ما قذفه وحش أبو جدّاحة من فمه الأدرد الصدئ .ولم تر من كل ما يتحرك أمامك غير رجال وشباب وشيوخ ونساء يحملون أكياس التراب ، يوصلوه إلى مجاميع تعمل على رصفه على بعض كرصف الحجارة في البناء فيشكل جداراً متيناً يدرأ عن المدينة خطر المياه الجبارة . وقد نجحوا أيما نجاح ، متذكرين قول الأجداد المناضلين : ينبغي أن لا نعطي لتصميمهم فرصة الانقضاض علينا ، فنحن نقاوم الماء ونقاوم أية قوة تحاول تخريب مدننا ، نقف ضد كل ما يضر بمدينتنا . وما هي إلا أيام حتى غدا الشريط الترابي الممتد بتواز مع طول امتداد شوارع المدينة ، أن يكون مرفأً للقوارب من شتى أصنافها وغدا السفر إلى العشائر البعيدة بواسطتها ، حيث تنثرت الأعمدة التي تحمل شباك صيد السمك ، وبدت الحياة كأنها فُطرت على هذه الصورة .

أطمأن الفتى إلى ما يسمع ويتذكر وراح يبحر في تأريخها ؛ فقد استهوى الحكاية وراق لها مراجه . فالتأريخ كما قال الشيخ :يصر فيه المرء على ما ذكره الأجداد ، فلا تبخلوا على أنفسكم من النِعَم ، فالذي لا تأريخ له لا وجود شرعي له .. لا يدري من أين أتته هذه العبارة ،وأخذته سياحة واسعة في مظان هذه المدينة بما تحمله من تأريخ

. فما يهم منها إلاّ الإصغاء لصوت الحقيقة في التأريخ وقد يسعفه الباحث(شاكر العرباوي) لو كان حياً وسمع نداءه . غير إنه يصر على البحث مبتدءاً ؛ لو لم تكن تلك الشجرة العملاقة الرابضة وسط أرض (تل اللحم)، لما اكتسبت المدينة تسميتها التي راحت الألسن ترددها ،فمرة تذكرها كنكتة للتداول ،ومرة تعني بها شيئاً يضمر للمدينة حسداً غير منطقي ولا إنساني . فقد كثرت التسميات و لم يبق منها سوى أسمها الحقيقي ،وفعلها الأصيل كأم ولود للمثقفين الذين يقفون بقامات طويلة ضمن صف العراقيين من مناضلين ومثقفين. فإن صدق البعض قول الغازي ،فالبعض كذبه . فقد شاع قول العدو الغازي الذي قتل في صد تمترس رجال العشائر خلف هذه الشجرة المباركة التي حمت ثوارها دفاعاً عن مدينتهم ؛ وهم يحدّقون بتل الجثث من جنود العدو المهاجمة ؛ فقد كان ـــ كما روى من كان معهم ونقل الخبر من لدن الذاكرة افتخاراً ـــ تلاً عالياً طُمر بعد ذلك بالتراب فغدا أسماً هذه المنطقة منذ ذلك التأريخ ؛ هذا ما رواه العقل الجمعي لنا وغدا حكاية الناس في المجالس ،فمن حق الشعوب خلق حكاياها ،ومن حقها أيضاً أن تفخر بتأريخها وتدونه في صفحات سجلها الشفاهي ، ومن حقنا أن نفخر بما أنجزوه لصالح الوطن . إذ لا ننسى يوم أحترق الجنرال جفردسون سوق المدينة ، ممتطياً صهوة جواد عربي ، متبختراً بالنصر ، تحيط به شلة من حبّالته ، والناس ينظرون إلى موكبه بازدراء وخوف

وتعجب ، حتى وصل إلى القيصرية وهي سوق مسقّف تتراص على جنباته الدكاكين التي تتعاطى بيع شتى البضائع ، من قماش وحبال وأدوات زراعة وعطارات ومواد غذائية كالسكر والشاي والرز والطحين . وكان السوق يومها يعج بالمتبضعين ، حيث خرج له (حسين رخيص) منادياً : جئتك يا جفرد ـ هكذا كان الناس يسمونه ـ وكان يحمل بندقيته . فما كان من الجنرال إلا أن ترجل عن فرسه بارتباك وهرب ، في حين تبعثر صف حماته بين الناس ، بينما رخيص يلاحقه حتى دخل زقاق ـ دربونة ـ معلقة ، حينها لاذ بأحد البيوت وأخذ يطرق بابه ، عله يؤويه فيما أطلق (حسين) عنان بندقيته رشقاً فأرداه قتيلاً .ولا يدري الناس ما عداوة هذا الشرطي مع الجنرال ..؟ ومن قائل :إن (حسين رخيص)كان نازياً ..!! . ويومها لم يهضم الناس مثل هذا القول. فماذا تعني كلمة النازية ..؟ فهم لا يعرفون إلاّ بريطانيا ، والجنرال جفرد وشيء عن الشيوعية . وهمس البعض إلى بعضهم .. لقد ضاع علينا الأمر ..!

بعد ذلك هب الناس من كل حدب وصوب ، بعد أن عرفوا بمقتل الجنرال ، حيث وقف (ملا عبيد) منادياً بلهجته التحدية وهو مؤذن المسجد (عساكميا بالنعول) ويقصد أضربوه بالنعال ، وهكذا فعل أقرانه(كاظم الفحام وسيد ولي) وآخرون ، حيث اعتقلوا من بعد ذلك بتهمة قتل الجنرال والتحريض على قتله ، حوكموا ونفوا إلى

بلاد الهند والسند ، البلد التي لم يجد المرء لها أثراً في الذاكرة سوى ما ذكرته حكايات ألف ليلة وليلة .وحكايات القصخون وخطباء المنابر الخشبية .

قال الفتى مع نفسه ؛ ما أعمق تأريخ المتفك ، وربما سمع الإجابة أم أنه نقل من ذاكرته التي ابتدأت تحتشد بالصور لتشكل معمارها ، فتماهت الصور في ذهنه ، واختلطت مع المراسيم والطقوس وكرنفالات الأعراس ، فالمدينة قد أهملت قصدية نشأتها ، فراحت تنسج تأريخها على قرطاس جديد ، وحبر أنقى .فأهل المدينة يتذكرون ذلك الرجل الذي أخترع طائرة بحجم متوسط ، ثم أطلقها في الفضاء . أخذت تجوب سماء شارع الهوى والغرام ــ الخيوبي حالياً ــ والناس تراقبها متعجبة ومندهشة ، كان الشارع يومها على سعته التي عليها الآن، ولكن تتوسطه حديقة وسطية تمتد على طوله . ومن بعد سقوط الطائرة خارج المدينة بعد أن فقد وقودها ، أنشغل الناس بأمر الرجل الذي أبتكرها ، حيث لم يرد عنه خبراً ولا يعرف أحد أين اختفى ..؟ وكثرت الأقاويل ولم تستقر على قرار فمنهم من قال سجنوه ،وآخر ذكر إنهم سفروه إلى بلدهم للاستفادة منه وآخرون قالوا .. قتلوه لعلمه..!! وحكاية هذا الرجل تناساها الناس . وما كان جراب الحاوي لكل منهم لا يخلو من حكاية ؛ فما كانت غير حكاية (عبد الرضا)هي خير الحكايات . فما قصة هذا الرجل ..؟ قيل إنه كان إنساناً وديعاً ،

وهكذا وجدناه،وكما كنت أراه ، يرتاد دكانه وسط سوق القماش في القيصرية متخذاً من دكانته صفاً لتعليم الأولاد قراءة القرآن وحفظ بعضاً من سوره ، شأنه شأن الملالي في المدينة مثل (الملا حنبوص ،الملا أحمد ،الملا جاسم ،الملاية أم محمد وزهرة وزليخا ، أم عبد الرضا) . وكان بيته في شارع الهوى في نهاية — دربونة — طويلة بالقرب من خان (الحاج درويش) وهو والد الممثل المسرحي الرائد (يقظان إبراهيم الدرويش) الذي عُرف بنشاطه وإبداعه المبكر على خشبة مسرح المدينة العتيد والعريق ، وقد جايل كل من (رزاق عبد سكر ،مهدي السماوي ،حيدر عبد الحسين ،محمد حسين عبد الرزاق ، محمد مبارك، حازم ناجي ، حميد نذير ، فلاح حسن الجبلاوي ، فتيحة حسن الجبلاوي). وحكاية (عبد الرضا) عجيبة غريبة ، حيث فوجئ الناس باعتقاله ، وحين سألوا عن السبب ، قيل أنه شيوعي ، فجفل الناس لما سمعوا ،ولم يصدقوا القول . كيف يكون الرجل شيوعياً وهو مثابر على تدريس القرآن ..؟ !يومها أنقاد الناس إلى قول الدوائر العميلة من أن الشيوعية كفر وإلحاد ،ولم يذكروا المنازية بمثل هذا السوء !! وكان يا ما كان من إشكال التحريج والاجتهاد الذي أنصب جله على نقاء سريرة الرجل ، ولم يشغلهم إلا أخباره التي استقوها من قريبه النجار بالنسبة للرجال ،ومن أمه الملاية بالنسبة للنساء . وكل الأخبار اجتمعت على أنه نُقل إلى سجن نقرة السلمان طريق الصد مارد . وقبل اقتلعت

أضافوه بـ ـــ الجلابتين ــ وعذّب أيما تعذيب،وربما نفق جراء ذلــك . ثم قلّت أخباره بحثاً من سبقوه أو لحقوه من المناضلين الكثير . ومــا أن تفجرت ثورة تموز 1958 وأستقر وضعها حتى ، عــاد عـــبد الرضا إلى مدينته مهدماً ، كهلاً لا تــعُــرف له ملامح الشباب التي ذهب بها إلى المنفى . عـــاد إلى دكانه بنظارات سميكة العــدسات ، وثــابر عــــلى تعـــليم الأولاد قراءة القرآن وحفظ سور منه . أما وقته المتبقي من نهــاره وليله فيقضيه في القراءة والترتيل ، لقد كان له صوت عــذب وســاحر ، وكنا نطرب له خشوعـــاً ونحن نحفظ سور القرآن في تكيـــة والدتـــه (أم عـــبد الرضا)كان لحن صوته يأتينا كخرير ماء الفرات وهـــو يحتضـــن أجسادنا الغضة في المساءات . ضفاف نقية تبدو أجسادنا على طينها الغرين مثل سمكات صغيرة تركها الصياد تنازع بآخر ما تستطيع للعودة إلى ميـــاه الفرات الساحر والأسطوري . وسارت الأمور من بعـــد حكاية الرجل التقي ، ولم تكن هي آخر الحكايات ، فجراب الحاوي فيه الكثير.ألم أقل لكم أنهم ما ابتكروا سوى مدينة سحرية سطرت الحكايـــات الكـــثيرة . والوعد دين في رقبة آخر فسيأتيكم بحكاياتهـــا تباعـــــــاً ، حكايـــات مناضليها ، وسحرتها ، ومن كتبوا تاريخها بأقلامهم التي تُقرّب الناس مـــن بعضهم بألفة عذبة لا أن تفرقهم شعباً وطوائف ومذاهب . والله على مـــا أقول شاهد .

عن حكّاء المدينة لكي نحفظ له جهوده في التذكر .

الحكاية عن مدينة الناصرية في بداية خمسينيات القرن المنصرم ، تحديداً عام 1953حيث كان فيضان (أبو جداحة) .

في البدء ، والكل يعرف أن المدينة ما أسست إلا على تصوّر ونوايا عسكرية ؛ حيث اتخذ لها مكاناً منخفضاً عن منسوب مياه نهر الفرات ، يقابله موقعها بالقرب من تسلط فم أبو جداحة . والسبب راجع وكما يقول التاريخ إن عشائرها تميّزت بعدم قبولها للاحتلال أولاً ، وعدم رضوخها لظلم الظالمين والمتجبرين ثانياً. ولثورتهم هذه حُسب لها ألف حساب ؛ واختير مكانها في مثل هذا المنخفض وبين نارين مائيين يُسهّل القضاء على (الفتنة) التي يقوم بها أبناء العشائر من وجهة نظر المحتل . وقد نتج هذا بالاتفاق بين (مدحت باشا) و(ناصر الأشكر) وعلى ذمة التاريخ والتاريخ الشعبي . حيث أُطلق عليها أول الأمر (المنتفك) من (المتفق) ثم الناصرية نسبة إلى شيخ آل سعدون (ناصر السعدون) ولا ندري لِمَ كان العقل الشعبي يطلق عليه (الأشكر أو الأشقر) . فالمدينة ذات شوارع مستقيمة طولياً وقبلة في وجودها وتفرعاتها متقاربة ، إذ يسهُل السيطرة عليها وعلى أبنائها في حالة التمرد ، فالمستقيمات هذه تُقلل من حرب العصابات كما يقال في حرب المقاومة الشعبية .

ما نريد أن نستذكره الآن ؛ هو فيضانها عام 1953 وكنا يومها صغاراً ، ننتظر افتتاح المدرسة الشرقية ببنايتها الجديدة ، لكي ندشنها ونحن تلاميذ الصف الأول الابتدائي . فقد انتسبنا إليها في مكانها الذي ينعت

بالحريق ، وهو عبارة عن غرفة صغيرة في آخر ساحة طويلة . وكان المرحوم (قاسم أفندي) وهو أول معلم في الناصرية فارع الاحتلال العثماني بالعلم والتعلّم . اصطحبنا والدي أخي وأنا ، وكانت له معرفة بالمدير . فهم أبناء مدينة واحدة . ومعرفة والدي ليس بالمدير فحسب ، بل بأبنائه (فريد ، مؤيد ، رياض) . في هذه السنة بالذات ، وقبل ابتداء دوام المدارس ، وخفقنا للدوام تنّح عنبا ، سمعنا المآذن تكبر وتدعو أهالي المدينة للتجمع في أقصاها لدرء مياه الفيضان ، وغضب أبو جدّاحة . وفعلاً تجمع القوم كل حسب مهنته ، ومنهم من حمل الرايات ، تتخلل مسيراتهم الهوسات متجمعين حسب الأوامر على ضفة الماء ، وكان العمل يجري بسرعة ، حيث أعدت أكياس الجنفاص ، وفرق التعبئة والمساحي والفؤوس . وعمل الجميع كفريق واحد . وما زلت أتذكر كيف كان جمع الخياطين ، والبنائين والحمالين ، وفرق يمثلون كل المهن ، وهم يرددون ما يُشير إلى مهنتهم . وبزمن قصير ، ارتفع الشريط الترابي الذي يُطلق عليه (الروف) ويصد الماء الذي يُهدد المدينة . وقد اطمأنت قلوبنا نحن الفتية على سلامة موعد دوام المدرسة ، التي سارعوا لتأثيثها بالجديد من الأثاث . وما أن مر زمن قصير حتى تحولت جروف المياه إلى مستقرات للزوارق ووسائط النقل المائية الأخرى كالمراكب والماطورات . وكنّا نرى الآتين إلى المدينة ، يتركون زوارقهم قافزين إلى اليابسة ، ثم الانغمار في كبد المدينة ، لعرض بضاعتهم ، أو ليتبضعوا من أسواقها حاجات مختلفة ومواد غذائية

وقماش . بينما شمّر الصيادون عن أذرعهم لمخر عباب مياه المسطحات المائية ، لرمي شباكهم ، والإتيان بالحمل الوفير من السمك ، حيث يعرضونه في السوق المستحدث بالقرب من ضفاف المياه . وكنا نرى أصحاب الشباك الصغيرة المسماة (السليّة) وهم يرمونها برشاقة جناحا طائر ضخم ، مفترشة سطح الماء الرائق ، ثم بسبب ثقل نهاياتها المعلقة في أطرافها قطع الرصاص ، تغور في الماء . وما هي إلا دقائق قليلة ، والصيّاد يسحبها فتظهر من الماء لامّة نفسها على سمك وفير وعلى مختلف الأحجام . يُفرغه على الضفة ، ونحن نراقبه ، ثم يضعه في خرجه (الزنبيل) وقد يعطف علينا فيقدم من وفرة صيده سمكة صغيرة ، أو مجموعة من (الخِرْشْ) نسارع به إلى أمهاتنا كي تُعدّه لنا طعاماً شهياً.

هكذا كان أهل المدينة عازمين زمن الشدائد يشد بعضهم عضد البعض الآخر ، ولا يتكّل أحدهم على الآخر ، بل يبادر في قول الحق ، وأداء الفعل المفيد للجميع . وما هي إلا بضعة أشهر ، حتى انحسرت المياه عن بقعة الأرض الممتدة بسعة ، والمؤدية دروبها الوعرة إلى عشائر المدينة وأماكنها القصية . بعدها تأسست قرية فرحان ، التي سيكون لنا حديث عنها في قابل الزمان .

القسم الأول
نُخَب القاع

توطئة

كتلة بشرية تقتسم الأرصفة والأمكنة المتروية . تعيش هامشها الذي فرضته على حياتها الأزمنة المتقلبة والسائرة على هواها وهوى البنية الاجتماعية . لا يبدو من سلوكهم أية ظواهر أذى ، بل أن بعضهم يحتل موضع تندر ومداولة لعبة يومية ؛ تحث وتروي على صفحة الهواء بحب ورغبة في مواساة هؤلاء الساكنين في قعر الهامش ؛ تتناوب المتاهة حياتهم ، وقد لا يجد البعض منهم أمكنة تدعي مأوى لائق بإنسان ؛ فهم إما من يفترش أرض الرصيف بقطع الكارتون والخيش ، والعتب التي يصفها على بعض لبوهم نفسه أنه بين جدران واهية تذروها الريح ؛ أو ينقعها ماء المطر . يأتون مبكرين إلى قلب المدينة ، فهم لا يعرفون السهر في المقاهي ، أو دور السينما ؛ بل يأوون إلى زواياهم وأوكارهم كالطيور على الأشجار، وينهضون مبكرين ؛ كأنهم أضاعوا شيئاً ، يحاولون البحث عنه .

فلا يعثرون سوى على قبضة هواء ، وبضعة أسمال يسترون بها عوراتهم . جار عليهم الزمن ، ولم يرحمهم أحد أو مؤسسة إنسانية . القدر هو الذي يحييهم ويميتهم . فكم منهم مات على الرصيف ، أو غاب عن الدنيا مرغماً في زوايا خان أو خربة فيوارون الأرض كما لو كانوا حيوانات نافقة ، دون مراسيم تشييع ولا مراسيم عزاء . يأتون إلى الدنيا بلا هوية ، ويغادرونها بدونها . ليس لهم تاريخ يُذكر ، إذ سرعان ما يذوب وجودهم كالزئبق ، المساقط على أرض رملية ، لا تمسك معالم له . أهذا تاريخ للإنسانية وهي تصنع إنسانها ؟ مشردون في الأرض ، لا يلوذون إلا بأقرب الأماكن لهم . يأكلون كل شيء من الفضلات ، ولا يعد لهم بيتاً الطعام اللائق بالإنسان ، فهم كالحيوانات يلتهمون البقايا ولا يشعرون بطعمها ، فهي سد حاجة وملء بطون ليس غير . إذا ناديتهم لا تصدر منهم ردة فعل، وإذا آذيتهم ، يتركون بقعتهم إلى حين . إنهم نخبة القاع المنسي والمجرد من هويته ، السائر مع تيار الزمن أي يكون الاتجاه ، لا اعتراض عندهم . أضاعوا ما يسمى الأسرة ، والتهمهم الفراغ وليس المجتمع . الفراغ وحده يحتضنهم ، كي يصنعوا منه وهم المكان . خلدتهم الذاكرة ، ذاكرة المدينة التي تستجمع ما احتوته ذاكرة الفرد . يعرفهم الجميع ولا يتذكرونهم ، لأنهم لا يشكلوا معنى في الحياة من وجهة نظرهم . غير أنهم بصناعتهم لتاريخهم اليومي يؤسسون لمبنى خلقوه بجهدهم في التشرد والضياع . صحيح حين يقرأ البعض ممن يقع الكتاب هذا بين يديه ،

سيمرح مع نفسه ، ويستغرب من كيفية استعادة الذاكرة لصور هؤلاء ، ولا أعتقد أنه سيثني على جهده ،متذرعاً بأن الكتابة عن هؤلاء محض عبث أمام تاريخ مجتمع وسياسة وحقب لم تحقق سوى الدمار الذي لازم الوطن ولازال . لقد نسي الجميع مفردات حياتهم ، وتشكلات ذاكرتهم ، فتمسكوا بانهم كما يرون ، ونسوا أن ما أنتجه الهامش هو صورة لبؤس الأزمنة ، وحطل وحيل السياسة في البلد . فلا تاريخ مشرف يمكن أن يلتذ به المرء ، سوى تاريخ المهمشين القانعين في الزوايا ماضياً وحاضراً . والدليل على هذا تزايد مثل هؤلاء،بل أن بعضهم شكّل ظواهر جديدة .. طالب معقد لهذا السبب أو ذاك... أستاذ جامعي لاذ بالبرية لينقطع عن الوجود المر ... امرأة شابة أو عجوز فقدت مأواها بعد أن فقدت أسرها .. فاقدوا الذاكرة ... نصف المجانين . هذه هي النماذج الآن . فهي تعيش بيننا ، وتغادر دون أن ينتبه لهم أحد . ولم يضع أحدهم وجود هؤلاء كقياس لفقدان الحياة لأهم مستلزماتها ، وهي أن يكون للإنسان وجود وقور فقط ، دون أن يكون له قيمة اجتماعية حققها الأراذل ممن امتهنوا السياسة والمناصب كي يسدوا أبواب عوراتهم في الوجود. المركز دائماً يصعد على الهامش، بل يغطيه تخلصاً من تأثيراته على وجودهم . هؤلاء نخبة للمدينة ، الذي أعرفهم واحداً .. واحداً . وفضلت صورهم أن، تكون في أول الكتاب(نخب القاع) لأن نخب السطح ما رحنوا إلا دفاعاً عنهم ، ومطالبة لوجود نظام يحميهم ولا ينكّل بهم . سوف يبقون ومن يتحن بهم

في قادم الأيام عنواناً لخلل اجتماعي ، يتحمله ضمير السياسي تحديداً، لأنه تربع على دفة السلطة دونما مسوغ مبدئي ، فزاد عدد المشردين في الأرض ولم ينقص ؟!!

شنيشل
الساخر الواعد

منذ ستينيات القرن الماضي ، تحتفظ الذاكرة الجمعية في المدينة لصورة الرجل الفارع الطول ، داكن البشرة ، ذوالرأس الصغير نسبياً ، ضعيف ممشوق القامة ، كثير التعليق على ما يحيطه ، ملفت للنظر ، أرتبط اسمه ووجوده بالسينما وبعدها اشتغل في عدة مِهَن . كان يتجول في أسواق المدينة وأزقتها ، متقدما اللافتة الخشبية التي تحتوي على لقطات من فيلم المساء ، يحملها شابين يضعان كل زاوية من القطعة الموصولة بعمود خشبي على كتفيهما ، متشبثين بالعمودين ، سائرين على وفق إيقاع مسيره ، منصتين إلى تعليقاته التي يكررها وهو يسير :

{الحق هذه الليلة في سينما الأندلس ، فلم المغامرات بالألوان ،فلم الوحوش والغابات . طرزان والشيتا مع تمثيل لكس باركر لا تفوتكم مشاهدة الفلم الجديد طرزان في الأدغال وبالألوان }

يصحب ذلك حركات من يديه وقسمات وجهه .

شنيشل يبدو حاملاً كل خصائص الرجل البهلوان ، الذي يؤدي دوره ، منطلقاً من كثرة مشاهداته للفيلم الذي يُعلن عنه أو من الأفلام الأخرى التي يُشاهدها بحكم عمله ، مما أسبغ على شخصيته خاصية المرح والتشبه بتلك النماذج خلال تأدية حركاتهم وحواراتهم ، أو أنه لا يتخير من حركاته أو يبخل بها ، وإنما تراه يدور بجسده المعزلي ، الملفوف بدشداشة ، يجمع عرضها من الوسط حزام ، يبرز من خلال ضغط على حلقته حصره الرشيق.

شنيشل .. يتحول بين المهن وفق ما تقتضي الحياة وظروف المعيشة ، فهو يُعيل أسرة تتطلب منه الكدح طول النهار والليل ، وعلى طريقته الخاصة . ولم يسلم من تأثير ثورة تموز عام 1958 بل أخذته بتيارها الجميل الذي استنهض ما كمن في دواخل البسطاء من الناس ، إذ وجدوا فيها لغة تتناسب وتتناغم مع لغتهم اليومية . ولم تفارق مخيلته صورة الزعيم من خلال شاشة السينما ، حيث كانت صورته بديلاً عن صورة الملك فيصل الثاني ، الذي يدعو من هم في قاعة السينما النهوض للملك وتحيته إن تطلب الأمر ذلك ، أما الزعيم فقد عرف المشاهدون عن هذا التقليد . لا ندري لماذا ؟ لكنه بالتأكيد ليس استهانة به ، بل لأنهم عرفوه جزءاً منهم ، فهم في بيته ، وهو في بيتهم . ثمة – ميانة – بين الطرفين ، فهو زعيم شعبي . وشنيشل أثارته محاولات التآمر على الثورة فغضب أيما غضب ،

وتحمس للتعبير عن شعوره الوطني بما كان يقدمه من ولاء للزعيم والثورة ، تجسد في الشجب للمتآمرين ، الذين حاولوا الإجهاز على مكتسباتها . وحين أدرك المتآمر ، سارع إلى الاستفادة من مانشيتات السينما ذات الألوان البراقة ، وكبيرة الحجم . راح يقص صور الراقصات ويحدد أجسادها ، ومثلها يعمل قوالب من الخشب العاكس ، يُلصق الصورة على القالب ويستغني عن رأس الراقصة ، برأس المتآمر ، لأنه أدرك أن من تآمر على بلده لدوافع شيطانية . لكنه عبّر عن مشاعره بهذه الطريقة وكل ما درج عليه هو التجوال في شوارع المدينة وأزقتها حاملاً لوح الاحتجاج هذا . كان يحمل صوره الكبيرة على سيارات مكشوفة ، أو عربات تجرها الحمير ، متجولاً في الأسواق والأزقة ، بديلاً عن عروض السينما.

شنيشل .. مفردة من لغة مقالة المدينة . جاهد مع صحبه ذوي الحس الشعبي ، والحب الفطري للوطن من خلال حبهم لمدينتهم ، فراحوا يمارسون حياتهم بتلقائية ، كتلقائية الحياة آنذاك ، حيث بدت الأسواق يومياً لا تخلو من كرنفال يؤديه هذا الرجل أو صحبه ، بما تجود به قدراتهم في التعبير . فهم ممثلو المدينة ، وأبناؤها البررة . لا تغلب على سلوكهم اليومي ما يعانوه في بيوتهم من مسؤوليات في إعالة أفرادها ، والعمل على توفير ما يسد حاجاتهم اليومية والموسمية . ذهبت الدنيا ومجريات الحياة بـــ (شنيشل) إلى منعطفات كثيرة . وغاب عن المدينة ، ولم يخرج من دفتر ذاكرتها ، ولم يتحمل هو فراقها ، بل كان يعود إليها ممارساً مهنة

جديدة . وآخر ما عاد به هو تاجر الانتيكات ، وكان الرصيف دكانه ومعرضه ، الذي يزخر بالأثاث المنزلي ، جالساً وسط حاجياته الوثيرة والوفيرة ، لا يعلن عنها ، فهي من تعلن عن نفسها ، يتقاطر عليه المشترون، وخاصة من النساء ، ممن لهنَّ حاجة إلى (زولية) أو (طباخ) أو (بطانيات) خاصة (أم النمر) الأصلية التي تأتيه ممن يتاجر مع أسواق الكويت والعبدلي والزبير في البصرة ، مدعياً إنها من بضاعة – القجق – أي التهريب . مما يدفع المشترين إلى اقتنائها لندرتها .وحين ضاقت به الدنيا وسبل العيش ، هاجر إلى البصرة ، وامتهن نفس مهنته في دور السينما ، وأصبحت له شخصية شعبية ، يعرفها الجميع . وفي يوم وجد نفسه أمام شخص يشبهه بسمرة دكنه ، وأنف أفطس ، لكنه أقصر منه قامة ودار بينهما حوار ، كان المبادر هو الرجل حيث سأله:

– هل تعرفني ؟

قال شنيشل :

– لا .. ولا زغراً بيك؟!

– سأل وخذه:

– كيف يكون هذا والبصرة كلها تعرفني ،وأنت لا تعرفني ؟!!

– أجاب بعفوية وسذاجة :

– أنا لست من البصرة .

– فمن أين أتيت يا ترى ؟

- من الناصرية .
- عُدْ إليها وبسرعة .
- لماذا تطردني ولا تضيفني؟!
- أنا لا أطردك ، بل أن البصرة لا تتسع لاثنين ، فقط لي أنا تومان.

يومها ، جمع ما تيسر من حاجياته وعاد إلى مدينته بخفيّ حُنين . لكن الزمن كان قاسياً على (تومان) مثلما كان مع شنيشل، فما كان منه إلا أن دخل الناصرية مهاجراً دون أن يقترب من دور السينما خوفاً من صاحبه المطرود. غير أن شنيشل عرف بوجوده ، وسأل وتقصى ،حتى عثر عليه ،فاستضافه في بيته ، وعمل على تشغيله في ساحة مهرجان العيد ، أوقفه بجانب دولاب الهوى ، وراح يعزف للأطفال في مزمار(مطبك)بدفع الهواء من أنفه الأفطس ، فيجتمع إلى جانبه الكثير مستغربين من هذا الكائن، الذي يصدر أصوات يطرب إليها الأطفال ، وينجذبون إلى الدولاب . وشنيشل أخبره بأنه سيجد له عملاً في سينما الأندلس معه . فما كان من تومان إلا أن شكره ، لكن إمارات الندم لم تفارق قسمات وجهه .

وتدور على شنيشل الدوائر ، وتأتيه الدنيا بصفحات لا تداخله يوماً معانيها ، حتى كان منتفضاً في عام 1991 فرحاً بتحرر الوطن من الكابوس ، وما كان منه إلا أن رحل مع من رحلوا فغيبه القدر في الغامض من الأماكن . فعدّ شنيشل – رحمه الله – من شهداء الانتفاضة.

رحل شنيشل ، ولم يترك سوى ذكرى طيبة في نفوس أهل المدينة ، ربما تساوت مع قيمة (تومان) في البصرة ، فثمة تقارب بين شخصيتيهما وتجربتهما في منح الآخرين الفرح الذي يقود إلى السلام والمحبة ، ويُبعد الكراهية بين أبناء البلد الواحد.

عمّي جوعان

رجل يمتاز بالسمنة المفرطة والطول الفارع ، حيث يبدو كالمارد الذي يخرج من القمقم لحظة احتكاك الكف بسطح المصباح . غير أنه لا يبدو متماثلاً مع مخلوق المصباح ، يعمل على تلبية حاجات طالبه ، فقط يبدو مخيفاً للصغار . فقد كشف الصبية ضعف حجمه أمامهم،وقلة حيلته في ما يدبرون له من مكائد. متشرد في محطة قطار الناصرية . كان يخاف كثيراً . ويهرب حين يفاجئه ، بل يلوذ منه وراء القاطرات أو الجدران ،حيث تتبدد قوة حجم جسده ، وتذوب قوته الخائنة للعيان ، فيبدو طفلاً يخاف من القطط والكلاب هارباً بأقصى ما يمتلك من قوة ، وحينها يتخفى في الزوايا ووراء الأكشاك فهو يرعبه ذاك المخلوق الضعيف الذي يتلبس وجوده الذهول والشرود دائماً. وكنت أسأل : كيف يُخيف المخلوق الفأر مثل هذا الكائن الضخم؟! مرة صادفته وأنا جالس في القاطرة لغرض السفر ، كان تبدو قامته للجميع ؛ عبارة عن كيان مريض بالورم وفقير متشرد ، إذ يُسارع الكل في وضع بضعة نقود في كفه التي يرفعها لحظة مشاهدة

أحدهم وهو يخرج النقود . كان يقف بشكل بائس لا تتناسب حالته مع حجم جسده ، ودائماً تكون دشداشته قصير يحزمها من الوسط ، فتبدو ساقاه منتفختان بإفراط واضح ، لا تتناسبان كثيراً مع ورم جسده بشكل عام . وقف خطتها وسط فسحة القاطرة التي يمر عبرها المسافرون وهم ينتقلون من قاطرة إلى أخرى . وبعضهم يطلق عبارات اتجاهه: (ها عمي بعدك جوعان / وين ما أشوفك تشكو الجوع). وهو فعلاً لا يحسن أداء الكلام ،سوى نطقه : عمي جوعان. فكان أن أصبح قوله لقباً لشخصه. فلا أحد يعرف اسمه ، ولا من أين أتى ، وإلى أي عائلة ينتمي . فقط يجوب المحطة ، ويدخل القاطرات ويخرج منها ، حتى يصل إلى محطة (أور) ثم يعود مع الركاب العائدين من المدن الكبيرة (بغداد والبصرة) أو تلك التي ترقد طول تاريخها على الطريق العام . حين يعود لا تستقبله سوى زوايا المحطة ، ينام مفترشاً الأرض دون بساط أو غطاء . يسكن هكذا ؛ جسد ضخم يصدر شخيراً كبوق الانذار .

عمي جوعان... ارتبط وجوده بالمحطة ، فلا يتعداها إلا نحو الأماكن القريبة. لا يؤذي أحداً ، فقط يبتعد عمن يحاول استفزازه ، فضخامته تُرعب الصبية ، فلا يقتربون منه ، فقط يُطلقون عبارة(عمي جوعان) من بعيد ، ثم يولون هاربين عن موقعه . هذا الجسد الهائل كان أشبه بفأر مذعور يلوذ بالزوايا . فقد وجدته سامق القامة ، حين دخل مرة إلى القاطرة قصد الاستجداء ، وخطة دخول أحد المتسولين المقيمين في المحطة

أيضاً ، هرب بسرعة منه ،باتجاه القاطرة المجاورة عبر فسحة ارتباط القطرة بمثيلاتها ، بينا بدا المتسول الذي تبدو عليه إمارات البله والشرود الذهني، يسير ماداً كفه للجميع دون كلام ، ضعيف الجسد يبدو، مقبضاً مصفر الوجه ، على رأسه يشماغاً وسخاً ، ويرتدي سترة وسخة تكبر على جسده ، يلبسها صيفاً وشتاء . تبدو جيوب سترته منتفخة بما تحتويه من خبز أو فواكه أو أي مادة طعام ، بينما يخفي النقود التي يحصل عليها في الجيب الداخلي . هذا المخلوق المسكين يخاف منه عمي جوعان ، فيهرب عن موقعه . هذا المخلوق حين مات ، عُثر في عشه الذي صنعه من الكارتون والحصران البالية ، حيث بدا مثل كوخ صغير ، كان يضع على ظهره كل ما يحصل عليه من كارتونات من زوايا النفايات ،حتى صار له سقفاً يحميه من المطر . حين مات ، وحمله (أهل الرحم) إلى مثواه الأخير في مقبرة(السيّد حضيرأبو حيابة) عثر من فتش كوخه ،فوجد كل ما هو مستهلك وغير مفيد ، أصبح عنده مفيداً ، وحين تمادوا في البحث بسبب عدم عثورهم على أي نقد في سترته ، فداهمهم الشك ، أين يذهب بالنقود التي حصل عليها ؟ سؤال حيّر الجميع . وقبل أن يردموا الكوخ وينظفوا المكان في الخطة عثروا على صندوق غير صغير نسبياً ، فتحوه ، فوجدوا في داخله نقوداً لا تُعد . غير أن المستغرب في الأمر ، وجدوا النقود الورقية ملفوفة بعناية في كيس قماش ، والنقود المعدنية مرصوفة بعناية أيضاً ، وهي كثيرة جداً . لكن المستغرب أكثر ، كان سببه وجود عملة ورقية من العهد

المكي . إزاء هذا نظر كل منهم إلى صاحبه ، فكانت الخسرة تدور في صدورهم على الرجل الغائب الذي يمتلك ثروة هائلة ، لكنه لا يعي قيمتها . تماماً كما أنه لا يعي أن (عمي جوعان) يخاف منه ، ويولي هاربا منه . ولو كان يعي ذلك لاقترب منه . وربما اصطحبه إلى كوخه ، وأسكنه معه بعيدا عن العراء الذي يسكنه ، لأطعمه وألبسه واشترى له فراشاً وغطاء يتدفأ به . فليس فيه ما يرعبه ، مات المسكين دون أن يتصرف بماله ، ولا يدري أحد أين أصبح مصير عمي جوعان ، أفي المحطات أو الأماكن القصية . فلا أحد تحدث عن مصادفته له في المدن التي دخلها ، أو المحطات التي نزل إليها . فقد توقف تاريخه إلى الأبد ، شأنه شأن باقي المتسولين الذين اقترن وجودهم مع تاريخ المدن كـــ (جواي، كريم الزهيري).

كريم الربيلي

يوم لم يكن ثمة سيرك إلا خلال شاشة السينما المتنقلة ، كان (كريم الربيلي) رجل السيرك في المدينة بامتياز . فهو إنسان بسيط في طباعه ، ومتواضع في ملبسه ، يحب النكتة ، ويُسارع لتوفير المتعة للناس دون مقابل مادي. شغفه بهوايته جعله كائن يعيش بين الناس ليملأ فراغاتهم ، ويسد شغفهم في التمتع بأي فعل يُبعد عنهم هم الدنيا ، رغم أن الحياة في زمنهم نادرة الهم الكبير ، لكنهم لا يجدون التسرية عن تعبهم اليومي وفضولهم المتزايد ، سوى مشاهد عرض سينمائي ، وملاحقة السيارة التي تتنقل بين ساحات المدينة الفارغة من البناء، حيث تُنصب داخلها الواسع شاشة كبير صقيلة البياض مؤطرة بالأسود ، . تقف السيارة بعيداً عن الشاشة ، ويجلس الجميع بينهما على الأرض ،منتظرين لحظة سيادة الظلام الذي يُتيح لآلة العرض بث محتوياتها عبر

موشور ضوئي مستقيم ، يمر من أعلى رؤوسهم ؛ ليعكس على الشاشة على شكل صوّر متلاحقة يحكي قصة مرئية ذات نبرات صوتية . وربما (كريم) يجلس بينهم ليشاهد العجائب ، ويتعلم منهم . لكنه يقوم بتنفيذ فعاليات مختلفة . صحيح أنه يختار مساحات متروكة بين البيوت ، لكنها ليست بنفس سعة العرض السينمائي ، بل أقل منها . مساحته المختارة تُتيح له التحرك بحرية تامة ؛ يؤدي خلالها حركاته المتلاحقة ؛ متنقلاً من زاوية إلى أخرى ، يفسح له المتجمعون المجال ؛ مشكلين صفوفاً تُسيّج الساحة بمربع بشري أو مستطيل ـــ يتحرك فيه (الربيعي) بحرية تامة .لاسيّما أنه في بعض الأحيان يقترب من صفوفهم حد التماس ؛ فيتقهقر الجميع كقطعة بشرية واحدة إلى الوراء ؛ تاركين له المجال لإتمام فعاليته ؛ وعدم افساد أدائه .

كل الذي يقوم به(كريم) من فعاليات ، هي اصطحاب دراجته الهوائية ، راكباً إياها ، متجولاً داخل الساحة ، ثم مقترباً من صفوف المتجمعين . يستكمل دورته بالقرب منهم ، يدنو من صفوفهم ، ويبعدهم مشكلاً محيطاً لدائرة أوسع سياجها المتجمهرون حوله ، ثم يعود إلى مركز الساحة على عجالة . وبسرعة ودهشة الجميع، يقف في منتصفها ،مسيطراً على دراجته ، دون أن توقعه على الأرض. وما هي إلا هنيهات ،حتى يعاود الحركة في مكانه ، مدوراً الدراجة على محيط

دائري ضيّق جداً .. يقفز .. ويقفز وإطارات الدراجة بدورانها تُحدث شرخاً في الأرض ، مثيراً غباراً . وكلما استمر تزداد كثافة الغبار ، حتى تغطيه ودراجته . يختفي عن الأنظار داخل زوبعة ترابية ، حيث يظن الجميع الظنون ؛ بل تلازمهم الدهشة من اختفائه . فجأة يخترق جدار الغبار ليخرج مسرعاً ، مبتعداً عن الكثافة ، التي تبدأ بالتلاشي التدريجي . يُسرع باتجاه زاوية من الساحة يختارها على عجالة ؛ ثم يسير بسرعة فائقة نحو زاوية أخرى ، وهو يقف على دراجته ، دون الامساك بمقودها . تتهادى به ، سائراً على عجالة وهو يرفع قامته فوقها ؛ وساعداه يبدوان كجناحين يوازن بهما قامته ؛ ولحظة بلوغه مع الدراجة الزاوية الأخرى يترك قامته تمتطي الدراجة بتوازن واضح، كما لو أنه يمتطي فرساً جامحاً . يُعيد لوجوده وحركة الدراجة توازنها. بعدها يواصل تجواله في الساحة مبتسماً ، بعد أن يتلقى الاعجاب المرافق بالتصفيق من الجميع ، فتبدو قامته كما لو أنها هيأة طائر ذو ريش ملوّن . يتباهى ويتبختر بقامته التي تمتطي سرج الدراجة . إذ يفاجئنا بأن يترك الدراجة لوحدها تسير ؛ ثم يتبعها ، وما أن تحاول الاستكانة يمتطي ظهرها كفارس متدرب ليُعيد لها حركتها التلقائية . وبعد أن يأخذ له نفساً بتجواله في الساحة ، قاصداً هذه الزاوية أو تلك ، أو ضلع الشكل الذي عليه الساحة خلال تكدس الناس ، يرمي شيئاً على الأرض ، لا يتبين شكله، يُغادره على عجالة ، ثم يعود إليه بعد أن يبلغ أحد الأضلاع ، يُدور

الدراجة ، قاصداً بسرعة متناهية مكان تلك القطعة ، يدنو منها والقلوب تهفو إلى ما سيقوم به(الربيلي) الآن ، ينحني إلى الأسفل وعلى عجالة يلتقط القطعة ، رافعاً إياها إلى الأعلى ، فتبدو للعيان أنها منديل صغير يلوح به وهو يدور .. ويدور . يرمي أحدهم محفظة نقوده على الأرض ، ما أن يشاهدها حتى يقصده على عجالة ملتقطاً إياها عن الأرض بمثل ما التقط المنديل ، ثم يُسلمها لصاحبها دو ن أن يتوقف.، يصرخ أحدهم قائلاً :

– إذا أنت شاطر إلى هذا الحد ، فهاك هذاالدبوس.

ثم يرميه على الأرض قائلاً:

– هاته لي يا شاطر ..، يا كريم يا ربيلي.

يحمر وجه كريم على هذه الجسارة والصلف ،لكنه كما اعتاد مثل هذه الأفعال لا يُعير أهمية لقوله ، فهو صبور يهمه ما يقوم به من حركات بهلوانية، وهذا الامتحان الصعب ، الذي وفر له كل أسلحته الجسدية ، مثبتاً موقع الدبوس ، راسماً حوله دائرة وهمية . استدار على عجالة ، قاصداً موقعه . وحين وصله مال بكل جسده إلى جانب الدراجة ، كما لو أنه يقع على الأرض ، مما أثارت أصابع كفه غباراً ، فعي بسرعة وامتطى الدراجة، وراح يدور .. ويدور ، مما ظن الجميع أنه أضاع الدبوس في غمرة التراب ، بمعنى فشل في المحاولة . ساد الصمت الجميع ، وهو يدور حتى اقترب من الشخص الذي رمى الدبوس ، ملوحاً بقطعة السلك التي ثبتها على أطراف

أصابعه خوف وفزعها ، أصابعه مثل فكيّ كلابتين محكمتا القبض . اقترب من الشخص وسنمه الدبوس ، فساد اللغط والتصفيق والصراخ بهذا الانتصار ، وما كان ويكون دائماً من (كريم الربيلي) إلى أن اختار زاوية من بين صفوف المتجمعين ، حتى نفذ خلالها تاركاً الساحة ، بعد عرض بدا مشوقاً للجميع . هذه المشاهد سردناها كما لو أننا تشاهدها الآن . وفعلاً استعدنا صورتها بحيوية المشاهدة الآن.

كريم الزهيري

يدور .. ويدور في أسواق المدينة . تقوده أمه الطاعنة في السن . يدوران على غير هدى: تتحكم في دورانهم العادة اليومية ، واحتراق الزمن باللامعنى، يجمعا من هذا الدكان ، أو تلك الأكوام من النفايات : بقايا الأطعمة ، والعلب الفارغة ، ثم يحشروها في صرة صغيرة ، سرعان ما تكبر بتقادم الزمن اليومي .تكبر كلما بلغ الزمن اليومي جريانه . يبقيان هكذا : حتى تبدأ الشمس بالمغيب ، بعدها تُسارع أمه العجوز لقيادته نحو منطقة الزهيرية جنوب مدينة الناصرية ، منطقة بعيدة نسبياً ، بينها وبين المدينة مسافات غير مأهولة بالسكان . يخترق مقبرة مهملة ومهجورة دون خوف أو وجل ، حتى يصلا إلى دارهما . ولا يعلم أحد كيف تكون هذه الدار : وماذا يجري داخلها . كل من في المدينة ، يعرف وبدقة وجود(كريم الزهيري) وهو يدخل من طرفها المشرع

حيث شريط التراب الذي يُسيّجها خوفاً من مداهمة فيضان (أبو جدّاحة) كما حدث في عام 1953.ربما يكون الجميع قد اعتاد وجوده ، والبعض الآخر ينظر وينتبه لوجوده اليومي . وما يبدر من الرائي له إلا يُلاشيه ويمازحه بعبارة(ها كريم أبو الكوت) فينتبه إليه دون أن يصدر منه حركة معادية أو ردة فعل سلبية ، فقط ينظر إليه بعينين غافيتين ،ووجه تنطبع على إماراته بقع السخام ،تنظر أمه بانكسار إلى القائل.تملأ صدرها الحسرة،ربما على هذا المصير الذي حل بها وبولدها كريم ، وهذا العذاب الذي يشدهم منذ الأزل بمثل هذا المصير المؤلم . غير أنها تبدو صامتة ، فقط تستجيب لمن يمد يده بقطعة نقود تخفيها في جيبها ،أو قطعة طعام تضعها في كيس نظيف أعدته لذلك. اثنان يغادران مترنحما ، قاصدين قلب المدينة ،مخترقين أسواقها فقط . فنادراً ما تجد هذه القافلة تدور في الشوارع والأزقة . حين تتعب القافلة ، تتفيأ في ركن من السوق ويبدأ كريم يتناول الطعام كما لو أنه حيوان كبير ، بينما أمه تأخذ قيلولة من النوم والاسترخاء ، مغطاة بعباءتها البالية والحائلة السواد المتحوّل إلى احمرار جرّاء فعل الأسود . يتغوط في أقرب بقعة يختارها ، دون مبالاة من الآخرين ، كما لو أنه مغمض العينين . فهو غافل عنهم جميعاً ، ولا يرد ذكرهم أو ترعبه صورهم . فقط يدير شؤونه بنفسه، وبمعزل عن كل ما يدور في الكون . تستجيب أمه له حين تحين لحظة بدء تجوالهم من جديد ، كذلك حين يتعب ، فتحط الرحال عند أقرب

زاوية عن الجميع ، خوف إيذاء الصبية لكريم ،ذي الوجه المشوب باللون الأسود جرَّاء تراكم الوسخ . فهو لا يمرر الماء على وجهه ، ولا يغسل فمه بعد الأكل ، ولم يشاهده أحد نظيفاً مغيّراً دشداشته المتسخة ، إلا بين أزمنة متباعدة . قد يغيب لزمن قصير : فيظن الناس أنه غاب بسبب مرض أمه ، لكنه يظهر لهم من جديد على نفس الهيأة . تكون صرته صغير حين يدخل، وما أن يهم بمغادرة المدينة ، حتى يلاحظه الجميع وهو ينوء بحملها . يُعلقها على كتفه من طرف ما ، فترتكز على ظهره على استقرار تام ،بما تتيح له الحركة السير بتمهل ، وأمه تواصل قيادته، خارجة به خلف السياج الترابي، نحو الزهيرية : التي تبدو غامضة للجميع، حيث لم تحدث أن آثار وجودهم وغيابهم فضول أحد فتتبع أثرهما .لا أحد مشغول بأمرهما . فأهل المدينة ، وأصحاب المهن ، ممن يقدمون الأكلات للزائرين أو ذوي الحال الاقتصادية، يقدمون إليهما ما تجود به سلة الفضلات من بقايا طعام ، وصاحب أحد مطاعم الكباب ، يقدم لهما وجبة غذائية تُليق بالإنسان ، فتزداد وجوههما بشراً ، وخاصة الأم التي تملأ بطنها من هذا المطعم كل يوم . وصاحبه يُزيد من عطائه بأن يضع في كفها بعض النقود ، التي تجد فيهما ثقلاً ، بعد مناداة صاحب المقهى المجاور ،بأن يقدم لكريم وأمه الشاي(السنگين) أي الأسود .

كريم الزهيري لا يؤذي أحداً ، وصمته يكاد يُلغي كونه يمتلك لساناً ، إذ يعتقد البعض أنه أخرس وأطرش من شدة صمته. لكنهم شاهدوه وهو يُكلم أمه ولو قليلاً . وأحياناً يعترض عليها حين ترغمه في السير بهذا الاتجاه أو ذاك . فقط ينقاد في معظم الأحيان لتوجيهات الأم التي تقضي نهارها سائرة برفقته في المدينة . فحدودهم الأسواق : لا يجلسون إلا على أرض مقدمات الدكاكين ، ولا يطلبون من أحد حاجة، وإنما أصحاب الدكاكين يُغدقون ما كان زائداً من مواد ؛ كالفواكه والأطعمة وبقايا الملابس،يضعها في صرته التي تكبر.. وتكبر بمرور ساعات النهار. وهو لا يضجر من حملها، إذ يبدو صحيح الجسد ، قويه حيث يتحمل الثقل ، ويسير به لمسافات حتى يصلا إلى الزهيرية التي تبعد كثيراً عن مركز المدينة. ولا يتذكر أحد أن (الزهيري) تغيب عن الحضور ، أو فتر تجواله . فهو مثابر حتى على الدوران وهو جالس أمام صرته . لحظة يضع حملها عنه في القيلولة المسائية ، وبعد أن يتما تناول الطعام ، يبدأ بتدوير قامته التي تتمركز على عجيزته ، يدور .. ويدور ، ويزداد أحياناً دورانه ، ويفتر ويقل في لحظات أُخر ،كما لو أنه يشعر بالتعب والدوار، ثم يعاود التدوير ، بينما والدته تتوسد الأرض واضعة كفيها تحت رأسها كوسادة . وقد علق أحدهم يوماً وهو يراه هكذا يدور حين يجلس :

– أنظروا أنه يثبت أن الأرض كروية ..!!

ولا يخفي أحد عن نفسه حقيقة أن (كريم الزهيري)أو(كريم أبو الكوت) كما يُلقب أحيانا تُشكّل ظاهرة شعبية انظمّت إلى الكثير من الظواهر البشرية ،يكون أعضائها فاقدين للصيرورة الأسرية والأمان والعيش الكريم .إ ذ تجدهم يجوبون الأسواق كأعضاء سيرك ، أو قافلة من المشردين الذين يلقون عناية من أهل المدينة ، إذ يغدقون عليهم بما تجود أيديهم ، فلا ينعتوهم بأي صفة سوى مفردات المزاح ، فحالهم قدر من الله ، لا اعتراض على حكمته.

أبو صدّام

صادفته في شارع تفصل بين فروعه الأربعة فلكة ، في مدينة الزبير في البصرة ، كان الرجل يُكنى بـــ (أبو صدّام) كما عرفت لاحقاً. ولا أدري لِمَ لُقب بهذا الاسم ؟وربما لا يعرف الجميع ذلك ، ولا شيء من تاريخه ، فمن أي المدن أتى ؟ سؤال لم يتداوله أحد ، شأنه شأن المشردين في الأرض .فقط كان يتنقل بين المُدن ،ويشاهدونه وهو يقف في منتصف الفلكة ، ويأخذ دور شرطي المرور. كان سوّاق السيارات يمتثلون لإشاراته وتوجيهاته وهو الرجل المعروق الوجه في الظهيرة القائظة . وربما يكون شرطي المرور ينام قرير العين على سريره ، لأن (أبو صدّام) يؤدي دوره بمهارة عالية ، فلا حادث هناك ، ولا خرق للمرور . يمازحه أصحاب السيارات ، وراكبي الدراجات ، حيث يطلقون العبارات:

– أبو صدام سيارة وراك .. انظر .

ولا يلتفت :

- دير بالك هه ولد عبر روتسايد!!

ولا يرد :

- دير بالك من السواق .. ترة يعبرون ويسجل عليك حادث .

تحمر عيناه ، ويزداد لمعان حبات العرق على جبينه فهو يغلي من الداخل، يأخذ باللهاث ، وهو منهمك بالإشارة ، والسواق يستجيبون ولا مخالفة أو حرق يحدث . يحدث اللغط من الصبية ، وهو الأكثر صبراً على مناكداتهم . وحين يفرغ الشارع يفز الصبية تعباً ، فهم يعرفون ماذا يفعل . سرعان ما يقصد حزمة الخشب التي طرحها على الأرض ،يستل واحدة منها أكثر متانة وغلظة . يلوّح بها في الفضاء ، شاتماً إياهم ، يتوعد كل من يقترب منه ،مردداً بحماس :

- هذي شردت بيه الانكَليز في الرازجبة ، فمن يصمد منكم أمامها. روحو لمهاتكم تنطبكم حنيب ، وكَبل ما تجون حل امهاتكم تفطمكم وتو كلكم حره .خل اتعلمكم الأدب.

يهرب الصبية أمام تهديداته بالرغم من أنهم يعرفون جيداً ، أنه لم يضرب يوماً أحداً بهذه العصا ، أو أي عصا تنظم إلى حزمته . فقط كان يجلس بين الجميع في المقهى ،أو مقترب الشارع أو السوق ، يضم حزمة الخشب إليه بقوة ، لا يدري أحد لماذا يحرص عليها كل هذا الحرص . فهو

يتأبطها أو يضعها على كتفه كسلاح ثقيل ، قاطعاً الأسواق أو الأزقة والشوارع ، لا يعتدي على أحد ، ولا يعتدي عليه أحد ، فقط يرمونه بالكلام ليحركوا مشاعره ، أو يسألونه عن العصي ، حيث تبدأ حكايتهم :

– أبو صدام ما قصة هذه العصا ؟

ويُشير إليها . لكن أبو صدام لا يفعل ،بل يقول له ، سأشرح لك ، شرط أن تجلب لي استكان شاي ، فهو يحب شرب الشاي بإفراط ، ينهض السائل ، إلى المقهى ، ويجلب له الشاي . يستقبله بالشكر والامتنان بكل وداعة ، ثم يقترب الجميع من حوله ، إذ يقول وهو يرتشف بلذة ، يخرج صوتاً إثر امتصاص سائله ، يحصر كمية ضئيلة منه في فمه ويديرها، فيصدر صوتاً ، يقول :

– سأحدثكم لا عن هذي العصا ، وإنما عن غيرها ، انصتوا لي جيداً . حين أتى الانكليز غُزاة إلى بلدنا تصدينا لهم ، وحاربناهم بكل قوة .. يرضه واحد منكم يدخل بيته غريب ؟

يصيح الجميع : لا .. شلون هذه !!

يواصل :

– عفيه .. هذا ما كان وما جرى ، تصديت لهم بهذه العصا في القاور، أنتم تعرفونها ، ولاية علا البحر ، لاحقتهم حتى وصلوا الشعيبة البيهه القطار . حاربتهم بقوة ، ومات منهم الكثير . رحت ألاحقهم كلما

تقدموا في مدننا ، يدخلون أحدها ، تاركين معسكراتهم فيها ، ويرحلون إلى الأخرى ، والنار مشتعلة بيننا وبينهم . لكن القوي بسلاحه ، وأنه ما قصرت هذي العصي .

ويبدأ بالبكاء ، وهو يفرط شمل العصي : بعد أن يفك رباطها ويكشف عن قاماتها بأن يطرحها على الأرض ، ويبكي .. ويتحدث .. ويبكي:

– هذي استعملتها في الزرنجية ، وهذي في الناصرية ، هذي في الفاو، هذي في الشعيبة ، هذي في سوق الشيخ ، هذي في النجف ، كربلاء– بغداد. وهنا ضعت يا أولادي ، بغداد جبيرة .. شديت عصيي وهربت عن عيونهم ، موحايف ، بلاكن القوة تاخذ البصرة ، وأنا ضعيف أمام سلاحهم .. لكني والله يشهد على كلامي ، ما قصرت ، لا والله ما قصرت .وهاهي عصيي أحملها وأجوب بها مدننا : علّ أحد يستيقظ من نومه ويتبعني ؟!!.

ثم يكفكف دموعه ويمسحها بطرف يشماغه ، بينما يُسارع اثنان ليحضرا استكانين من الشاي ، يتنافس كل منهما على تقديم شايه إلى أبو صدّام . لكنه يتدارك الأمر ، إذ يُمسك الاثنين معاً بين أصابع يديه ، شاكراً . وبعد أن ينتهي من شرب الشايين ، يُحزم عصيه ، ويُغادر مكانه ، وينفضّ الصبية موزعين في الأزقة ، تملأ صدورهم الحسرة ، بينما أبو صدّام

يبحث عن فلكة أخرى ، أو زاوية في زقاق ملتوي ، كي يُريح جسده المتعب من التجوال اليومي .

هكذا رأينا أبو صدّام ، ربما تراه في مدينة تدخلها لأول مرة ، أو تسمع عن أخباره في مدينة أخرى . وهكذا عايشت صورته مخيال الناس في مدننا . وفي يوم كنا ننتظر القطار النازل .. قطار الحمل في محطة لقيطة ، حيث كنت أعمل معلماً في مدرسة القرية . ولأن القطار يتأخر بعد حرب حزيران وبروز شحة استيراد المواد ، فقد قلّت حركة السير . كنا في أشد الحماس لحضور القطار قبل حلول ظلام الليل ؛ وإذا بي أجد قامة أبو صدّام تنبثق من ورائهم ؛ وهو يقترب مني ، ويهمس بأذني :

– استاذ مو بيدك ، بيد اللي شغله وانهزم . مساكين هؤلاء .. قل لحكامك

في بغداد ...!!

نظرت إليه بدهشة ، تأملت حكمته الوطنية ، ولم يبد مني سوى أن سألته :

– ها أبو صدّام شلونك ؟

أجاب :

– أنا زين ، لكن ذوله المساكين منو إلهم ؟!

ثم غادر جمعنا ، وتلاشى في الفراغ .. هذا هو أبو صدام حاضر بيننا ، غائب عنّا !!؟ وربما لو أتيح له محاربة الظلم بعصيه هذه لاستطاع وتقدم غير مبالٍ بخباثه، فهو يحمّلها تاريخ طويل ، متخذاً منها رموزاً كبيرة .

جليل المتحطم

جليل وهو يتمايل بين محبيه ، ومطلقي حركات المزاح معه ، لا يعرفون أدنى معرفة بلم هو يتمايل هكذا ، فكأنه يسحق براحتي قدميه أرضاً من الاسفنج ، تدفعه إلى الأعلى ويقاومها بأن يميل جسده إلى اليمين أو اليسار ليتوازن ، فهل يشعر دائماً بأنه سيقع ، فيتدارك الأمر ؟ لا يعرف أي منا مثل هذه الحكاية ، ولا يهم الجميع سوى وجود (جليل المتحطم) بينهم في المقهى ، وهو يرفع قدح الشاي بين أصابعه المرتعشة ، ويرتشف بشفتين لا يسيطر عليهما ، بل يتهدلان مع ترسب لمعان اللعاب في زاويتيهما، حيث تظهر شفتيه محمرتين . جليل حاضر في المقاهي دائماً وداخل ساحات لعب كرة القدم . يعرف اللاعبين واحداً .. واحداً ، ويذكرهم بأسمائهم ، فيزداد حبهم له ، يهوى الرياضة يعمل على أن يكون خبر وسيلة اعلام رياضية. فحين يعرف أن مباراة

ستقام عصر الجمعة مثلاً، فأنه يتحول إلى بوق دعاية وهو يسير في السوق ، أو ينتقل من مقهى نحو آخر ، مردداً:

– سيهزمهم جميعاً نادي الفتيان ، سيكّول عليهم أبو العبس (ويقصد اللاعب الفنان والمحترف عباي هيل) : اليوم على ساحة مدرسة الجمهورية .. احجز مكانك على السياج.

ويأخذه الارتعاش والهيلان كأنه غادر للتو دولاب الهوى . يسيطر على جسده مردداً كلام غير مفهوم . حين يُسأل:

– ماذا عندك من جديد يا جليل ؟

يقول:

– هات الشاي و سأقول لك .

يضحك الجميع : فهو لا يعلم أن الجميع يعرف بالمباريات ، فقد وضعت اللافتة على صدر المقهى ، والاعلانات على جدرانها الداخلية ، تتوسطها صور اللاعبين(القط الأسود ، نعمان السيّد محمد ، شريف نعاس، عباس هليل ، عبد الله عرب ، ماجد الجابي ،علي مرهون الذي يحل ضيفاً على النادي كلما كانت لوحدته العسكرية مهمات في الناصرية، فيلعب مع المنتخب) وجليل يتجول بينهم في الساحة : فقد منحه الجميع حرية التجوال في أي الأمكنة ، فهو الشخص المدلل من

الفرق: حيث منحوه قميصا لاعب ، يرتديه أثناء المباراة ،يلبسه على دشداشته ، الذي لا ينفك الجميع من مداعبته بالكلام الجميل ،الذي لا يُثير سوى مشاعره الإنسانية . يمنحه الجميع ما يحتاجه من مال كمصرف يومي ، ويسمح له العاملين في دور السينما(الأندلس، البطحاء) من الدخول إلى صالة العرض دون سؤاله عن تذكرة الدخول . يأخذ من أي بقال ما يحتاجه ، دون اعتراض ، بل يكافئوه بعدد من الفواكه التي يشتهيها . فيأخذها دون أن ينبس ببنت شفة، سوى رفع كفه بحدود رأسه، وأحياناً يرفع ساعده ويأخذ تحية عسكرية لصاحب الدكان أو العربة الجوالة . ، تتضمن الشكر والوداع . يأوي إلى منزل عائلته مع جمع الساهرين ، يتمايل وتأخذه مطبات الأرض متداركاً احتمالات السقوط . فمشيته تلك غدت كقطعة موسيقية ، يؤديها دون إرادة منه ، فقد فرضتها عليه حالته الصحية التي لا شفاء منها كما ذكر الأطباء . لا يؤذي أحداً ، يحب الجميع ويعرفهم واحداً واحدا ، وإن كان لا يرفع عينيه عن الأرض ، لكنه يعرفهم من أصواتهم ، يحبه الجميع ، ويسارعوا لمساعدته ، والاحتفاء بوجوده في أي الأمكنة التي تشهد تجمعاً . يشاركهم ليس في مشاهدة المباريات المتنوعة ، وإنما في ما يعدون له في المقهى التي تجمعهم وهي مقهى (سعدون) حين يعرف منهم أن سيدة الغناء ستغني الليلة أغنية جديدة ، وهذا الولع واكبهم منذ زمن طويل ، وقت لم يكن ثمة جهاز بث للصورة ، فقط يراقبون بالسماع ما يبثه

الراديو الكبير والتراثي الذي يمتلكه صاحب المقهى ، وهو يسحب كل الاذاعات بما فيها لندن . يحضر إلى المقهى قبل الجميع ، وله في هذا طقوس منها استبدال ثيابه ، بثياب جديدة ونظيفة ، كأنه مقبل على أيام العيد ، يحمل بين يديه كيس الحب ، ويجلس في مقدمة الجالسين ، حتى حين يكتظ المقهى بالجلاس . يهتف ويتحمس معهم حين ترفع سيّدة الغناء صوتها العذب . ويبقى معهم حتى منتصف الليل ،يسمع كل تعليقاتهم على الأغنية، وما تحويه من جديد يُضاف إلى رصيدها الغنائي . وربما في جعبته ملاحظات تدور في ذهنه ، لكنه يعجز على الادلاء بها مكتفياً بقوله(خوش أغنية لسيّدة أم كلثوم) ومعهم يجلس لمشاهدة مباراة تجري على ساحات الملاعب في العالم . ويتحمس مثلهم ، ويعرف بعض اللاعبين العرب والأجانب . فهو مصغ جيّد لما يسمع ، ومشارك نادر للفعاليات الرياضية .

الفتى (جليل المتحطم) لا أحد يعرف من أي شيء تحطم ؟ ومن حطمه؟ هل تحطمت مشاعره مبكراً ، فاستجاب جسده لفعل الشلل هذا ؟ ولأي الأسباب داهمته حالة التحطيم هذه ؟ لكنه بالتأكيد يعرفها ولا يبوح بها . إذ لم يره أحد وهو يبوح بآلامه وطموحاته ، فجميعها قيد الحفظ في ذاكرة أعدت مغلقاتها على تشوش أو نظام ، هذا الذي لا يعرفه أحد أيضاً . فقط يعرفون وجوده البهي بينهم ،يُبدد قلقهم وحزنهم

بما يبديه من أحاديث مقطعة الأوصال ، له نظرات قلّ نظيرها ، لحظة يرفع عينيه عن الأرض مخاطباً الشخص باسمه :

– ها ... شعندك .. شكو ما كو ..؟!!

ويُغادر مائلاً في سيره قدر ما يتمكن..

الإنسان الآلي

نخبة من ساكني الأرض ، والمنتمين إلى مدينة محاصرة بين مصادرين مائيين(نهر الفرات/أبو جداحة) همشوا في الحياة ، لا لشيء سوى أنهم استثنائيين من الجميع،استثناؤهم متأتي من طبيعة حياتهم التي لا تخضع لقانون صارم ، سوى قانونهم الذاتي . تأخذهم الأرصفة والشوارع والأزقة، ولا يستقرون إلا في الزوايا . فهم باستحقاق فطري اكتسبوا هذه المكانة الوهمية(نماذج القاع أو الهامش) يدورون في الدنيا ، ولا يستقر حالهم إلا تحت دفء غطاء مدينتهم . لم يسألهم أحد عن وجهة نظرهم ، فليس هم من يُسألون هذا السؤال . غير أنهم يجيبون ويسألون في دواخلهم عن حال الدنيا وتقلباتها . فمنهم(جواي، عمي جوعان، كريم الزبيلي)وسواهم الكثير ،حيث ينظّم إليهم ما اصطلح عليه الجميع (الإنسان الآلي) . كان بلا اسم يُذكر،لكن مجال حركته في شوارع المدينة الرئيسية والفرعية والأسواق ، أكسبه هذه التسمية . حين أطلق عليه أحدهم في يوم ما هذا الاسم ، وهو يراقبه حاملاً قنينة الصفيح التي هي من فضلات علب دهان

السيارات ، ولاحظ طريقة تعامله مع القنينة ؛ فاستحق منه هذه التسمية التي ذهب مذهب بقاؤها لصيقة بشخصه . فهو ما أن يحضر أمام مقهى أو دكان ، أو في عرض الشارع أو وسط السوق حتى ينبري الجميع بندائه هكذا :

– ها هو الإنسان الآلي فاستقبلوه.

– كيف إذا انتهى وقودك هنا .. كيف تسير أو تتحرك؟!

– اعطوه طعاماً ؟

– كلا فهو لا يأكل طعاماً ، بل يحتاج إلى وقود كي تزداد حركته وتتضاعف .

لا يؤذيه أحد من الصبيان ، فهو يسير بسلام بين الناس ، فلم يصدر منه فعلاً فيه أذى للآخرين . وكثيراً ما وجده سائقي السيارات وهو يرمي بجسده على الرصيف ، فمنهم من يتركه بسبب كونه مكتف بمن يقلهم من الركاب ، والبعض الآخر يقف ، ويترك حوض سيارته قائلاً :

– مسكين خلص بانزينه.

يُرنه قول ببسمة بريئة فيها مزحة محببة . ثم يأخذ منه القنينة الصفيح من بين أصابع يديه وفتحتها المتروعة الغطاء القريبة من أنفه، ويفتح باب حقيبة السيارة ، يُخرج قطعة انبوب مطاطي ؛ يقترب من فتحة ملء

الوقود، يُدخل الأنبوب المطاطي من أحد رؤوسه في فتحة الخزان، والأخرى في القنينة . بعد أن يمتص دفعة منه ، ويتأكد أنه يجري في جوف القنينة ، وحين تمتلئ ، وينسكب منها بضع قطرات ، يعود إليه ،يقرِّب فتحة القنينة من أنفه ، وللحظات تدب فيه الحركة ، يُزيد من الاستنشاق ،حتى يستقيم جسده واقفاً ، يُعيد السدادة إلى فتحة القنينة ، ثم يصدر منه صوت أشبه بمحرك السيارة حين تبدأ الانطلاق ، يضرب قدمه بالأرض من المؤخرة ، ثم يغادر مسرعاً ، حيث لا هدف سوى التجوال من جديد ، بينما السائق يقف ضاحكاً مسروراً ،لأنه أنقذه في آخر لحظة له قبل موته بلا وقود .

وفي أحيان أخرى ، وهو على هذه الحال ، يُساعده أحد السواق ممن ألفوا وجوده ، ويرغب بالمزاح معه ، إذ يشممه شيئاً من البنزين ، وينقله معه في السيارة ، حتى محطة الوقود ، يُنزله ويتركه واقفاً أمام سيارته كي يصله دور ملء خزانه بالبنزين . ثم أن عمال المحطات جميعهم يعرفون قصة هذا الفتى ويتندرون بها ، ويعاملوه بألفة منقطعة النظير . ولا يقولوا له وهو يلمس كفه في جيبه ، باحثاً عن ثمن الوقود إلا :

– واصل على حسابي.

يبتسم ويرفع ساعده إلى رأسه ممتناً . هكذا هو حال الإنسان الآلي ، يقف حيث يطلب منه السائق أن يقف، وبعد انتهاء السيارة التي تقف أمامه، يشغل محركه ، ويقف أما منصة الماء ، يضع العامل فم الانبوب في

فم القنينة ، حتى تمتلئ بلحظات ، يدس كفه كما اعتاد إلى جيبه ، يؤكد السائق من داخل سيارته كما اعتاد الآخرون:

- واصل تزيينك على حسابي .

يُدير وجهه إلى القائل ، يرفع ساعده بالتحية والشكر ، ثم يُحدث صوتاً من فمه كصوت المحرك ، يضرب الأرض من خلفه ، وينطلق ، والكل يراقبه ، وهو يدير مقوده باتجاه قلب المدينة ، لكي يمارس يومه بالتجوال . لا يؤذي أحداً ، ولا يرمي جثته على أحد باستثناء استعانة بالوقود ، وهو عمل تطوعي من السواق ، فلم يطلب من أحد أن يُعطيه البنزين ، بل يكتفي بالوصول إلى الرصيف ، فإما يجلس ، أو يتهالك على أرضه . هذا هو الإنسان الآلي الذي أطلق عليه مجهول هذه التسمية ، فرافقته وواكبت شخصيته ،لأنها صفة يحق كان مُطلقها ذكياً . فلم يكن اختيارها جزافاً ، وإنما كانت نتيجة مراقبة دقيقة وحصيفة . فهو ابن المدينة البار ، انتمى إلى رفقة الهامش بجدارة . رفاق الهامش الذين يتناسلون في الحقب ، ويتوارون في أُخر. هكذا حال مدينة لها تلك العباقرة والاستثنائيين، ولا يسند لهم ولادتها ، طال الزمن أو قَصُر.

جواي (chwy)

(جواي) من الكي ، ووصف هذا الإنسان ارتبط بالصدفة . فقد كان انساناً عادياً ، كادحاً ، يجر عربته الدفع ، حيث تكون البضاعة ،لينقلها إلى المكان الذي يطلب منه صاحبها ايصالها . ومعظم عمله يتم بين مطحنة الحبوب والكراج الذي تستقر داخله السيارات التي تنقل أبناء الريف إلى مناطقهم . والصدفة تقول : أنه بينما كان يتعامل مع أحدهم لتقدير أجور عمله في نقل أكياس الطحين إلى الكراج ، قال له صاحب البضاعة معبراً عن غلاء السعر بعبارة :

– شدعود .. انت تجوي جوي..!

فما كان من أحد الصبية وهو ينصت إلى ما قاله الرجل بحق صاحب العربة ،وهو يجر عربته ، حتى صرخ به(جواي) . لم يسمعه أول الأمر ، وحين أعادها ثانية ، لم يعر له اهتماما. كان الصبي قد أدرك عدم استيعاب

الرجال لندائه ، أسرع حتى صار مقابل مقدمة العربة وهي تسير ، فقال له (جواي) سرعان ما انضّم إليهم عدد من الصبيان ، وهم يرددون كلمة (جواي) وراكبوه حتى دخل الكَراج لاهثاً متصبب العرق. ثم تركوه حين دخل ، وتبعثروا في الأزقة ، معتبراً ذلك مزحة من لدن هؤلاء الصبية . غير أنه لاحظ تكرار مثل هذا النداء . يُلاحقه في كل وقت يكون فيه منكباً على دفع عربته بين الأزقة والشوارع . ولم يفلح في منعهم عن مثل هذا التصرف الذي أفقده الرزق . ففي كثير من الأحيان ، وحين يكثر الصبية ، وهم يزاحموا عربته ، مما يضطر صاحب البضاعة إلى استئجار عربة أخرى ، يفرغ فيها بضاعته ، بينما يبقى(جواي) حائراً : ماذا يفعل : سوى أن يرفع حجارة الطريق ليلاحق الصبية الفارين نحو الأزقة التي تبتلع قاماتهم . لم يفلح في مسك أحدهم ، فهم كالزئبق ، يظهرون فجأة ، ويختفون ما أن يحاول تأديبهم .ملَّ من تواصل هذا السلوك الذي أوصله إلى حافة الجوع. فلم يسمع سوى نداءاتهم ، التي أرقته في منامه . مما اضطره لبيع عربته والسفر إلى البصرة . فعاش باطمئنان ودعة بعيداً عن ضجيجهم المهلك والمربك . وفي يوم كما يقول الرواة نحه بالصدفة المعينة نفسها صبياً كان يرافق أباه في السوق ، فصاح به (جواي) سرعان ما التقطها الصبية المتجولين داخل السوق . وكثر استعمالها كما هو في مدينته السابقة : فغدا ضجراً ،منفعلاً حد الجنون : يُطلق العبارات دون رادع ، ينعتهم بشتى النعوت ، لكنه لم يفلح في ردعهم ، حتى حانت لحظة الحسم وبالصدفة

نفسها ؛ أن حمل حجراً كبيراً شج به رأس أحد الصبية . تجمع الناس حوله، بينما الصبي صرخ .ترك العربة مذهولاً حتى اقترب منه الشرطي فأمسك به، وقاده حتى مركز الشرطة ، رافقه عدد من الناس ، لا لشيء سوى للشهادة ضده. استقر في التوقيف ينتظر الحسم ، فقد رُفعت أوراقه إلى القاضي . طال الانتظار ، وهو لا يعرف عن مصير عربته التي أوصلته إلى التوقيف أو السجن المرتقب . أكل منه الندم على فعله كثيراً من حماسه على البقاء في هذه الدنيا ؛ لام الله الذي لم يُعجل في موته ، لكنه في النهاية استغفر ربه ، وتمنى أن يصفح عنه أهل الصبي لفقر حاله ؛ ويطلق من بعد ذلك القاضي سراحه . مَثُل أمام القاضي ، الشهود والمجني عليه . سأله القاضي هكذا:

- هل أنت جواي؟

قال :

- نعم .. هذا ليس اسمي ؛ لكنهم يُطلقوه عليّ دون أن أعرف ؟!!

- هل أنت من ضرب الصبي هذا بالحجر فأدميت رأسه ؟

- نعم أنا .

- ولأي سبب ؟

- لشدة ضجري !!

- ضجرك .. كيف هذا ؟!

– قل الله مصلي على محمد يا قاضي؟

–ألله مصلي على محمد.

– أعدها ثانية ؟

– ألله مصلي على محمد .

– بالله عليك أعدها ثالثة ؟

أعادها القاضي. فما كان من (جواي) إلا أن طلب منه إعادتها رابعة، مما غيّر من وضع القاضي ، إذ لاحظ تغير سحنة وجهه ، وبدا عليه الانفعال ، حيث انبرى ضجراً:

– ما صارت .. الله مصلي على محمد ، ما كافي !!

قال له جواي بقوة موقف:

– هذه العبارة أثارت ضجرك ؟!!

لاحظ القاضي أنه أطلق عبارته هذه بلغة عربية فصيحة ، مستغرباً ، وقد أثّر هذا على حالته النفسية . أبعد علامات الضجر التي بدت على وجهه ، وانبرى بسؤال يتطلب الجواب السريع ، فقد كثُرت أسئلة القاضي وتضاعفت دهشته ، وتأكد أن وراء هذا الرجل ، رجل ثاني مختفٍ من جور الزمن عليه ، فقال :

- ما قصتك يا بني ؟

قالها بحنو أبوي خالص ، مما حرك المشهود في أماكنهم ، قال القاضي مرة أخرى و(جواي) تملأه الفرحة ، ثم أجاب:

- سيدي أنا رجل فقير ،أكسب عيشي خلال عملي في دفع العربة المتداعية ، لاحقني الصبية بهذه العبارة التي لا أعرف مصدرها ،علماً أني لم أكوي أحداً ،ولم أؤذي أياً من الصبية . فقد ملأت العبارة رأسي ، وحرمتني من كسب رزقي بالحلال . ويوم لم ينفع معهم بعت عربتي وجئت إلى مدينة البصرة ، عشت بأمان ، لكن الصدفة التي ألصقت هذا الاسم بشخصي ، أظهرت ذلك الصبي ليُعيد على وجودي هذا اللقب ، الذي تتلقفه الصبية للتندر ، حتى أصبح يلاحقني حد اللعنة . فماذا تتوقع مني وأنا أسمع الاسم يلاحقني آلاف المرات ؟؟ فما كان مني أن أتصرف دون وعي للدفاع عن وجودي ليس غير .

استغرب القاضي من فصاحة الرجل ، فسأله :

- من أي مدينة أنت؟

- من الناصرية سيدي.

فما كان من القاضي إلا أن دس كفه في جيب سترته، أخرج حزمة نقود ، طلب منه أخذها قائلاً :

– خذها هدية مني . بع عربتك وعد إلى مدينتك ، اشتر لك عربة جديد تُليق بمقامك ، فأنا قررت اطلاق سراحك دون أي شرط ، فقط التصالح مع أهل المجني عليه.

حيث نودي عليهم .وحين حضر الأب ،سارع جواي إلى أن الأب ماداً يده . و لم يكن للرجل إلى قال للقاضي:

– أنا متنازل سيدة القاضي عن القضية .

شكر القاضي الأب ، الحق (جواي) على الصبي فقبله على جبينه ، غادر الجميع قاعة المحكمة سوية دون خلاف و(جواي) فرح بما حدث له ، منتظراً حياة جديدة ، فقد خرج من قاعة المحكمة ، وبناية المحكمة دون الاسم ، لكن الصبي اقترب منه ، واضعاً فمه على اذنه ، ولا يدري أحد ما الذي قاله للرجل ، فقد ضحك (جواي) واحتضن الصبي يقبله في كل جزء من جسده ،متمنياً لو كان له ولد كهذا .

القسم الثاني

نُخب الوسط

إشـــارة:

هؤلاء قاطني الوسط كما يحلو للبعض منحهم هذا التقسيم ، لم يكونوا إلا جزء من المهمشين . لكنهم لم يكونوا جوالين في المدينة كما كان الآخرون ، بل عاشوا وسط عطب وقناني الأدوية الشعبية في ورشهم ودكاكينهم وسط السوق الرئيسي، أو الأسواق الشعبية. يلبون حاجات الناس بمهنهم وما يعرفوه من أسرار الأعشاب وكيفية استحضار الأدوية منها، فوظيفتهم اجتماعية ، فهم من وسط القاع ليس إلا . لا يدخرون جهداً في إسعاف من له حاجة ، فصارت شهرتهم بين أبناء المدينة باستحقاق إنساني بحت.

حسين جنّي ....
مهلاً .. فقد أيقظت ذاكرتي

أين تكمن المفارقة بيننا ؟ فنحن معاً من مدينة الماء والقصب ، وما ارتوينا إلاّ من جاري الفرات وما غنينا سوى من بحة صوت ناي القصب . فلا ضير أن تكون نظرتنا ذات وجهين مختلفين ؛ لكنهما محصلة تكون لبريق سطح ماء الفرات وغضب أبو جُداحة . ذلك الفم المرّ والمحتشد بالفائق من المسرعة حيث يأتي النداء من الرب ؛ ألا أجر نحوهم بكل ثقلك ولا تبالِ بما تتعثر به ، فكل الأشياء سواء أمام جريك ، فقد فاتنا ما كان يُطلقه طائر الطيطوي من أصوات حادّة محذرة ومرعبة ألا : شبلو .. شبلو .. فليس أمامكم سوى الفرار ، إذ تتضاعف سيقان الماء جارية وراكضة نحونا ، دون أن تُدركنا سفينة النجاة ، ولا سفينة هناك . لقد ضاع منّا الكثير وخبأنا ما لم تره عيون النهر الغاضب ، فكانت مرويتنا التي تحضر وقت لا تُفيد فيه سوى سلطة الكلام ؛ لذا أفترض المفارقة في ما دونت كان بخصوص ما ذكرته وأنت تُشرع شرفات ذاكرتك عن

الحمّامات العامة وعن (حسين جنّي) حصراً . والمفارقة في كـــوني مـــن شهود الذاكرة الجمعية التي أسست صورة ومحتوى المدينة على توالي مدونة مفرداتها ، لذا أرى أنك فتحت شهية التدوين أسوة بما فعلت، ثم التراجـــع حيث يسكن الزمن وينطوي على نفسه كي لا يفرّط بعذرية ما حـــدث ؛ فحين ذكرت (حسين جنّي) في مدونتي الأولى بداية ســـبعينيات القـــرن الماضي ، كنت قد فضحت المفارقة من بين مفارقات الزمن العديدة الـــذي ازداد تردياً . ولعل هذا العنوان الإنساني في مدينة الماء والقصـــب لحقـــه الحيف مثلما لحق الرموز الأخرى . فحين شب عودي ، وغدوت معلمـــاً يشار له بالبنان من قبل محبي المراكز الاجتماعية والوظيفيـــة ، حاولـــت أن أحتل الأرائك المتقدمة من واجهة مقهى التجـــار التي هي أشـــبه بقطـــار اصطفت قاطراته على بعضها ؛ فأصبح مفتوحاً بشهية واســـعة إلى كـــل الاتجاهات في السوق متناظراً في موقعه مع زاوية مغازة السيد علي ؛ الذي حين وضع يوماً بقرة من البلاستك في (جامخانته) وهي تدر الحليب مـــن أثدائها ، حتى لتبدو عيناها تتحركان باتجاهات مختلفة ، فحسبها البعض أنها تشير إليهم من عرشها الكرستالي الثر وتغمز دون استحياء بعينيها إليهم ، حتى غدت مجاجاً من كثرة ما روى الناس لبعضهم عنها ؛ حـــتى أصـــبح واجباً لمن يتوافدون على مخزن السيد علي مشاهدة بقرته الحلـــوب .أمـــا المقهى فيستقر على أرائكه المعمون بعد أن اكتسب اسمه من محترفي التجارة أيام زمان . كنت أجلس متباهياً بشخصيتي التي أشرتها وظيفتي ، إذ تحت

قامة (حسين جنّي) القصيرة من على مسافة ليست بالطويلة . تحته عري كامل لولا ستر نصفه الأسفل بقطعة القماش ذي الخطوط الحمراء الطويلة فأنا لم أره في طفولتي وصباي إلاّ بهذه الهيئة ، فصورته وهو عاري قد انطبعت عندي منذ طفولتي ولم تمح قط . أخذ يقترب مني ففرحت أيما فرح ، وقررت بسريرتي أن يكون ضيفي في المقهى . تحركت في مكاني لأفسح له مجالاً كي يجالسني ، وستكون فرصة لي لمحادثته ، مذكّراً إياه من أكون .. وابن من أنا .. وسوف تتفتح ذاكرته عن أمور أنا بحاجة إليها لترميم ما سقط من جدار ذاكرتي . ولعل صاعقة فاجأتني لحظتها ؛ حين اقترب مني وأنا أسمع أنفاسه كالصفير ، مادّاً كفه لطلب العون بدلاً من حمل كيسه الليفي الأسود ؛ لحظتها لم أر شيئاً واضحاً أمامي ، سوى أني ألعن مردداً .. أيتها المدينة أيصح أن يكون أبناؤك أذلاء هكذا ..؟! إلم تركي حسين جنّي في يد القدر يقلّب فيه ما يشاء ..! وأنتم يا أهل المدينة من منكم لم يقشر (أبو أموش) جسده ، وهو يزيح عنه العالق من الوسخ والدنس ..؟! من منكم من لم يمرر بكفه المختفية داخل الكيس الأسود على جسده مدلكاً إياه وجهاً وظهر ..؟! من منكم من لم يتلق رشقات مائه بحنو وافر من طاسته الصفراء ذات البريق الحاد ..؟! ومن منكم من لم يخرج من الحمّام متباهياً بنظافته بعد أن دخله مدنساً ، ألم يكن (حسين جنّي) من أزال كل ما علق بأجسادكم ؟! أيصح أن يكون أبناؤكم هكذا نهباً للأزمنة المرّة ..؟!

يا بن الزيدي .. الحديث ذو شجون ، وهذه أضغاث من أحلام اليقظة، نحن غير معنيين بها لكثرة ما لحقنا من حيف أيضاً ، ولكن هي الذاكرة وما حفظت . أما باقي الكلام فسيكون عن (حسين جنّي) كما ذكرت إليك ، أو كما أثرْتَ بتدوينك تراب ذاكرتي .فهو رجل المدينة الرقيق الذي يحمل قلباً مرهفاً . فحين سألت والدي جرّاء ما كنت علي حال من الارتباك في كل مرة أدخل فيها الحمّام مع أبي بعد أن تركت عادة مصاحبة والدتي إلى حمّام النساء .سألته لِمَ سُمي الرجل بهذا الاسم ؟ لم يجبني خطئتها ، لكني وبحكم المعرفة عرفت أن الحمّام مسكون بالجن والشياطين لأنه مكان للدنس . ورحت أبحث عن هذا كثيراً حتى أصبحت لدي من المعلومات ما يؤهلني لمعرفة جواب سؤالي . لكن المفارقة الطيبة أني لا أرى أية علاقة بين (حسين جنّي) والشياطين والجن . فربما كان ذلك بحكم الصدفة ، حيث أُطلق عليه هذه التسمية كما اعتقد من الناس جرّاء بقاء الرجل جُل وقته في الحمّام ، فاعتقدوا أنه يُعاشر الجن من الذكور والإناث ، تلك الكائنات الخلابة التي تفعل كل ما يخطر ببالها مع الإنسان ، فتأخذ بتلابيبه وتقوده كالأعمى لما ما تريد إلى ما يحب أو لا يُحب ، يرغب أو يرفض . فهي تنصب له المقالب والفخاخ وتحوّل حياته إلى مجموعة مفارقات ومطبات . فحسين جنّي رجل هادئ جداً ، يبدو بوجهه السمح أن لا علاقة له بالجن . فقامته قصيرة ومنحنية ، من شدة ما انكب على الأجساد منغمساً في التقشير الهادئ لإزالة كل الفتائل من وسخ

الأجساد، فهو نحّات الأجساد وصاقل سطحها ، حتى لتبدو بعد اكتمال التدليك كالمرمر الصقيل . كنت أنظر إليه وهو يداعب جسد والدي المتمدد على الدكة ، وأنا أجلس منتظراً دوري في الاغتسال . خطافها كنت أنكمش على نفسي بين آونة وأخرى ، حيث توخز ظهري إبرة البرد . وكنت أستغرب من أين يأتي هذا الوخز فأرتعش إثره ..؟! وحين راقبت عرفت أن التماثيل التي تكبر ويثقل عبارها في سقف القبة تسقط وتنفجر لتلامس جسدي ببرودة و مباغتة ، تجفل لها وتصارع رجفة سرعان ما يمتصها دفء الحمّام الوافر. كان الانتظار لذيذاً وممتعاً ، لكنه ليس بمتعة هو حمّام النساء وما كان يعج به من أصوات وضحكات وغنج والتواء للأجساد البيض كالرغف ، كانت الأجساد مكتنزة باللحم أو رشيقة تبدو ، بصدور عامرة بأثداء مشدودة وناقرة أو تبدو على صورة فاتضة مترهلة كأكياس النايلون المليئة بالماء ، تظهر ثقيلة جداً لترائي تعلو بطوناً منتفخة ومتهدلة من الأسفل . في الانتظار هذا أتخلص من دعك كفا والدي لجسدي الطري بـ (الليفة) الخشنة ، لا سيّما ما أسمعه من همس بين والدي والرجل ، مطلقاً نوادره ، مصعّداً أنغام صوته بالأبوذية التي يستجيب لها كل من هو منغمس في تكثيف رغوة الصابون على جسده ، والبعض يترك كل شيء من بين يديه ، منظفاً كفيه من عالق الرغوة ، تاركاً أصابعه تتشابك لتطلق أصوات كضرب على الصفيح ، والبعض يصفّق على أنغام صوته ، بينما كفيه تتواصلان في تدليك جسد

والدي المسترخي على دكة الأسمنت . وما صحبتي مع والدي وتكشف صورة حسين جنّي لتكتمل ، لولا مصاحبة ولده (أموس) كما كنا نسميه، وهو صبي لا يختلف عن هيئة أبيه ، فقد داهمه الكبر منحنياً حين يسير ، عليلاً يبدو للجميع . لكنه مرح وصاحب نكتة .

إن سحر الحمّام كان يسحبني بما كنت أضمره من شوق لليوم الذي أسمع فيه نداء أبي كي أصحبه للاغتسال . فكل ما كان يعنيني هو الرجل الذي ما فارق الحمّام يوماً ، ويشغلني كثيراً أمر نومه ، وأين يكون في البيت أم في الحمّام ؟ معتقداً أنه لا يستطيع الخروج منه ، فالعمل يدوم حتى الصباح ،حيث لم أر من يناوب عنه في التدليك ، بل أراه متنقلاً من هذا الجسد إلى الآخر ، ملبياً كل ما يحتاجه المستحمون ، فالألفة قائمة على منوال مفرط بالعفوية ، وما صوته الذي يجهر في إيقاعه أحياناً سوى الترياق الذي يحمي المستحمين من أحزانهم ومتاعبهم اليومية . فلذة الجميع بالاغتسال المصحوب بالغناء ، بعد عناء صعب في مهن اعتاد الجنوبيون أداءها وألفوا مشقتها المطفأة بصوت حسين جنّي ودفء الحاضنة التي بذل الوقّاد جهداً وملازمة لفم المشعل كي لا يغفل عن إطعام فمه بالنفط الأسود والماء الذي يُصدر منه جحاحاً وصريراً ضوئياً يتشظى منه بريق ونار تنبعث إلى الداخل المظلم من الموقد . كنت أحسب أننا ما جلسنا إلاّ فوق نار تتلظى ، فالأرض تنبعث منها حرارة متقدة تكوي مؤخراتنا ، والماء يُطلق صفيره إثر بخار يتصاعد ما أن تفتح صنبوره . كل الذي كان يشغلني

هو قدرة حسين جنّي على البقاء كل هذا الزمن الطويل داخل قبته . لـــذا فكان حريٌ بي أن أخرج عن طوري وأنا أراه في آخر أيامـــه هكـــذا دون رقيب من ذاكرة المدينة التي يتوجب عليها أن تحفظ ماء وجه أبنائها ، كما يتوجب أن تحفظ تاريخها وتاريخ رموزها .

أيتها المدينة المائية ، طابت لك مماراتك فأنها وافرة الشمس ما زالت ، وسليمةٌ لياليك لأنها ما عشقت غير القمر مؤنساً . فدروبك النبلية وممراتك المشمسة دلالاتنا للدخول إلى ذاكرتك التي تحفظ تاريخنا جميعاً ، تاريخ المتعبين في الأرض.

مسلم بلدية

لا أحد في مدينة – ن – يدّعي عدم معرفته هذا الرجل ، الذي ارتبطت قامته وحركته بحركة وقامة عربة القمامة . ولا يستطيع أحد أيضاً تجاهل شخصيته التي رغم أنها هامشية ومتروية ومكتفية بذاتها ، ولا تشكل من فمها بوقاً تعلن من خلاله عن نفسها . ولا من جسده قوة وبروز عضلات ، يرهب به أحداً ممن يحاولون إيذائه ، بأن يستغلون صمته فيحققون مرادهم مدعين إنما هم يمزحون معه ليس غير فهو لا يثير أحد ، بل ينساب بهدوء ويفاجئ الجميع بحضوره في هذه الزاوية من الشارع ، أو تلك . قرب هذه القمامة أو غيرها . لكنه دائماً يعلن عن وجوده ، وذلك بأن يسمع الجميع حركة العربة ، أو الصرير الذي تحدثه عجلاتها على الإسفلت . والعربة عبارة عن صندوق حديدي جاثم على مربع قوي ، رُكز على عجلات ثلاث متوسطة الحجم . حين يشاهد أحد العربة قادمة وهي تسير لوحدها يعرف أن هذا الرجل قد حضر إلى شارعهم أو سوقهم ، لأن قامته كانت لا تطال قامة العربة ، إضافة إلى أنه يقوس جسده ويرفع

من عجيزته وهو يحاول السيطرة على ثقلها وتوفير القوة الكافية لدفعها . لذا فإنه يختفي تماماً خلفها بحيث تبدو العربة وكأنها تسير لوحدها إلى الأمام دون أن ينظر هو إلى ما قد يداهمه في الشارع أثناء سيره ، وما على الآخرين إلاّ الابتعاد عن عربته وتركها تنساب هكذا . غير أن بعضهم ممن أثروا مشاكسته ، يقفون لصد العربة بأجسادهم . وإزاء هذا يقف متمتماً ، لا يفهم من كلامه شيئاً ، وإن صرخ بهم فإنه يبدو كما لو أنه يموء . لكنه والحمد لله لم يفاجأ يوماً بشيء ولم يرتكب مخالفة مرورية ولا أدى هذا إلى وقوع حادث مروع ، ذلك لأن الجميع دون الصبية يتحاشون صندوقه هذا ، ويبتعدون عنه ما استطاعوا .

هذا الرجل ـــــ كما ذكرنا ـــــ لا يثير أحداً ، لأن العربة تبدو كما لو أنها تسير لوحدها ، لأنه يختفي بحكم كونه ، رجل قصير القامة ، منتفخ دائماً من وسط جسمه . محشو في بنطلون واسع جداً . يبدو وكأنه دمية مليئة بالخرق ، متجهم الوجه . لم يضحك قط في حياته ، ذو سمة داكنة السواد ، يتلطخ كفاه حتى ساعديه ببقايا الأوساخ . حيث يحملها بمحرقته الصغيرة إلى جوف العربة . ويبدو أنه لا يستبدل ملابسه تلك إلاّ في المناسبات الدينية ، أي في عيدي الفطر والأضحى ، وأحياناً في اليوم العاشر من شهر محرم الحرام ، إذ يحضر مندوبة الإمام الحسين ، مستمعاً لصوت القارئ البحراني ذو الكوفية البيضاء والعقال الرفيع ، كان صوته عذباً بسري ، حزيناً ، يثير آلام الرجل الخفية التي تظهر كتدفق

ساقية ماء أثيرت فجأة بمجرفة . كان الرجل يند عنه نحيب كالموجوع ، وأكد كل من جلس بالقرب منه في المجالس إن هذا الرجل يبكي بحرقة لا مثيل لها ، وبقي سره هذا مدفوناً في ذاكرته، إذ يأخذه العمل اليومي ما أن تنتهي المناسبة ، فليس في قاموسه أسبوع ينتهي في يوم الخميس ويتعطل في يوم الجمعة ويستقبل السبت ، للشروع في العمل . وإنما أعتاد أن لا يستبدل زمنه ولا ملابسه قط . ثم أكد أكثر من رآه أن هذا الرجل لا يتكلم ، إذ يكتفي بنظرات تطلقها عينان حادتان .

وفي يوم كانت صورته أمامي ، وأنا أخرج من البيت قاصداً السوق في يوم العيد . وبعد أن إجتزت أزقتنا المتربة وشوارعنا الموحلة ، أدركت شارع الخيوبي الذي كنا نسميه — شارع الضوى — ، وحين عبرته وخطوت بضع خطوات استغربت من أمر تبديله لملابسه ، لولا تذكرت أننا في موسم العيد ، فهو متجه إلى السوق مثلي . عرفته من قصر قامته وطريقة سيره . أبطأت بخطواتي وأنا أسير خلفه ، لا لشيء إلاّ لرغبتي في رؤيته دون غربة . لكني فوجئت به يقف مما أحرجني ودفعني إلى تجاوزه في سيري . قلت في نفسي وأنا أتركه خلفي .. هل أدرك خطواتي خلفه فأستدرك بالوقوف ..؟ هل شعر بالمراقبة ..؟ ثم ألتفت إليه ، حيث وجدته يقف أمام مجرى ماء البيوت الوسخ ، الذي يحاذي حافة الرصيف . وقفت متأملاً حيث يحتبس الماء لتراكم بعض الأوساخ من القش والعيدان وقطع الخرق الممزقة والمتجمعة على نفسها . كل ذلك تكدس معترضاً

مجرى الماء مما أغاض حفيظة الرجل فأسرع مشمراً عن ساعده، ماداً كفه، منتزعاً هذا الكيس من الأوساخ . متنحياً جانباً ، فأنساب الماء جارياً بطلاقة راق له مزاجه . ثم أخرج منديلاً مسح به كفه وسار كعادته ميمماً وجهه صوب السوق ، حيث سرت أمامه . بدا بملابسه البسيطة وعباءتــه التي توسعت على قامته ، ووضعته في إطار متحرك . كان لوقع خطواتــه رنين خاص ، بينما ماء المجرى ينساب باتجاه مستقيم لا يعترضه شيء.

أبو أحمد في مقهاه

حلم يراود كل أديب ناشئ أن يجلس في مقهى (أبو أحمد) لكي يظهر للعيان أنه أديب يدخل مكتبة (جبر غفوري) ثم يخرج منها ليدخل (مكتبة طاهر غفوري) يشتري ما يتيّسر من الصحف والمجلات ، ليكون بين أقرانه، ينمو في حضنهم . مقهى لها تاريخه ،ارتادها الأدباء والمفكرين من أمثال (عزيز السيّد جاسم، عبد الرحمن مجيد الربيعي ، عزيز عبد الصاحب ، عدنان عبد الصاحب، مهدي السماوي ، أحمد الباقري، قيس لفته مراد ، قاسم درّاج ، عبد جبار العبودي ، عبدالخالق العطار) والقائمة تطول . لا نرى أن أديباً من مدينة الناصرية لم يدمن الجلوس في هذا المقهى ، الذي يستغرق جلوسهم داخله لزمن ليس بالقصير ، وبعضهم يخرج دون أن يُسدد حساب الشاي أو الحامض . وأحمد لا يطلب منه الحساب ، لأنه لم يكن صاحب مقهى فحسب ، بل أنه أب ، يشعر بمعاناة هذه الفئة من ابناء المدينة . فهو مزهو بنموهم وتكاثرهم هكذا . إنهم عنوان المدينة وبيرقها المرفوع كما كان يقول . يقف قرب وجاق النار ،متأملاً جلاس مقهاه

بفخر ، يراقبهم بابتسامة لا تظهر سوى علاماتها مرتسمة على محياه وتقاسيم وجهه . ويبارع في تقديم الشاي حال استقرار أحدهم على تخت ما من المقهى . يمازح الجميع ، ويتودد له الجميع . فهو من يعد الشاي بشكل تلتذ له النفس . وتكرار طلب الشاي للمرة الثانية ، يُزيده فخراً . وبمرور الزمن عرف أسماء ليس أدباء المدينة ، وإنما بعض أدباء بغداد . وتدريجياً عرف خلال حديث الأدباء وما يحملوه من كتب بأغلفة جميلة ، رسخت في ذاكرته كتاب عالميين وعرب. عرف (نجيب محفوظ ، عباس محمود العقاد ، طه حسين، أرنست همنغواي ، دستويفسكي ، جبران خليل جبران) وحين يسمع الأدباء يتحدثون عن في يُعرض الآن يُسارع للسؤال عن السينما التي تعرضه ، فيسارع للحضور والتمتع بمشاهدته ، بل يُشارك الأدباء أحاديثهم عنه . عندها تكون فرصة للمزاح والتمتع بالكلام الذي يمتع الجميع ، ومنهم الأدباء الذين يدركون أنهم كسبوه إلى صفهم كما الحزبيين . كان أبا أحمد قد شهد الأزمنة التي عاشها وعرف سياق سياستها ونمط أحداثها . لذا يعتبر نفسه قد تربى على الطريق الصحيح خلال وجوده في المقهى التي ترتفع عن الشارع كثيراً . كان داخل المقهى أنيقاً ونظيفاً مثل هيأته بدشداشته وشعر رأسه المصفوف بعناية ، ونظرته التي تجذب المارين بالمقهى ، فهي بالرغم من صغرها إلا أنها تستوعب الكثيرين دون ضجيج . فكل واحد منشغل بالقراءة وتقليب الدورية التي اشتراها أو استعارها من أي المكتبتين المقابلتين للمقهى .

هكذا نشأ أدباء المدينة ، ومثلهم نشأ أبا أحمد ، لكن الفرق ، إن بعضهم يغادر إلى بغداد أو خارج العراق ؛ بينما يبقى صاحبنا ملازماً مقهاه كفلاح يداري حقله . ومقهاه تتجدد الحياة فيها طالما يتجدد مشهد المدينة الثقافي . تذهب أجيال وتأتي غيرها والمقهى وصاحبها كسفينة راسية على رصيف ميناء ثابت ومزدهر . يأتي(عزيزالسيّد جاسم) إلى المدينة بعد انقطاع ، وانشغال في بغداد بأموره الفكرية وهموم الصحافة ، فلا يدخلها إلا برفقة (رزاق النجار) الذي توارى على أرض النضال مع فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية كما وردت الأخبار . يكون أبا أحمد مبتهجاً وهو يصافح (أبو حوله) العائد من بغداد ، وكأنه يقول لرزاق النجار .. لا تزرنا إلا حين يحضر خلك عزيز ، فأهلاً وسهلاً بكما .. ثم يحضر الشاي ، بينها يقول السيد جاسم :درت مقاهي بغداد جميعها ، لم أشرب شاياً بلذة طعم شايك يا أبو أحمد . لحظتها يبتهج وتسر نفسه قائلا : بالهنا والشفاء يا أبو حوله ...ومثل عزيز يعمل (عبد الصاحب) وغيره من الأدباء الذين يتركون المدينة لأمور تخص الثقافة والصحافة . فهم أوفياء لمقهاهم ، لا يرتادون سواه ، ولا تخطر ببالهم إلا صورته وهم يهمون زيارة المدينة . من هذا وجدنا في المقهى ملاذنا بعد أن رفعنا الكلفة ممن سبقونا عمراً وتجربة . وأبا أحمد ينظر إلينا باحترام ، فهو يعرف أفراد عوائلنا ، آباءنا وكل ما يحيط بنا . فقد عرفته إنساناً رفيع الخلق ، وذو أبوة فائضة . إذ أتذكر يوماً ونحن عائدين من دار السينما في المساء ، حيث وجدنا أبا أحمد جالس على

دكة مدرج المقهى ، مسدلاً أنواك الصقيح ، حيث ترك أحدها إلى النصف . وضع كفه على ذقنه متأملاً يبحث في الأرجاء . اقتربنا منه وسألناه عما يعانيه . فما كان منه إلا انبرى قائلاً :

– الفحل لم يأت لحد الآن ؟!!

عرفنا ماذا يقصد ، ففي كل موسم ربيع يأتي طائرا السنونو (العلوية) يختارا من غطاء مروحة السقف العلوي عشاً لهما . يبيضان ويفقس البيض، ثم يبدئان بإطعام صغارهما ، وعند كبرهما يبدئان بتدريبها على الطيران في فضاء المقهى وهم والأدباء مسرورين لذلك المشهد الذي يتكرر كل عام . وأبا أحمد يعتقد أن هذان الطائران يعودان إلى مأواهما من مسافة بعيدة ، فهو ينتظرهما ما أن يقترب فصل الربيع . هذه الحكاية حضرت كل منا أثناء مراقبة حاله وهو يفتقد الطائر الذكر . حينها تركناه دون أن نعي حديثه في ذلك . وفي اليوم الثاني ، سألناه ، أجاب :

– انتظرته حتى جاء مرفرفاً بجناحيه ، دخل المقهى ثم أسدلت الكبنك، وأبقيت الضوء له كي يستدل على مكان أنثاه في العش .

كان يقولها بسرور قل نظيره .إنه قطعة من حنان وأبوة واسعة ، سعة مقهاه . فرغم ضيق مساحتها ، إلا أنها تتسع لجمهرة ممن ينمون مع الكتب والفكر والسياسة والفن في المدينة.

الحاج ناصر
وأدوية الأعشاب

مَنْ مِنَ الصبية القاطنين في مدينة الناصرية ، لم ترسله جدّته أو أمه إلى دكان الحاج ناصر ،لجلب ما تُشير إلى اسمه (ورد لسان الثور ، كمون ، حبة سودة ، ينسون،هيل مطحون أو عدن، حب الرشاد، دود الكَحه والصخونة) وسواها من الأدوية الشعبية ، فيذهب الفتى إلى الدكان،بعد أن يلج السوق من فم شارع عكَد الهوى (الخبولي) لاحقاً ، الفرع المقابل للسوق، وحين يكون بمواجهة الدكان يقف منتظراً. فقد يجد كدس من النساء يشكلنْ جداراً وهنْ يحطن بواجهة الدكان بطلبات لا تنتهي . ينتظر الفتى واقفاً . وحين يملّ الوقوف يجلس على رصيف السوق طويلاً . ولحظة تبدد الصبر والانتظار وموعده للعب مع أقرانه يستجمع قواه؛ وينداس بين صفوف النساء،فاضّاً عباءاتهنّ، حتى يكون أمام الحاج ناصر بقامته القصير. وما أن يلمحه، حتى يعرفه،فيسأله عن حبوبته (أم حنف) وكيف هي صحتها . ثم يقول : إني أعرف دواءها ، خذه إليها يا بنيْ على عجالة .

فتصمت النساء إزاء قول الحاج ناصر وما من معترض على قوله . يلتزمنَ الصمت،فللحاج هيبة ما بعدها هيبة . يلتقط الفتى كيس الدواء،ثم يُسلمه النقود. الحاج ناصر لا يعد النقود من إناس يعرفهم ، وعاش معهم تاريخاً ، فقط يقول (رحم الله السيد علي العساف.. فقد كان مختارنا الطيب)ثم ينشغل مع النسوة ملبياً طلباتهنُ ، بينما يسرع الفتى ممسكاً بقوة بالكيس ، كي لا يتبدد منه الدواء .

هذا ما يحصل لكل فتى وفتاة ضمن جريان زمن المدينة الساكنة مع وجودها الهادئ ، بينما تجري أعمال أصحاب المصالح بكل هدوء،تلبية لحاجات الناس من كل البضائع، بينما يستمر الحاج ناصر ذي القامة القصيرة، و(العرقجين) على رأسه،بعد أن ينزع اليشماغ والعقال،لشعوره بالحر، ومنع تكدس النساء أمام واجهته. ربما يتصبب عرقاً وتعرق ملابسه،غير أنه لا يتذمر أو يضجر،فهو محب لمهنته،بل يشعر بالراحة وهو يلبي حاجته.فمهنته هذه اكتسبها من أبيه، فأصبحت مهنة أعانته على معرفة كل أعشاب البرية، أعشاب السوق وفائدتها لاسعاف المرضى من أهل المدينة،الذين يعرفهم واحداً .. واحداً ، أما واجهة دكانه فقد يقف عندها الأعراب الآتين من الريف المجاور للمدينة ، يأتون بطلباتهم، قاصدين دكان الحاج ناصر ، فلكل منهم معتقده في إمكانية الحاج في تلبية حاجاتهم،كما للحاج(كاظم) في صفاة المدينة، القابعة في نهاية المدينة. فالأعراب لا يعرفون عيادات الأطباء القليلة، ولا المستشفى الكبير، ولا المستوصفات .فأمراضهم

لا يقضي عليها سوى دواء الحاج ناصر. فكل امرأة شابة أو عجوزاً تزداد راحة نفسها وهي تحدق في صفوف القناني : ذات السوائل المختلفة.والصفائح الحاوية للبذور والأعشاب المسحوقة (المطحونة) وتلك العلب الصغيرة التي ألصق عليها الورق، والمكتوب عليها عبارات لا يفقهنّ معناها،لأنه نص لا يقرن إلا بالقرآن ، لذا لا يتمكنّ من فك لغز الكتابة . وبعضهن يجلبن بناتهنّ الصغيرات، أو أحد أبنائهنّ الذي دخلوا المدارس لشراء ما يحتاجون إلى المدرسة من ملابس ولوازم. عندها يلجأنّ للاستعانة بهم لقراءة العُلب أو الصفائح التي يتناولها الحاج ؛ وقراءة ما مكتوب على ظهرها. ولما كان الأولاد والبنات يتلكأن في القراءة بعد التهجي ؛ لا تفقه الأم ما قرأنّ فما عليها إلا أن تصفعه على أم رأسه قائلة(جا شعلموك بالمدرسة!) تقولها بمرارة ؛ والفتى أو الفتاة يلتزمون الصمت ؛ لكن ضربة الأم على رأس ابنتها يكون بالملامسة فقط .والحاج لا يأبه بما يحدث أمامه،فهو مشغول بتلبية طلباتهنّ . فقسم منهنّ تعيّن ما تريد، مما يسهّل عليه التلبية . ومنهنّ من تصف له الألم الذي يتكرر عليها أو على أحد أبنائها أو زوجها ، فما يكون من الحاج،إلا أن يسأل جملة أسئلة،ليتأكد من تشخيص المرض ، ثم ينشغل بإعداد الدواء الذي قد يستغرق منه وقتاً،مستخدماً في كثيرمن الأحيان الميزان الصغير لوضع النِسَبْ من الأدوية .ثم يضع كل دواء يزنه في طاسة كبيرة .هكذا يجمع المقادير ،ثم يبدأ بفركها بأصابع يده حتى تصبح ناعمة . وإذا كان فيها نبات صلب،فإنه

يستعمل (الهاون) لكسره وطحنه. كما أن لديه آلة فرم يدوية يستخدمها لهذا الغرض . والنسوة ينظرنْ إليه ، خاصة كفيه ذات الأصابع الصغيرة، واعيات مهارة الحاج ومعرفته بكل الأمراض وبالمقابل بالدواء المناسب لها . يفرغ الحاج ، ثم يسكب المحتوى من الطاسة إلى (المكَطع) وهو إناء مخروطي مفتوح من أحد جوانبه ، يُساعده على سكب المحتوى، دون أن يبدد منه ذرة واحدة . يسلمه لصاحبة الحاجة قائلاً: بالشفاء العاجل إن شاء الله . فتتغلغل في قلب المرأة الطمأنينة بشفائها أو مرض أحد أفراد أسرتها . ولحظة تسليم المبلغ لسعر الدواء إليه،يمتنع كما تتطلبه أخلاق المهنة، فتردد المرأة (حجي فضلك مغركَنه) يبتسم لها قائلاً(الفضل من الله جل جلاله).

إنها سيرة لرجل اسمه(الحاج ناصر) رجل ارتبط تاريخه بدكانه الصغير ذي العمق من الداخل. دكانه ذي البضاعة الجافة ، التي تنبعث منها روائح تُريد النفس هدوء . تُبهرك طريقته وذوقه في رصف العُلب والصفائح ، وأكياس الخيش الكبيرة والتي أبرم فتحاتها بطريقة مثيرة ومتماسكة، بأن يبرم حواشيها مشكلاً منها حاشية متينة تحفظ تبدد المحتوى من الأعشاب المطحون ، التي يتم طحنها في مكائن خاصة في المدينة، أو هو يجلبها من بغداد جاهزة ، يعرف أسرار علاجها . فله ذاكرة صيدلانية فائقة لمعرفة. أسرار المواد الأولية لأدويته،والتي هي عبارة عن أعشاب متنوعة . فقد احترف الطب الشعبي ، فتربت ذاكرته على طريقة استعمالها وخلطها مع

بعض . لم يقف عمله حتى حين انتشرت عيادات الأطباء ، فقد بقي (الحاج ناصر) علامة طبية للعجائز والشيوخ الذين يبتعدون عن عيادات الأطباء، ويلجئون إلى دكان الحاج ، الذي يتوسط السوق ، وأنت تسير في باحته المؤدية إلى قيصرية البزازين ، قبل أن تدرك دكان(زمبور) بقليل ، ستقف أمام واجهته ، لحظتها يقف الحاج عن مجلسه لاستقبالك ،فقد قدت المراجعات لدكانه عن قبل. يقف كي يلبي حاجتك من الدواء . وبالتأكيد يعرفك ، فيسأل عن أفراد أسرتك واحداً .. واحداً ، فهو من مدينة كانت متماسكة بعلاقاتها الاجتماعية ، ترتكز على الألفة والمحبة . وحين يعرفك أكثر ، وهو ينشغل بإعداد الدواء ، يُطلق حسرة ما بعدها حسرة ، وأنت لا تعرف لحسرته سبباً . غير أنه يعرف ويضمر ما يعتمل في داخله من جوْر الزمان وقسوته .

فالح محطة

نلوذ عنه حين نتوجه إلى باب الخروج من المحطة، بعد توقف القطار على رصيفها ، ، حيث تُشرَع الأبواب ، ويزدحم المسافرون على أبواب القطارات مسرعين من أجل الحصول على عربة(ربل) توصلهم إلى المدينة . في صباحات أكون برفقة جدتي أو أمي أو أبي ونحن عائدين من مدينة البصرة ، وانقضاء أيام العطلة الربيعية أو الصيفية ، أنسى في تلك اللحظات كل متعتي في المدينة ، وهرعي إلى البساتين والأنهار ، وبالأخص نهر العشار وما يحتويه من سفن راسية أو واقفة في عرض مياهه . كنا نلوذ لحظة وصولنا إلى باب المحطة ، ولم يدر بخلدي سوى باهج البصرة من دور سينما كالوطني والكرنك ، لا حتى مباهج العيد والأراجيح ، والبيت الذي يحتوي لافتة كُتب عليها(رأس مقطوع يتكلم) اسارع بالدخول والحديث مع الرأس المقطوع ، . وفعلاً كنا ندخل ونحاور الرأس ، فيتكلم بلسان فصيح ، يُخرج لسانه الأحمر الفاقع اللون ، ويغمز بعينيه لنا . وكانت البنات تواري وجوههنَّ خجلاً منه . كان فعلاً محيراً ، مرهون بسؤال :

كيف للرأس أن يتكلم وهو مقطوع . وحين بلغ بي العمر قرأت في ملحق صحيفة الجمهورية قصة كتبها(محمد خضير) تحت عنوان مثير(رأس مقطوع يتكلم) وكان عرضه لا يختلف عن رؤيتنا آنذاك لرأس وهو يتكلم . ربما كان(خضير) قد دخل معنا ، ولأننا لا نعرف بعضنا فلن نتذكره بالتأكيد . غير أنه في القصة وهو يخرج من الصالة المعتقة بالخشب المتين من الخارج والمصبوغ بألوان زاهية ، ورسوم مبهرة ، قال في ذاته (لقد كان الرأس يتألم أيضاً) ولم تبرحني هذه العبارة منذ قرأتها .

خطة الوصول إلى باب الخطة الرئيسي ، نتطلع حقبة إلى صاحب الجسم الضخم ، والطول الفارع ، وشعر الرأس الذي يشبه الحلزون ، والذي تظهر خصلات من بعض الجوانب التي لم تغطها القبعة . كان أنفه مفلطحاً وملأ نصف وجهه ، وعيناه كبيرتان تقدحان شرراً وتنظران بتفحص إلى من يقترب منه، وهو يُمسك بيده مقرضة ، يتناول البطاقة من القريب منه ثم يقرضها ويفسح المجال له للخروج . كنت أفكر بلحظة الوصول بالقرب منه ، حيث لا أمتلك بطاقة ، فقد لذت بالقطار مع من كان يصحبني معه في السفر ، لذا فردة فعلي آنذاك بأن أن ألوذ بعباءة جدتي . لكنه كان فطناً ، وأنا أرتعش في كل مرة أقترب منه . قامته تُخيفني ، فقد شابهت قامة العملاق الذي شاهدته في السينما ، وكفاه صلبتان وقويتان ، تستطيعان أن تفرماني بسهولة ككفيّ العملاق الذي يصدر من عينيه الشرر فيحرق الأخضر واليابس في الغابة . كيف لي أن

أتخلص منه؟! كان السؤال يراودني في كل سفرة ، منغصاً عليّ متعتي ، وما كنت أحصل عليه من اعلانات السينما وأنا ألاحق(تومان) في أزقة العشار، لكي أريها إلى صحبي(مهودي ؛ ومجيد، وفالح حسين) في مدينة الناصرية ؛ كذلك قصاصات الأفلام التي يرمونها إلى كوم النفايات خارج بناية السينما. كان رفاقي يعتبرونه كنزاً ثميناً ، نعمل على تكبيرها بواسطة مصباح غير صالح للإنارة ، نفرغه من محتوياته بحذر ، خوفاً من انكساره ، ثم نملأه بالماء الصافي فيتحول إلى مكبرة للصور . نسلط على قطعة الفيلم ضوء المصباح اليدوي ، فيخرج شعاع يمتد طويلاً حتى يصل إلى قطعة القماش البيضاء الصقيلة ، فيتجسد محتوى القطعة بشكل كبير ، وننظر إلى المحتوى ، فنرى مثلاً(طرزان ، الغابة ، عشيقته ، الشيته ؛ الحيوانات المفترسة ؛ عدا قطعان الفيلة التي يستخدمها طرزان كأداة نقل في الغابة وعبور الأنهار . كان هذا متعة لنا ولصحبنا من الصبية . كل هذا يذوب لحظة أصل موقع(فالح محطة) فأدرك تماماً أني أصبحت صيداً سيفتك بي ، يرفع عباءة جدتي ؛ فتظهر قامتي . يقول : مسكتك بالجرم ؟! أين بطاقتك؟ فما كان يبدو مني سوى رعشة تُمسك بي . يقول فوراً : ليس لديك بطاقة، جاي فحق؟! ويعني متحايل. ولم أغادر رعشتي . فيسعفني بالقول: إذا لم تكن لديك بطاقة نقرضها ، أعطني أُذنك أقرضها . سرعان ما أُمسك بهما وأغطيهما بكفيّ الصغيرين خوفاً من أن أذهب إلى صحبي دون أُذنين!! تقول جدتي له : كفاك مزاحاً يا فالح.. الولد سيموت من الخوف؟! خطتها

يرفعني فالح من الأرض فتزداد رعشتي ، وأكاد أذوب من الخوف ، في حين تبقى كفايَ تعضّان صواليَ أُذنيَّ . يقربني من جسده ، ويُلصق جسده بجسدي ، ثم يقبلني على وجنتي ، فأشم من جسده رائحة الأبوة الفائقة ، فما لجسدي إلا أن يستسلم إلى الارتخاء ، ثم يضع بين يدي مجموعة من البطاقات قائلاً: خذها لك كل هذه البطاقات ، سافر بها متى شئت وإلى أي مكان تُحب.

فالح محطة ... أين أنت الآن؟ وفي أي مقبرة دُفنت ؟ كم أنا متشوق لمزاحك الأبوي. قد تبدو جادًا بما يوحي بالرعب . الرعب لا يصدر من قلب كقلبك يا فالح ، بل من الذين ملأت قلوبهم القسوة. لا أتمنى الآن سوى أن أعود صبياً غراً كالفرس الرهوان لأُغادر هذا الكون إلى كون آخر كما لو أني فلاش كوردن الذي كنت أراه من شاشة السينما ، وهو يمتلك جناحين أسودين ، وغطاء رأس ذي آذان سهمية ، كنت أتوق منك بعباءة جلدي ،ولا أعرف أي قلب تحمل على جبهتك اليسرى ، بل أراك قلباً ينبض بالحب والحنان ما أمتع اللحظات تلك يا عم فالح ، فقتلك يفتك به الزمن المر الآن ؟!!!

السيّد كاظم
طبيب العائلة

في ضجيج السوق الشعبي ، يُلزمك أن تمر لأخذ حاجتك منه . وهو سوق شامل لكل البضائع .ما تحتاجه للمنزل تجده متوفراً فيه . حتى أنك لا تخرج منه إلا وبضاعتك بين يديك. سوق محاط بمجموعة من الدكاكين المتفتحة أبوابها إلى الداخل ، والمشكل سوراً منيعاً ، له أربع بوابات. تختار أي منها للخروج ، لاسيّما لغرض شراء اللحم بأنواعه (غنم ، بقر ، ماعز) وسط هذا السوق وفي زاوية قصية كما تبدو منه. غير أنها حيوية كما تُشير إلى ذلك كدس النساء ، أو الرجال الذين يقفون إلى جانب بعيد عن جمع النساء ، فقد كانت للمرأة حشمة وتقدير ، وللعلاقات الاجتماعية دور في صياغة العلاقات بين الناس . والسيّد كاظم مع نجله جواد يثابران على تلبية طلبات الزبائن ، التي لا تتوقف فقط على طلب أحدهم لمادة عشبية ما (ورد لسان الثور ، كزبرة، كمون، حبة سوداء ، كفشة الذرة) وغيرها، بل تتعداها لشرح حالة المريض الراقد في البيت ،كأن يكون

عجوزاً أو طفلاً ، أو امرأة طاعنة في السن يتعذر عليها الحضور إلى الدكان، والسيّد كاظم يصغي بإمعان إليها ، ويسألها بضع أسئلة مثل(كان كانت حرارته مرتفعة ؟ يسعل باستمرار؟ وسعاله جافاً أم مصحوب بلعاب؟ وبعد أن يستكمل أسئلته يبدأ بإحضار المواد الأولية ويضعها في إناء من الصفيح ، يبدو ذي حوض واسع . متنقلاً من هنا إلى هناك ، مستلا علبة أو قنينة من الرفوف ، وحين يستكمل حاجته منها يُعيدها إلى مكانها . ذلك يُساعده على تنظيم العمل ، خاصة ولده (السيّد جواد) الذي اعتاد كأبيه على وضع كل شيء في مكانه المخصص ،تلافياً لإرباك العمل. يبدو الجميع الواقفين حول واجهة المحل ، منتبهين إلى ما يقوم به السيّد دون اعتراض منهم ، لأنهم يعرفون أن السيّد لا يفضّل أحد على آخر ، بل أن كل واحد ينتظر ، فذاكرته لا تُخطأ زمن وقوف الجميع ، دون أن تكون ثمة صفوف منظمة أو أسماء مسجلة ، وحين يأخذ صاحب الحاجة الدواء منه، يقول (بالشفاء العاجل إنشاء الله) حيث تردد المرأة (الله يبارك فيك يا سيّد) يحمل الحوض الصغير بين يديه أو يضعه على فسحة من مكان اختاره بالقرب من الميزان ، وبعد أن ينتهي ، يبدأ برفك المحتويات بين أصابعه ، وإذا اقتضى الأمر فيستخدم الآلة التي يُطلق عليها الجميع (الطاحونة) يضعها في كيس من الورق ثم يلف حافته كي يُغلقه على المحتويات . يستلم المبلغ دون أن يعدّه ويضعه في الجر الموجود أسفل الميزان . بمثله

تدرب ولده ، وراح يُلبي حاجات الناس بدراية وحسن تقدير. حتى أنه ورث العمل في الدكان بعد وفاة والده ، واستمر على إدارته.

السيّد كاظم معروف في المدينة ، وشهرته لا تقتصر على وجود دكانه، وشفاء أكثر مرضاه ، وإنما تميّز في إقامة الشعائر الحسينية في أيام عاشوراء. فطيلة الأيام تجد شباب وشيوخ وصبية المدينة يتجمعون قرب بيته الذي زينته الأعلام بألوانها ، واللافتات بحجومها . خاصة تلك التي اختير لها القماش الأبيض قاعدة ، يتوسط سطحها سيفان كبيران يقطر منهما الدم ، منسكباً على الرقعة ، حيث تبدو قطعة القماش محمّرة ، والدم غطّى عليها، بينما قطعة قماش أخرى معلقة على أعلى ستارة البيت كُتب عليها(موكب عزاء أباعبد الله) . وافترشت الجدار على جانبيه اللافتات ، تحتوي على أسماء آل البيت الرسول ، وعبارات استل الخطاط وبتوجيه من السيّد كاظم. يكون البيت مكرس للتعزية ، وربما يرحل السيّد عائلته وينقلها إلى مكان آخر من بيت أقاربه . والجميع ينتظر يوم العاشر من محرم الحرام ، حيث تخرج جموع الناس فجراً لمشاهدة مراسيم التطبير(ضرب الرؤوس بالسيوف الحادة بعد حلاقتها) ، باحثين عن موكب عزاء السيّد كاظم لتميّزه بالانضباط ، ويرون بأم عيونهم السيّد وهو يتجول بينهم ، وبين يديه كمية من القطن ، يمسح عن وجوه المشاركين في التطبير الدم الفائر ، يُزيله عن عيونهم ووجناتهم . يدور بقامته القصيرة وجسده النحيل . وقد تجده باكياً لاطماً على رأسه حين يسمع وقع الأبواق أو

الضرب على الرف.إذ تتشابه حالة من التداخل الصوفي، فيكتفي بالضرب على رأسه قائلاً : أويلاه يا حسين، أويلاه ياعباس) . قد يطول النهار أو يقصر، فاليوم دامي ، والشوارع مزدحمة ، والكل متعب . وما أن يزحف الليل على المدينة ، حتى تُطفأ أنوارها ، فتخرج المواكب.. حفاة لاطمين ، والمطبرين يلفون رؤوسهم بالقماش، يجوبون شوارع المدينة مرددين(أويلاه يا حسين) بعدها يعود المعزين إلى بيوتهم كي تهدأ أجسادهم خلال الزمن المتبقي من الليل، إذ ينتظرهم نهاراً يهرعون خلاله إلى أعمالهم ، والسيّد كاظم يقصد الدكان ، تنتظره مهمة معالجة المرضى فهي خير الثواب؛بينما يترك الشباب يُعيدون الأشياء إلى نصابها بما فيها العائلة ، يقودهم في هذا ولده السيّد جواد، بينما السيّد الكبير يُدير العمل في الدكان ، وصورته معلقة على الجدار ، بجبته . فالرأس يعلوه طربوش يتكون من لونين الأخضر في الأعلى، والأسوَد يحزم الطربوش من الأسفل . يستقر على رأسه بكل وقار ، بزيه المتكوّن من العباءة والصاية . فكل من يؤم دكانه ، سيجد الصورة معلقة ما زالت على الجدار ، لكن الذي تغيّر، هو صورة ولده (السيّد جواد) معلقة إلى جانب صورته ، يقطع إحدى زواياها شريط أسوَد ، يعرف الجميع بكيفية استشهاده .

كَوزان
وصورة إسماعيل يس

ربّما وحدي لا أدري لِمَ استبدل اسمه (إسماعيل) بكَوزان. لكني في ذات الوقت توصلت إلى قناعة ، كونه اكتسب هذا اللقب من اقترانه بشخصية عُرضت على شاشة السينما ، التي ارتبط معها على أنها مهنته الأساسية . ولم أجده يوماً مارس عملاً ما باستثناء وقوفه قرب واجهة مكتبة طاهر غفوري ، لتصفيف الصحف. وصاحب المكتبة من أقاربه . فهما من عائلة كبيرة تحولت بفعل التزاوج إلى مجموعة عوائل تحظى بتقدير جميع أهل المدينة ، سواء كان هذا بسبب انتماء بعضهم إلى الحزب الوطني الديمقراطي وهو المرحوم(جبر غفوري) أو مزاولتها مهنة التعليم بجدارة وحسن أداء كما هو(إبراهيم غفوري) حيث كان مربياً جديراً ، سواء في أدائه المهني كمعلم ، أو أدائه الإداري ،فقد بقي منذ خمسينيات القرن المنصرم في مدرسة المشرفية (معلماً ومديراً) حتى إحالته على التقاعد.

كَوزان ارتبطت شخصيته مع السينما كحرفة،وحصراً سينما(الأندلس) من بين ثلاثة دور السينما هي(سينما البطحاء ، سينما الأندلس ، سينما الفرات) لكن البقاء الدائم كان للبطحاء والأندلس ببنايتيهما الشتوية والصيفية. وكَوزان واحد من بين ثلاثة أشخاص يعملون في مهنة السينما (كَوزان، جعفر، شنيشل) والأخير يوزي (تومان) في البصرة . فكلاهما له صفات خاصة في شخصيته ، حيث يؤدون حركات تمثيلية يجذبون خلالها الرواد لصالة العرض. أي أنهم يُحببون الناس للدخول إلى السينما لمشاهدة الفلم الجديد ، سواء كان عربياً أو أجنبياً . فالأمر سواء .فإن كان عربياً ، فهم يعدقون الصفات على الفلم بشكل خاص ، والممثلين الذين يعرفهم أهل المدينة ، ومن ثم ولع للدخول إلى صالاتها والتفرج على الاعلانات المنتشرة على جدرانها الداخلية وكالآتي : (عرض هذه الليلة/ فلم الأسبوع القادم / انتظروا عرض هذا الفلم ، فلا تفوتكم مشاهدته) ويكون ذلك خلال عرض صوَر من مقاطع الفلم تتميز بحسن الاختيار لجذب الزبائن .

تكون وظيفة(كَوزان) مرافقة قطعة الخشب(العارضة المحمولة) والتي تعلوها لافتة صغيرة تحمل اسم سينما الأندلس،ثم تتوزع الصور على رقعة الخشب بدبابيس صغيرة يحملها اثنان وهم يتجولون في أسواق المدينة ، ابتداء من الدربونة المجاورة للسينما، حيث يفتتح السوق . يسيرون في وسط السوق ، وكَوزان يتقدمهم مردداً(لا تفوتكم مشاهدة الفلم العربي ، تمثيل

رشدي أباظة وشادية الهلوبة)، ثم يؤدي حركات مناسبة لعكس فعل الممثلة ، أو يقوم بتقليد حركات إسماعيل يس، حين يردد دعايته عن فلم يمثل فيه (يس) هذا . فهو يتقن حركاته ، ويؤديها بشكل ملفت للنظر. ينحني باتجاه قيصرية البزازين ، والصبية يتبعونه ، ثم يواصل سيره حتى يبلغ نهاية السوق ، مكرراً حركاته التي لا يملها أهل المدينة ، فهم فعلاً يقتدون ويثقون بدعايته ، ويعتبرونها موثوقة ، فقد جربوها أثناء دخولهم العروض ، لاسيّما حين يدعو لمشاهدة فلم طرزان ، فأنه يقوم بحركات الشيتا(القرد) المرافقة لطرزان في الغابة مردداً (سارعوا لمشاهدة طرزان وشيتته ، فلم المغامرات في الغابات والأنهار ... شاهدوا الفيلة وهي تجوب الغابة وتعبر الأنهار ، وطرزان يمتطي ظهر أحدها ... لا تفوتكم مشاهدة فلم المغامرات والعجائب هذه الليلة في سينما الأندلس) وحين ينتهي من تجواله يستقر عند زاوية مكشوفة من السوق ، يراها كل من يدخله ، بينما يجلس وصحبه على رصيف الشارع يكرزون الحب . بعدها يلتحق بهم كل من(جعفر وشنبشل) وتأخذهم الأحاديث الطويلة التي لا يملون منها .إنها مهنة نادرة ومحببة لجميع أهل المدينة . ولكوزان حياته الخاصة ، فهو أب مثابر على تربية أولاده وبناته ، له من خصوصية في أداء عمله ، وله أيضاً همه العائلي الذي لا يخلو به . فهو عصامي ، وحذر وذو يقظة حين يجد من يستغل طبيعة مهنته ، فينبري له بأسلوب يدفع الآخر للاعتذار على الفور . وحين يناديه الآخرون بـــ(كزان) بلهجة محببة ، لا تثير حساسيته ، لكنه يتحول

إلى آخر لحظة يحس بأن القول نكاية به ، فيدافع عن نفسه بالقول الجميل .
كَوزان .. نموذج نشأ وترعرع في المدينة ، إذ تراه ينساب إلى بيته بكل هدوء ، محيياً هذا أو ذاك ، أو يحييه أحدهم ، فيرد بأحسن منها . كَوزان تاريخ مشرق من بين رموز المدينة ، فهو مكتسب لقيمة عائلته الكبيرة محافظاً عليها ، مؤمن أن لكل مهنة أسرارها وسُبل أدائها ؛ لذا فهو يحب مهنته ، فليس في الشغل عيب ؛ هذه مقولة الأثيرة. بقي مخلصاً لمهنته ورفاقه ولأهل المدينة . إنه صنع تاريخاً استثنائياً لشخصيته ، سوف لا يغفله التاريخ، وهو يسطر صفحات عن رموزه ووجهائه ورجاله.هذه المدينة التي حفلت برموز استثنائيين ، وكَوزان واحد ممن أسبغ على فضاء المدينة متعتها اليومية ، بما كان يجود به من مزح ونكات ، وحركات تحبب شخصيته للناس . فهو خير داعية اعلامية لما تعرضه دار السينما ؛ لأنه يرى الفلم فيستوعب أحداثه ، تذكراً للأسئلة التي يواجه بها . له حضور خارج السينما وداخلها ، لا يمل من مشاهدة الفلم لأكثر من مرة ، فهي لصيقة بتاريخه ووجوده . كَوزان صفحة مشرقة في مدونة المدينة بجدارة عفويته واخلاصه وحبه للجميع .

الفتى سماوي

أنيق جداً ، يعتني بكل ما يخص منظر شخصيته أمام الآخرين . مولع في الحضور في شارع المدرسة المتوسطة أو الاعدادية للبنات ، ويظهر خلال مروره بين صفوفهنّ ،كأن الصدفة أحكمت قبضتها على وجوده هكذا . لكن التكرار كشف عن مثل هذا الوجود المتعمد . لذا كانت الطالبات وهنّ يسرن في الشارع ، يتهامسنَ ويراقبنه ويضحكنَ ، فيتصور الفتى أن هذا السلوك هو جزء من الاعجاب بشخصه وهندامه الذي يعتمد الموسيقى في ترتيبه . شعر مغسول بعناية ، وعلى حصلاته الملتوية دهان لامع يبدو مائلاً إلى الشقرة ، لكنه يحافظ على التوائه ؛ حيث يبدو كمقطع (السبرنكـــ) أو ما يُسمى بالعامية بـــ(شعرمفلفل) . كما وأنه يرتدي بدلة غير ما بالأمس ؛ بدلة رشيقة تبدو ضيقة على جسده النحيل ، مسايراً للموضة آنذاك ،مع حذاء مناسب بلون مناسب مع لون البدلة . وحتى الجوارب يختارها بدقة ، حيث تكون مناسبة على كل تشكلات هيئته .

يبدو بوجهه المدور الصغير ، وعينيه الخادتين ، وفمه الصغير وأنفه المفلطح ، صورة جميلة تُثير الفتيات ، فيزداد همسهنّ ما أن يشاهدنه سائراً بالقرب من باب المدرسة ، فهو لا يتجاوزبعيداً عن توقيت ساعة خروجهنّ من المدرسة، فقد التزم بدقة الوقت ، واعتبره جزءاً من وظائفه اليومية . فهو يصطنع الأعذار لعمه(أحمد النواس) صاحب محل كل ما تحتاجه النساء ، لكن عمه عرف جيداً أين يذهب الفتى سماوي في هذا الوقت ، فلا يعترض، وإنما يترك له حرية الذهاب . ولا تخلو خطة عودته إلى المحل بعبارة : ها سماوي حمامة لو عصفور .. كان صيدك هذا اليوم . فما يكون من سماوي سوى الانزواء في ركن من المحل ، مظهراً ابتسامة ، هي أشبه بخفر البنات الصغيرات . يُضيّق من فتحة فمه ، فتبرز وجنتاه الصغيرتان بشكل محبب ، كأنه صبي خجل . يتركه (النواس) على سجيته في كل مرة دون أن يُطيل معه الحديث ، فهو يحتل مكانة جيدة في نفس أستاذه ، لم يستغلها في يوم ما ، مما ضاعف السيد من احترامه وتقديره لهذا الفتى الذي يُدير له حركة المحل بقدرة خفيفة على النساء رائدات المحل بتنوعاته . فهو يراقبه باستمرار ، ولو بعين خفية ، يراقب تصرفه مع النساء والفتيات الصغيرات ، دون أن يُثير مشاعرهنّ ، بل يبدو على اتزان واضح، وفم مزموم إلا من ابتسامة خجولة . فسماوي الذي يثابر يومياً على الذهاب إلى شارع المدرسة ومراقبة الفتيات طالبات المدرسة ،تراه غير ذاك الفتى في تعامله مع النساء في المحل ، فهو يحترم طبيعة مهنته ، فلا يفرط بقوانينها

ونواميسها . فلا يبدو منه سلوك مريب أو خارج عن الأخلاق ، فقط يظهر كما لو أنه طالب ذاهب إلى بيته ، بعد انقضاء فترة الدوام ، لكنه في هذه الحالات لا يحمل كتباً أو حقيبة ، بل دائماً ما تجد بين أصابع كفه قاموساً للغة الأنكليزية يمسكه بقوة ، ويستبدل غلافه بين حين وآخر ، فأخذه فون الأستاذ(شريف معارج) حين علق على بعض من حملة الكتب دون قراءتها، واستبدال اغلفتها من اوراق الصحف حين تُبلى . كان يقول عنهم حملة(بطون الكتب المنتفخة) أي أنهم رواد موضة حمل الكتب كجزء من ديكور الشخصية التي لا تستسيغ القراءة ، لكنها تتزين بمظهرها . وسماوي يقرأ قليلاً ، لكنه يعشق القاموس الذي بين أصابع كفه . كما لو أنه مترجم باهر ، يحاول أن يكسب نظر الطالبات ، فينتبهنّ إلى ما يحمل فيظننَّ أنه يعرف قراءة المصادر الانكليزية . لكن أمره انكشف ، وما ضحكاتهنَّ سوى سلوك بريء مداراة لمشاعره ، بسبب عدم صدور سلوك ما يمس شخصياتهنَّ . يبدو لهنَّ كما لو أنه لعبة فاخرة . وكثير منهنَّ قصدن محل العم(النواس) حيث علمنَ مكان اشتغاله. فقررن الاقتراب منه ومحادثته بشكل مباشر أثناء طلباتهن في المحل. فقد يبدو لهنَّ دون قاموس ، فقط ينشر الابتسامات الخجولة ، وهو يراهنّ قريبات منه بتلك المسافة الحليمة والمقدسة لديه ، فيشم رائحتهنَّ الأنثوية ، التي طالما حلم بها . الفتى سماوي، لم يظهر منه سلوك مشين ، يؤثر على سمعة البنات ولا النساء المتزنات والمتبرجات الداخلات المحل ، بل تبدو شخصيته كيسة ورصينة وهو

يستقبل الزبائن منهن، حيث اطمأن عمه على أنه لا يترك المحل الزاخر بالحاجيات الثمينة ، دون أن تمسها يد تتجرأ بأداء فعل شائن ومخجل . فهو أحرص منه على بضاعة المحل ، وأكثر حفاظاً على سمعة المحل. لذا فشخصيته محببة للجميع في السوق ، وأكثر عند الزبائن ، لاسيّما وأن محل(أحمد النواس) ومحله يعتبر فتحاً في التخصص بالبضاعة والاكسسوار النسائي ، إذ تؤومه معظم نساء المدينة ، وفتياتها . وسماوي يلبي طلباتهنّ بكل وقار واتزان.

سماوي بالإضافة لخصائصه الكبيرة هذه فقد كان سريع النكتة ، تأتيه الطرفة من طرف لسانه . وأحياناً يصدر منه سلوك بريء فيكون خبر حدث نادر ، يتداوله أهالي المدينة ، وتجار السوق . لكن حادث سفره إلى بغداد لجلب بضاعة للمحل ،كانت هي الأكثر شهرة . فقد أبلغه عمه يوماً بالذهاب إلى بغداد ، ولم ينتبه جيداً إلى ما تبقى من الطلب . إذ أخذته هالة الحدث . فما كان منه إلا أن تزينَ في المساء ، وقصد محطة القطار مبكراً . وبعد أن اقتنى بطاقة السفر دخل القاطرة التي تقل المسافرين إلى محطة (أور) التي من بعدها يقلون القطار الآتي من البصرة والقاصد بغداد . حجز له مكاناً وانتظر . ولما كان الانتظار طويلاً فقد ارتأى أن يأخذ قيلولة من النوم، فقد شعر بتعب العمل في المحل لذلك اليوم . كان المسافرون ، يختارون الرفوف المشبكة ، لكي توضع عليها الحقائب للنوم. وفعلاً استغرق في النوم ، حتى بعد أن امتلأت القاطرة بالركاب ، وسار القطار إلى

محطة(أور) ونزل من نزل ، إلا سماوي فقد أخذته الغفوة ، ولم ينتبه له أحد . وبعد فترة امتلأت القاطرة بالمسافرين الآتين من البصرة وبغداد والقاصدين مدينة الناصرية ، وسماوي يغط في النوم ، وحين وصل القطار إلى المحطة أثاره أحدهم بأصابع كفه ؛ أن استيقظ فقد وصلنا ، فهب سماوي مغمض العينين ، وكاد أن يقع بين المصطبات ، لكنه تدارك الموقف بخفة جسده وضآلته . خرج من القاطرة وسار مع جمع المسافرين الحاملين حقائبهم . راح يتمعن بالمحطة ، مردداً مع نفسه ؛ أنها تشبه محطة الناصرية . وحين وصل باب المحطة لاحظ (فالح)ذي القامة الفارعة سأله:

– ها فالح اجابك لبغداد؟!

فعرف (فالح) المطب الذي وقع فيه سماوي ، فلم ينبس ببنت شفة ، بل تركه يدخل بهو المحطة ، ليخرج من الباب الآخر . وخلفه كان على رصيف المحطة ، شاهد أبو الطقة ، وهو صاحب عربة حصان(الربل) يقف بجانب الرصيف ، فهم سماوي بالصعود قائلاً :

– ها أبو الطقة إجانك لبغداد ؟!!

عرف أبو الطقة أيضاً ما وقع فيه سماوي من مطب، فلم يعلق ، بل بعد أن امتلأت عربته بالركاب ، غادر المحطة نحو قلب المدينة . وزع الركاب وفق طلباتهم ، وأخذ سماوي إلى السوق ووقف بالقرب من

محل(أحمد النواس) المغلق ، تاركاً سماوي لوحده ، غير أنه كان يراقبه من بعيد ، كان الفتى يراقب المحل ويردد:

– ها محل عمي راحه لبغداد..؟؟!!

سمعه أبو الطفة ،فعرف أي مفارقة وقع فيها الفتى . وبقي سماوي يراقب المحل طويلاً ، إلى أن حضر عمه كي يفتح المحل بدلاً من سماوي الذي سافر إلى بغداد. وحين شاهده سماوي أطلق عبارة التعجب . لكنها هذه المرة أكثر تركيزاً ومرحاً :

– ها عمي انته اجابك لبغداد ؟؟!!

ضحك (أحمد) بلطف ، عارفاً الفخ الذي وقع فيه سماوي ، ربت على كتفه مبتسماً ،كاشفاً عن حب عميق في نفسه قائلاً :

– ها سماوي أكيد نمت في القاطرة ؟

أجاب بثقة :

– نعم عمي ، وما استيقظت إلا في بغداد الآن .

– هل صعدت القاطرة التي تذهب إلى أور؟

– بلى عمي وما بها ؟

– ألا تعرف أنها توصل المسافرين إلى محطة أور فقط ؟!

- لا علم لي .. هذا يعني أنني عدت إلى الناصرية ؟

- وإلى المحل .. خذ المفاتيح وافتح المحل ، واسرع لتأتي لنا بالفطور، وليكن هذه المرة وجبة كباب كبيرة للاحتفال بوصولك إلى بغداد..!!

ضحك وقتها الاثنان ،كما روى الرواة ، ومنتقي الحكايات التي تخص شخصية سماوي ، بأنه أبدى حركات ، بأن لوى جسده كراقص الباليه ، وهو يغادر موقع عمه. كان في حركته شيء من الخجل الممزوج بالاعتذار .

طالب هوبي

رجل لغا يفخر بنفسه ، ولا يعنيه الاهتمام بالآخرين . تكاد حياته خالية من الهدف. يبدأ يومه دون ضجيج سوى تحضيره لما تكتمل خلالها بسطته المتكونة من عربة متوسطة الحجم ، يوزع على سطحها عدد من أنواع الفواكه ، يمسح ظاهره ، خاصة التفاح ، يدلكه حتى تظهر مساماته، ويزداد بريقه ، ويصبح دون شوائب ، مما يجلب أذواق الزبائن . يشكل من التفاح هرماً جميلاً، ومن البرتقال مثله . وهكذا مع بقية الأنواع في كل موسم . يقف قرب عربته ، وكفاه منشغلان دائماً بمسح سطوح الثمار هذه . لا ينادي على بضاعته ؛ فهي رائجة ، ويقبل عليها الجميع .يجوب الأسواق ، وخاصة مدخل سوق الخضار واللحوم ، ينافس دكاني (عقوب وعكاز) . لكنهم جميعاً يؤمنون ؛ بأن الأرزاق بيد الله ،فلا أحد يأخذ فرصة الآخر . الجميع يستحصلون رزقهم في نهاية النهار. له تصرفات

يعتبرها من باب الطُرف ، يتسلى بها ويثير خلالها الآخرين فتأخذهم فرصة الترفيه عن أنفسهم بطرائفه . منها :

– يربط قطعة نقود ورقية من فئة ربع دينار مثلاً بخيط خياطة ، ويضع القطعة في عرض أرض السوق ، والطرف الآخر بين أصابعه ، وهو يقف بالقرب من عربته مراقباً . وحين يدنو اعرابي من القطعة ، ينحني ليأخذها ، بعد أن يتلفت حوله ، . وما أن تقترب الكف من القطعة ، حتى يسحب (طالب) الخيط ، فتنسحب القطعة ، حيث يستغرب الرجل من هذه الحركة المفاجئة ، ثم يحاول ملاحقتها ،فتنسحب بفعل حركة يد (طالب) مما يضع الرجل في موقف حرج ، بعد أن يسمع ضجيج أصحاب الدكاكين ، وانغمارهم بالضحك ، فتصيبه حالة من الخجل منسحباً بهدوء مفعوم بغضب شديد يغلي في داخله . فقط يسمع صوت(طالب) يردد (زوج أبو عكَال) . ينسحب بسرعة ويتوارى في ازدحام السوق .وهكذا يكرر فعلته هذه مع آخرين حتى ينتهي النهار ويأوي إلى منزله .

– يملأ قنينة مطاطية بالماء المشوب بالحبر، يتركه قرب الميزان ، ينتظر لحظة من يزعجه من الأعراب وهم يناقشوه عن السعر ، وهو الذي يؤكد أن سعره ثابت ، فلا زيادة سوى مبلغ بسيط يضمن له العيش . ويُصادف أن بعضهم يلح باللوم جرّاء ارتفاع الأسعار ، ولم يدخر(طالب) جهداً في اقناعه . ولحظة ينتفي كل تأثير للكلام ، يرفع القنينة ويعصرها بوجه الرجل، فيترطب وجهه ، فما يكون منه سوى المغادرة ومسح وجهه

بطرف اليشماغ، فيزداد لون بشرته ازرقاقاً . يبتسم طالب ومن هو قريب من عربته.

– وفي مرة كان الزبون امرأة من الريف ، جادلته كثيراً عن السعر حتى نفد صبره ، فصرخ في وجهها (زوجي شوفي بيا شريعة غاسلته) وهي عبارة لا أخلاقية ، أحست بها المرأة ، فغادرته على عجالة خجلاً من تصرفه . وبعد دقائق جاء له رجل إعرابي وقور ، سلّم عليه بتحية طيبة ، وطلب منه أن يرافقه إلى رأس السوق لأمر يخصه . ولأنه مغفل ، رافقه حتى وصلا إلى المكان ، والرجل يسير وطالب يتبعه . فجأة برز رجلان أوقفاهما ، انضم الرجل لهما ، وبدأوا يكيلون لطالب الضرب حتى أدمياه ، وبدا وجهه متورماً . تركوه وغادروا مندسين في زحمة السوق . فقط كان يسمع عبارة أحدهم(موكل مرة تسلم الجرة) فشعر بدناءة تصرفه مع المرأة . عاد إلى السوق مضرجاً بدمه ، وبوجه متورم ، استغرب كل من هو في السوق ، يردد كل واحد عبارته المناسبة (ها طالب .. ماذا حصل لك؟) – (طالب جوز من تصرفاتك!!) – ليش ما تكعد راحة؟!) حتى امتلأ رأسه بالضجيج ، وبدأت آثار الضرب تظهر على رأسه بطنين. سرعان ما ترك العربة ببضاعتها ودخل إلى بيته في وسط السوق ، وتبنى رفع الفاكهة وحملها إلى داخل البيت الواسع أحد الشباب القريبين منه.

كثيرة هي فقشات(طالب) فمنها ما يمر دون نتائج سلبية ، والأخرى تجلب له الويلات .فهو يعود إلى غرفته في البيت الواسع، بيت الأجداد

يأخذ قيلولة من النوم ، ثم يستيقظ ليجلس قرب أقفاص الرمان ، يضع إلى جانبيه حاويتين من الخوص (زنبيل) ثم يقلب الرمان بين كفيه ، يضع الكبيرة في أحدهم ، والصغيرة في الآخر ، ويسمي هذا بـــ (البسال) أي التفريق بين الرمان وفق الحجم ، وأنا أراقبه . وحين تُمسك أصابعه رمانة رخوة ، ينظر لي قائلاً(جسم خذها لك) وهكذا ، حيث تكون حصيلة ذلك عدد من الرمانات ، تكون فاكهتنا في المساء ، أنا وأخي الكبير وجدتي البصيرة . ولم يسلم مني (طالب) عند خروجه الذي يطول ، حيث أخرج عصاي الطويلة ، ذات الرأس المثبت فيه إبرة متينة(مخيط) أدسها في جسد الرمانة التي أنتقيها ،ناضجة ذات خدود حمر ، أسحب العصا فتدنو الرمانة من الشباك . ألتقطها. ولا أكتفي إلا بثلاثة ، نتقاسمها بيننا نحن الثلاثة .

يعود في المساء باكراً ، يجلس في نفس المكان ، ويبدأ عمله . لكنه في هذه المرة يضع بالقرب منه إناء الماء ، وقدح صغير ، ويشق جسد الليمونة بسكينه ، ثم يخرج قنينة صغيرة من جيبه سترته الداخلي ، يفتحها ويقربها من أنفه ، يشم منها دفقات ، فيشعر بالراحة . هكذا يسكب منها سائلاً صافي ، وحين يضع عليه الماء يتحول قوامه إلى أبيض كالقطن ، يأخذ منه جرعة ، فينكمش وجهه ، ثم يسارع لتقريب قسم الليمونة من فمه ، ممتصاً إياها ، شاعراً براحة . يعود بعدها إلى عمله . ربما ما يكون زائداً عليه من

الرمان نحوي ، مفرقاً بين الصغيرة والكبيرة ، عائداً إلى جرعاته من السائل ، الذي يحوله إلى رجل مرح ، يصيح :

– عمه ...عمه ؟

ويقصد جدتي . ويكرر:

– تعالي شوفي جسم شكد صار عنده رمان؟

تردد جدتي:

– من خيرك.

ثم تقترب من الغرفة ، حلال استدلالها بالحائط ، تجلس بالقرب مني وتقول:

– ها يمة طالب شنونك؟!

يقول بمرح متدفق:

– بخير يمة .

تقول:

– هذا وليدك يمة.

يردد :

– جسم ابن أختي وياه هشم.

ويقصد(جاسم وهاشم) . بعدها يبدأ بالنعاس ، وتبدأ ساعداه بالفتور، يترك أقفاص الفواكه ، ثم يصعد إلى سريره المصنوع من جريد النخيل ، ثملاً ،مكدوداً من شدة الوقوف أمام عربته ، والتجوال في أسواق المدينة . أغادر المكان ، ويتواصل شخيره حتى غرفتنا نحن الثلاثة.

طالب بالرغم من اهتمامه بصحته ، وتناوله أشهى المأكولات وتنوعها، غير أن التدخين والادمان علي شرب الخمور ، ترك له صدراً موجوعاً ، يملأ البيت سعالاً ممضاً ، تنخبع جرؤه رئتاه ، ويتمزق صدره . وبمرور السنين ، وبعد أن افترقنا ، عرفت أنه استوطن مستشفى التويثة للأمراض الصدرية المزمنة والخطيرة . ولم أسمع أخباره ، فقد دار دولاب الزمن بكل حسناته وسيئاته ، وبعد أن أصبح لي مركزاً وظيفياً في التعليم ، كان أن وقف وجهاً لوجه معي ، وهو يدخل السوق . رحب بي ورحبت به ، قال:

– كبرت يا جسم !!

قلت بلهفة:

– وأنت كيف هي صحتك ؟

– لقد خرجت من المستشفى ، وها هي شهادة شفائي .

ثم دس كفه في جيب سترته الداخلي ، أخرج محفظة نقوده ، استل منها ورقة ، بدت رسمية ، ورحت أقرأها ، بعد أن سلمني إياها ، قال:

- أما تكفي هذه الشهادة ، كي تقنع الناس بأني أصبحت لا أعدي أحداً !

- هذا يكفي .

قال عمارة:

- إنهم يتهزمون مني ، خوفاً من مرضي.

- أعد عملك في بيع الفواكه .

قال عمارة أيضاً :

- ومن يشتري من إنسان مصدور ؟!!

نظرت إليه بألم ،متذكراً سنواته الماضية ، وكيف كان ينطوي على فرح يومي ،وهو يمارس مهنته . ومن يومها لم أسمع عنه خبراً ..!!

توفيق السراج

منذ أن انحدر من مدينة(الشطرة) في الناصرية ،وهو لا يفارق مكانه أمام البيت الذي وظف كمخزن ، اختار منه (توفيق) زاوية هي كعش الطيور ،يأوي إليه في المساء . دكته عبارة عن مقطع من شجرة معمرة ، تجلس ثابتة لثقلها أمامه ،بينما تتوزع أدوات العمل من مخرز ومطرقة وكلابتين من نوع خاص ، لا مثل ما يستعملها النجار . فهو نحات جلود . في جانبه لوحة من الخشب متقنة ،ثُبت عليها مسامير صغيرة عُلقت عليها خيوط مختلفة الألوان ، الخيوط تنساب كما هو شعاع الشمس ، وتتدلى حتى تصل الأرض ، حيث كوّر الخيوط(الكنديرة).تنطرح الكنديرات على الأرض ، وحين يحتاج خيطاً ما ، وبلون معيّن ، يسحب رأس الخيط الذي بجواره ، فينساب بين يديه طائعاً ، بينما تتحرك البكرة في مجاها لتُعطي خيطاً إضافياً لأصابع (توفيق) الذي ينهمك في عمله مسقطاً نظره على القطعة التي أمامه ، حذراً من حدوث الخطأ ، فقد عُرف بدقة عمله ،

خاصة في صناعة الخف (المشطراوي)، نسبة إلى مدينة المشطرة، وهو خف متميّز بصناعته ثقيل الوزن، يعمله بدقة وإبداع ؛ إذ تراه منهمكاً في قص طبقاته على قياس قدم المشتري ؛ يضعها على بعض ،بعد أن ينقعها ويتركها تجف . يضغط عليها واحدة تلو الأخرى ،مستخدماً ثقلاً يضغط بها على القطع(الطركات) ، وكما هو معروف عنه ؛ أنه لا يستخدم المسامير لتثبيت القطع على بعضها،وإنما يُحيطها بخيط ذي قوام ثابت يصنعه بطريقته الخاصة ، من الجلد . وقد تراه منهمكاً في عمله ، فيتوجب عليك أن لا تحدثه ، فحديثك يؤثر على دقة صناعته ، فقد يسهو فيسقط في الخطأ الذي لا يُريده. فعنده العمل عمل ، والحديث له مجال يتفرغ إليه المرء . هذه هي حكاته في الحياة . فقد يطلب من (أبوعلي) القهوجي شاياً ، والشاي الذي يعتبه يخرج من فم القوري . يضعه القهوجي في مكان مخصص ، دون كلام حين يراه منهمكاً في عمله ، ويمازحه حظة يجده متفرغاً من العمل . لا يصنع الخفاف بشكل حرفي لعرضها ،إلا القليل . فهو يُلبي طلب الزبائن من وجهاء المدينة ، الذين يرغبون في صناعته على وفق طلبهم . حين يتم إنجازه ، يُعلقه على لوح يستقر خلفه ، فيراه الداخل إلى السوق ، أو الخارج منه ، مطلقاً عبارة:

– عاشت إيدك توفيق!

فيستقبله بالبشاشة قائلاً :

– سأخيط لك أحسن منه .

لترغيبه وترغيب الزبائن . فهم يعرفون طبيعة صناعته،ويعرفون جديته وإخلاصه في العمل ، ثم ذوقه في صناعة وجه الخف . لا يزوقه ، بل يضع عليه نقوشاً نسيجية دالة على الوقار ؛ يصنع سفائفها بأصابعه ،ووفق ما تمنحه مخيلته من صورة للسفيفة كما يُسميها ، ويعرفها الجميع بهذه التسمية ، حيث يُضيف صاحب الطلب:

– رحمة لوالديك اعتني بالسفيفة ؟

فيرد عليه بكل وقار ومحبة:

– تدلل حجي.

ويكون جُهده منصب على صناعة خف يتميّز عن غيره ؛ حيث يندهش المشتري ؛ لما يجده عليه من صفات ومتانة ، لم يتخيّلها من قبل ، وما يكون من الزبون ، إلا أن يشكره ؛ بل يُزيد من عبارات الشكر قائلاً:

– لو كان عندك صانع لكافأته بمبلغ كبير !

– أشكرك حجي ما تقصر ، هنيئاً بخفك ، الله يُطيل من عمرك، وتكَّطعه حتى أصنع لك غيره.

يأخذ الزبون خفه ، دون كارتون أو كيس ، فقط يضعه تحت ابطه متباهياً به وهو يخترق السوق ، وحين يسأله أحد في المقهى عن صانعه يقول:

- صنعه توفيق الله يجازيه بالخير.

وهذا لا شك فقد يُزيد من سمعته الطيبة ، وحسن صناعته، فهو ينتج بإعلاماً عبر دفة عمله ، والمحافظة على سمعته وسمعة النتاجه من الخفاف .توفيق ثقيل الجسد ، قد يتجاوز وزنه المائة كيلو ، مترهل الجوانب، ممتلئ الوجه بجبهة عريضة ورأس مكور ، له شاربان كالحبل – يبرم نهايتهما ويعكفهما حتى يصلا أذنيه . يمسدهما ما أن يُطري أحد على دفة عمله . ويبدو في كل الأحيان حليق الذقن ، حيث يبرز شارباه . ينعته الجميع بـــ(توفيق أبو شوارب) ولم يسمع أحد قال (توفيق السراج) رغم أنه لا يُثار إذا ما أطلق عليه هذه الصفة ، فهو متأكد من أنها صفة أتت من المهنة . أما لقبه بأبو شوارب ، فهو يزيده فخراً وتندراً . لا يترك منصته إلا لقضاء حاجة ، أو الذهاب إلى السوق لشراء المواد الأولية لإعداد طعامه ، فهو يعيش لوحده(ازكرتي) ،يقتنص من زمنه في العمل ، ليدخل البيت الذي هو بمثابة خان يستخدمه (كاظم الشكرجي) كمخزن ،والذي يقابله معرضه ومعمله تحت لافتة معلقة بواجهة الدكان من الأعلى (معمل حلويات الحسيني لصاحبه كاظم الشكرجي) . يواظب على العمل ، ولا يمل من مزاحه مع العادي والرائح بعبارات لا تخدش احساس أحد ، فهو

دائماً يمد جسوره مع الجميع ،خاصة أبو علي صاحب المقهى ، ولا يسعف في الكلام مع (أبو ثائر/ جاسم) صاحب القهوة المجاور، ولم يستغرب من صرامته بعد أن عرف أنه تقاعد من سلك الجيش وبرتبة نائب ضابط . لكنه لا يسمح لـــ(طالب هولي) الذي يخرج من بيته الذي يقابله ، فهو يحترم تاريخ بيت العساف ، ولا يسمح لأحد المساس بتاريخهم ، بالرغم من مغادرة أكثرهم إلى دار الآخرة ، فالبيت لم يحتفظ سوى بسمعة طيبة . وبينه وبين طالب ود واحترام ، فهو ما أن ينتهي من احضار أنواع فاكهته، ويصفها على سطح العربة ، حتى يأتيه بثلاث أو أربع أنواع من الفاكهة ووفق ما هو متوفر في عربته هذا اليوم ، يقدمها لتوفيق قائلاً:

– خذها فهي تُزيد من بركة يومي في العمل .

يأخذها من دون تردد زارعاً صفة متينة كالحبل المتين . ويبتسم حين يُشاكس طالب الآخرين ، ويحذره من التحرش بأبناء الريف ، وقد لامه يوم ضربه الأعراب نتيجة مشاكسته لامرأة تخص عائلتهم وقفت لتشتري منه ، فما كان منه إلا أن أطلق عباراته العفوية ، مما غاضت المرأة فاشتكته عند رجالها ، وحدث ما حدث !

وتوفيق لا يستطيع أن يتفوه بكلمة ، لحظة مرور الحاج(رمضان) والد كل من (خالد وطالب) اللذان يشتغلان في سلك الصحة بل يصغي

ويختم فمه باللاصق . والحاج يؤكد بقوة ، لدرجة المساس بكرامته ، لكنه يعتبرها مزحة تخرج من فمه ، فحين يقول له :

- توفيق وينك ؟

يمتثل قائلاً :

- حاضر عمي .. موجود .

- وشواربك ؟

- موجودة عمي بخدمتك .

- أي شي بشواربك .

- تومر عمي .

- لا يومر عليك ظالم .

- أأصنع لك حقاً ؟

- ما ذا أفعل به .. أزين لي شاربك ؟

- تومر عمي .. زين شاربي .. شاربي فداك .

وهو يهرع واقفاً ، يؤشر بكفه المرفوعة لتحيته العسكرية . حينها يُلين الحاج من موقفه وضحته ،ويقول:

- اجلس وليدي .. بارك الله بيك .

ويسير في طريقه قاصداً السوق للتبضع . يتكرر هذا يومياً ، غير أن توفيق يعتبره نوعاً من إزالة الملل الذي يُخيّم على السوق.

توفيق منذ وجوده في المدينة ،غدا جزءاً من ذاكرتها ، فكل ما ينتج من عمل وكلام واعتبارات أخرى ، تُنسب وتُضم إلى سجل المدينة التي حفلت بالكثير من الاستثنائيين في حياتهم . فهي مدينة ولّادة في كل شيء، منذ أن أنشأها (ناصر باشا) مع الانكليز، واختاروا رحمة ماء الفرات الذي يرتفع عن ارضها ، وفم (أبو جداحة) الذي يُهددها بالفيضان المدمر.عاش توفيق بين ظهرانيها بكل وقار الأبناء لآبائهم .

القسم الثالث

نُخَبْ السطح

قاسم أفندي

الأستاذ (قاسم نادر) والد لأبناء كانت لهم منزلة علمية ؛ عبر تخصصاتهم التربوية ، وتمثلهم للفكر السياسي اليساري. (فريد) مدرس للكيمياء ، وقد تميّز في اختصاصه من بين مدرسي المادة ؛ و(رياض) من العلماء الذين تخصصوا في تحضير غذاء طاقم الأقمار الفضاء . قاسم أفندي؛ أول معلم في مدينة الناصرية منذ العهد العثماني ، يوم لم تكن هنالك مدارس سوى الكتاتيب . فكان قاسم أفندي يعلّم الصبية في البيوت ، متخذاً من بين بيوت الراغبين في التعليم صفوفاً لتعليمهم، يؤدي خلالها تعليم الصبية القراءة والكتابة وعلوم الدين ؛ فاستحق بفعله احترام أهل المدينة وتقديرهم لشخصه التربوي، فحكمته .. من علّمني حرفاً ملكني

عبداً ... واطلب العلم من المهد إلى اللحد ...فكان له أن اختار سبيل إيصال العلم لأبنائه . وحسب ما كتب ولده(مؤيد) وهو مدرس مادة التاريخ ، أن السلطات أحسّت بهذا الفعل الذي من شأنه تصعيد الوعي عند الأجيال . فابتدأت تلاحقه وتمنعه من أداء واجبه الإنساني . لكنه ابتكر وسيلة أخرى لتعليمهم ، بأن طلب من ذوي التلاميذ ، تنظيم أبناءهم ضمن بيوت مجاورة، وهو يقوم بالبدء بالبيت الأول ، يدخله خفية عن عيون البصاصين، ثم ينتقل إلى البيت الثاني عن طريق السطوح ، أي تسلّق ستائر البيوت خفية . هكذا كان الأستاذ يؤدي واجبه التربوي مجاناً ، فقط يحصل على قناعة إنسانية خلال أداء واجبه التربوي. وقد كنت بمواجهته مع أخي وأبي داخل بناية صغيرة كنا نطلق عليها (دائرة الحريق) بمصاحبة أبي الذي يعرفه جيداً . رحب بنا وتم تسجيلنا مع أخي الأكبر في الصف الأول من مدرسة الشرقية، على أمل انتهاء بناء المدرسة في طرف المدينة المجاورة لقرية فرحان . كان هذا عام 1953 وبعدها عشت مع إدارته حتى الصف السادس . أقول عشت ، لكونه حوّل المدرسة إلى بيت كبير لنا . ترعرعنا فيه وسط أسرة تعليمية ممتازة .كنا نتفقد بناية المدرسة يومياً لنقف على المنجز منها ، ونطمئن على دارنا الذي سنأوي إليه في لاحق الزمن . وكم فرحنا ونحن نشاهد علو الطابق الثاني المواجه للشارع العام المؤدي إلى قرية فرحان . فما من شخص في لواء الناصرية يجهل شخصية السيد قاسم . بل لا تجد فرداً لا يكنّ لحضرته الحب العميق والود الخالص . كان قدوة في

الأداء ، مما جعله المربون في أسرة معارف الناصرية قدوة لهم .نبيل الخُلق ، شهم ، يتمتع بشهرة واسعة مكللة بالوفاء والأمانة . يقوم بواجبه خير القيام، تنشط حتى حين بلغ عمر الكبر . له خبرة واسعة في الحقل التربوي ملّم بالبيئة الاجتماعية . يقترب منه الجميع بمهابة واحترام . يُحسن القراءة والكتابة باللغتين العربية والتركية وله مقالات قيمة في حقول التربية حررها باللغتين . ولد في مدينة الناصرية عام 1894أكمل المدرسة الرشدية وعيّن بتاريخ 9/15/ 1923. شغل الإدارات التالية (الناصرية الأولية ، مدرسة الناصرية المركزية / مدرسة الناصرية الأولية الثانية ، مدرسة السوق الابتدائية ، مدرسة السماوة بلواء الديوانية . وفي 9/1/ 1943 عُيّن مديراً للمدرسة الشرقية .كان قصير القامة ، يضع على رأسه (السدارة) حتى آخر أيامه في الخدمة . لم يره التلاميذ عابس الوجه يوماً ، حتى حين يؤتى بتلميذ مخالف في واجبه أو سلوكه ، فقد كان يُقرّبه منه ويأخذ بنصحه ، ويتركه مقتنعاً مهذب الذوق والسلوك . له قلب واع لمواجهة أمر المدرسة الواسعة ذات الطابقين . بقي حتى آخر عمره متقدا ، أسلم عليه وأحييه حين أراه متجولاً على الرصيف قرب داره وسط المدينة .كان يستقبلنا أنا وأخي ، وينعتنا بأسمائنا ، ويسأل عن أبي وأمي وخالي . له ذاكرة لم تشخ اطلاقاً . يمارس رياضة المشي قرب دارهم ، يهتم كثيراً بحديقة المنزل، ورش مقدمته، الرصيف وجزء من الشارع أمام البيت . يلاطف الجميع ، إذ تسود بينه وبين أقرانه ومحبيه والمقربين منه الحوارات والأفعال التي تعمّق العلاقة

بينهم . حريص على سمعة عائلته وتربية أولاده وتميّزهم في الحياة . إذ يروى أن صديق له ، وهو المدرس(إسماعيل العضاض) مدرس التاريخ ، وهو قريب من العائلة . هذا المدرس أراد أن يلاطف أفندي وأفراد عائلته ، بأن رتب أمر هدية لهم ، وهي قفص للدجاج الذي يحبه (قاسم أفندي) وغلّف جوانبه بالكارتون السميك ، وأوصله بالعربة حتى باب البيت . وكان هذا في يوم كذبة نيسان كما روي . طلب من صاحب العربة أن يطرق الباب، وحين يخرج أحدهم ، يُخبره بأن هذا القفص هدية من أحد الأصدقاء . وفعلاً نفذ صاحب العربة الأمر ، وخرج (قاسم أفندي) بيجامته المقلمة . والأستاذ رزاق يراقبهم عن بُعد دون أن يراه أحد سوى صاحب العربة . نادى أفندي على أولاده بأن يُنزلوا القفص الذي جاءهم بهدية هي مجموعة من الدجاج . سارع الجميع بحمله إلى داخل البيت . وتم هذا بكل دقة وحذر من فرار ما في القفص من دجاج، وما خطط له الأستاذ(إسماعيل) .

وما أكمله الراوي ؛ أن أفراد الأسرة فرحوا لهذه الهدية ، التي سوف تُزيد من عدد الدجاج في قفص الحديقة ، مما يُزيد من انتاج البيض للعائلة الكريمة . وفعلاً وبحذر أخذوا بإزالة القطع الكارتون عن جوانب القفص الكبير نسبياً ، لكنهم أُصيبوا بالخيبة ، إذ لم يشاهدوا دجاجاً فيه . فقط ثمة طير دجاج صغير(فروّج) يلوذ في زاوية من القفص بدا مرعوباً ، نُزع عنه الريش تماماً ، فظهر جسداً بلحم محمّر فقط ، عندها قال الأستاذ(قاسم أفندي):

ـــــ هذا من فعل الأستاذ إسماعيل ، وليس غيره .

عثر على ورقة مربوطة بساق الفروج ، كُتب على صفحتها (هديتي للعائلة الكريمة في يوم عيد الأول من نيسان مع الاعتذار). وفجأة طُرق الباب ، فهرع أحدهم لفتحه . وإذا بأستاذ إسماعيل ، كما شخصه أبو مؤيد، حيث دخل دون استئذان ،وراح يضحك ، ويُضحك أفراد العائلة ، مردداً :

– ها شلونه الهدية ؟

ابتسم السيّد (أفندي) قائلاً :

– عرفتك .. هذه شيمتك يا أستاذ ، لقد ملأتنا بالفرح يا رجـــــــــل .

ضحك الجميع ، بينما أسرعت أم مؤيد لإعداد الفطور للجميع . والعهدة على الراوي .لكننا نؤيد هذه الحكاية ، لأننا نعرف كيف كانت العلاقات بين الناس آنذاك . فالنسيج الأسري والاجتماعي متماسك ، ولم تشبه شائبة الأزمنة اللاحقة ، التي أفسدت كل شيء..؟!!

نادي الفتيان الرياضي

في ستينيات القرن الماضي زخرت مدينة الناصرية بنشاطات على كل الأصعدة . ولعل الرياضة منها الأكثر شهرة ونشاطاً وانتشاراً، وذلك بتعدد نواديها وتجمعاتها وفرقها الشعبية . فساحة متوسطة الجمهورية لم تخل يوماً من مباريات كروية تستقطب جماهير واسعة . حيث غدا الحضور إلى هذه الساحة تقليداً يجمعه الحماس الشديد من لدن الناس البسطاء ، بائعي الخضار والسمك وأصحاب المقاهي ، وأصحاب بسطات بيع الخضار واللحوم . بمعنى كانت الكرة ذات صفة شعبية ، والرياضة للجميع . ونادي الفتيان من التجمعات العريقة في المدينة ، وبموقعه قرب بداية الجسر الحديدي الوحيد آنذاك ، حيث يربط الصوبين من المدينة ، بعد أن كان جسر – الدوب – العائمة الذي كان يقلق الجميع . في تلك البناية الواسعة كانت تُمارس كل أنواع فن الرياضة من كرة السلة والطائرة والمنضدة ، وأداء تمارين الكمال الجسماني . وأتذكر أن الرياضي (علي الكبّار) قد حضر يوماً إلى المدينة بحكم مهنته كـ ـــــ كبّار ـــــ للزوارق ، وزار

يومها نادي الفتيان ودخل قاعة الكمال الجسماني ، فهرع الجميع لاستقباله، بعد أن عرفوا شخصه من المرافق له . أبدى اعجابه بالقاعة واللاعبين ، وقدم توجيهاته لهم بكل حب ووقار . كذلك كانت المصارعة والملاكمة من نشاطات التدريب في النادي . الذي لعب دوراً في تخريج أجيال رياضية مهمة في تاريخ الكرة العراقية . فالداخل إلى النادي يختار ما تصبو إليه نفسه من جنس رياضي ، ويعمل على الانتماء إلى النادي ببدل اشتراك قدره (150) فلساً ، يمنح هوية خاصة لهذا الانتماء ، واكتسب النادي صفة اليسار ، حتى أن بطاقة العضوية عام 1961 سببت لي في البصرة إشكالاً مع رجال الأمن الذين داهموا بيت خالي المتخفي سياسياً . وحين قرأ الضابط هويتي استقدموني إلى الدائرة لأني أنتمي إلى نادي يساري .كما وأني صيد بديل عن خالي .

كنت وقتها تستهويني لعبة كمال الأجسام ، أحتفظ ببعض الصور منها لرياضيين ذوي أجسام جيدة وذوات صبورة في التمرين المتواصل . ومنهم (كاظم ستدال) الرياضي المثابر في بناء جسمه ، والذي يُغدق بوصاياه إلى الفتية الجُدد ، كذلك (جوني) بجسمه الصقيل والمتناسق و(ناجي كوكا) قصير القامة والمتناسق الجسم . كلهم يمارسون اللعبة ، ويشاركون في إقامة العروض بين فترة وأخرى ، كذلك مشاركاتهم في العروض القطرية . كانت لهم مكانة بين الرياضيين في العراق. أما على صعيد كرة القدم . فكان فريق النادي يضم نخبة طيبة من الرياضيين .

ومنهم (عباس هليل) اللاعب الذي سحر المشاهدين في جميع المباريات . إذ كان له تاريخ طويل منذ صباه متدرجاً إلى نخبة منتخب المحافظة . كان فارس كل مباراة بتميّز . ثم (نعمان السيد محمد) هذا اللاعب ذي جسم يمتاز بالضخامة والقوة مقابل سرعته الفائقة في مداورة الكرة بين اللاعبين . ثم (شريف نعاس) الشخصية المرحة وصاحب النكتة وراوي الطرفة . من ميزاته أن يظهر في الساحة مبتسماً قنوعاً بما يؤديه من مهارة . متعاون مع الجميع ، تختفي أناه حين يحصل تضافر جهود الجميع . أما (عاجل كريم) ففوضوي جميل وعبثي من طراز خاص ، دون أن يلحق أذى بغيره ، عشت معه في مدرسة (لقيط) سنوات منفياً سياسياً . كان يلعب بقدرات ذاتية متميّزة ومتفوقة . ولعل رشاقة (خالد غني) مثيرة للناظر ، حيث يراه المشاهدون وهو ينتقل من هنا إلى هناك بلمح البصر ، لا تعصيه الكرة وهي بين أرجل لاعبي الخصم ، فقد يدخل بقوة ورشاقة وبنظام ليحصل عليها ويقودها إلى هدف خصمه . أما الأخوين (خالد وماجد حبش) فقد تضافرت جهودهما في لمّ الفريق بما كانت تجود به قاماتهم وأجسادهم الرشيقة ، كل شيء يمكن إلا رشاقة الجسم لا يمكن التفريط بها . ويبقى (القط الأسود / حسين السيد فليح البعقوبي) حامي هدف الفريق ، قصير القامة ، غير أنه يتنقل داخل إطار الهدف خطة مداهمة الكرة كما لو أنه قط سريع الانقضاض . حتى لباسه من شورت وفانيلة ذات لون أسود ، فاكتسب لقبه القط الأسود . وصح عليه اللقب . وأتذكر إن لاعباً جاء

من بغداد ضمن وحدة عسكرية . وكان ضابطاً في الجيش اسمه (علي مرهون) التحق بالفريق بسبب سمعته الجيدة . كان رشيقاً ووسيماً أشقر البشرة وشعر الرأس. يلعب بخفة انتبه إليها الجميع في ساحة متوسطة الجمهورية .كان يجمع أفراد فريق كرة القدم الاحترام والأثرة والوقار وفن اللعب وأخلاقه .

ويبقى في التاريخ صورة للعب شغل حامي هدف : هو المتاضل والمصور المحترف وحامي الهدف المثابر واليقظ (شاكر شناوة) ذي القامة الطويلة . ضعيف ليس من باب الرشاقة بل أنه عمود العائلة كما يُقال ، متفائلاً ،جاداً بحرفته في أستوديو شاكر ، ودؤوباً في مشاركته بين أفراد فريقه ، مبتسماً رغم أمارات الحُزن الراسمة لقسمات وجهه .

الست لنده..
القابلة والإنسانة

لا أحد من شيوخ مدينة الناصرية لا يعرف (الست لنده) فهم يتذكرون جيداً تلك القابلة المأذونة التي ساهمت بولادة معظم أبنائهم منذ خمسينيات القرن الماضي . ولم تكل أو تتعب حتى وافاها الأجل . كما أن الجميع يعرف ما تنطوي عليه المرأة تلك من وقار وهيبة ؛ توفرت من قوة شخصيتها التي اكتسبتها من وقار مسيحيتها ديانتها الأولى ، قبل أن تقترن برجل مسلم وعسكري ذو رتبة في الجيش منذ أربعينيات القرن المنصرم ، فحين قررا الزواج دعاها لاعتناق الدين الإسلامي كما يتطلب العرف آنذاك ؛ فطاوعته ؛ فامتزجت مسيحيتها الرشيقة والملتزمة بما أضيف إلى شخصها من وقار الإسلام وتعاليمه . لا زلت أتذكرها ؛ فعلى يديها ولد أبيّ ، وعلى سماحتها أدركت ومن معي من أبناء المدينة أهمية الوقار وقوة الإيمان وتمثل ما نؤمن به سلوكاً مباشراً يؤطر حياتنا . كانت كما كنت أراها دؤوبة ، متحمسة تعتني بمن تولدهنّ ، لا تكترث أو تتهيب بالذهاب

إلى منزل من لم تستطع الحضور إلى بيته الواقع في منتصف المدينة وفي أحدى منعطفات شارع الهوى (عكد الهوى) وهو شارع الحبوبي حالياً ، نسبة إلى الشاعر (محمد سعيد الحبوبي) شاعر ثورة العشرين الذي قضى ردحاً من الزمن مبعداً عن مدينته النجف . كان منزلها في أول فرع بعد شارع الحبوبي ، ودائماً ما تجد (الربل) يستقر عند رأس الفرع لكي يسعفها في النقل ، في حالات الولادات المتعسرة . ولنقل إن هذه الوسيلة للنقل مخصصة من صاحبها (عبد الوهاب حسون)لخدمتها في مجال التوليد لقاء أجر لا تتوانى أن تضاعفه لما لها من خصائص الكرم ، سواء في مناسبات الأعياد أو غيرها .

تلبي نداء من يحتاجها في أي وقت كان ، ابتداء منذ أول النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل ، وربما وفي كثير من الحالات ؛ حيث ذكر المتحدثون وهم يسطرون صفاتها الإنسانية ، بأن (ست لنده) أو ما كان يطلق عليها بعض من أبناء الريف (الست لندن) كانت تلبي دعوتهم على شكل رجاء في بدء الصباح الباكر ، غير متهيبة بمرافقتهم ، أو استقبالهم في بيتها . يعمل معها نساء بأعمار كبيرة السن ، وخاصة (خديجة) وهي امرأة رافقتها حتى فارقتها إلى دار حقها ، وهي تتذكر كل خدماتها لها للزائرين . كانت تعتني بها كما لو كانت أمها . تعتني بمن يرافقها على أحسن ما توصي به الشرائع ، وتعتني بالمرضى وفق خبرتها ورسالتها الإنسانية . وكثير ما كنت أرى زوجها العجوز الذي حافظ على وقاره

العسكري ، وهو يتخذ له كرسياً متميزاً يندر أن نجد مثله في المدينة وهو كرسي يشبه سرير النوم . ربما كان قد جلبه خصيصاً له من مدن الخارج أثناء سفراته الدورية . يجلس بكل وقار مراقباً ما يدور في الشارع . يجالس الرجال الذين يتحلقون حول مجلسه بكل وقار . كانت المدينة آنذاك في الخمسينيات محدودة الأبعاد ، والكل يعرف بعضهم ويُقيم علاقات الود معه . تروى عن علاقاتهما الحكايات ، ولا تصب جميعها سوى في معنى الوفاء والإخلاص . يُقدر الرجل مسؤولياتها ولا يضجر من الازدحام الذي يعيشه بيته المتواضع ، الذي هو عبارة عن حبة نحل دائمة الحركة .

الست لنده مثال في الأخلاق الاجتماعية والمهنية قلما يتصف بها أحد، امرأة بلغت الستين من العمر ، غير أنها لا تمل ولا تعتذر من أحد في حالة الطلب . تراها تنادي على صاحب العربة ـــــ الربل ـــــ (السيد رزاق) وقبله (السيد وهاب) حتى في منتصف الليل ، إذ سرعان ما يشد وثاق حصانيه ، ويضبط لجاميهما ، ليكون حاضراً بعربته أمام الفرع ، تخطتها تخرج إليه حاملة حقيبتها الجلدية السوداء ، التي يشبهها الناس بصورة الحلاق الذي يحمل حقيبة أدواته لغرض ختان الصبية قاصداً أقصى الأمكنة والأزقة الملتوية في المدينة .

الست لنده نموذج فريد من ناس أيام زمان ، لابد أن يتذكرها الجميع من بين نماذجهم ومناسباتهم الأثيرة . وفاء منّا جميعاً نتذكر هؤلاء ، وهي من جملة ثقافة التذكر لاستعادة أخلاق أيام زمان التي افتقدناها في عصر

التكنولوجيا البهيج الذي دفعنا كثيراً للتربص بالآخر لنسج المكائد له ، دفعنا إلى أقصى حالات المكر بالآخر . ستبقى صورة هذه الإنسانة الفاضلة في ذاكرة البعض القليل وهذا أضعف الإيمان

طاهر غفوري

طاهر غفوري.. لا أحد من أهالي المدينة لا يعرفه ، ويعرف موقع مكتبته . لاسيّما المثقفون منهم ، الذين أدمنوا عل ما تعرضه يومياً . يُقيم علاقته مع المكان ، ومع من يجاوره بالصمت ، الذي هو سمة مميّزة له . لا يُكلم أحداً ، حتى حين يُسأل عن سعر الكتاب ، فهو يُؤشر ولا يتفوه . لا يراقب من يدخل إلى المكتبة ، ولا يتضايق من بقائهم طويلاً وانشغالهم بتقليب الصحف والكتب والمجلات ، لا يعترض على ذلك ، ويعتبره جزء من وجود مكتبته ، فالعشرة الذي يدخلون إلى المكتبة ، واحد منهم يشتري وهذا يكفي . لكنه يسرّ القريبين منه بالقول ناعتاً إياهم (ما عندهم شغل غير التكليب) .

مكتبته تزخر بالكتب وتنوعها ، والمجلات كالآداب والأديب والعلوم البيروتية . إضافة إلى مجلات الفن والموضة ، فقد تثيره صورة غلاف إحدى المجلات وهي تعرض صورة فتاة ذات قوام فتان ووجه صاف ، فيعمد إلى النظر إليها بين آونة وأخرى . وحفاظاً على احتمال اكتشاف أحدهم

لنظراته ، يعمل على فرصها وتعليقها في مقدمة المكتبة من الداخل ، لتكون بمواجهته ، يراها دون أن يلفت نظر أحد ، لأن بعض من يدخلون المكتبة (نعوله) يعلقون على كل شيء ، ويُثير حفيظتهم كل ما يروه . وكثيرة ما كان يراهم يقلبون المجلات رغبة في تمتع نظرهم بصوَر الممثلات ، وعارضات الأزياء . ويحاولون شراء نسخة منها ، لا لشيء سوى قطع هذه الصوَر وتعليقها على جدران غرفهم ، فتصبح جزءاً من أحلامهم في يقظتهم ومنامهم . يعرفهم جميعاً كما يعرف المفكر (عزيز السيد جاسم) الآتي من ناحية النصر البعيدة ، لاقتناء الكتب التي يجلبها (طاهر) إلى المكتبة . حين يدخل يُسلّم عليه بحرارة ، ويرد عليه بكل قوة مع ابتسامة ، تفتح قسمات وجهه بعد الانكماش الطويل . تأخذه المكتبة بمحتوياها ، وهو يراقبه ، لأنه يعرف بذائقته التي تنتبه إلى الجديد من الدوريات والكتب . يأخذ المجلة ويتصفحها ، ثم يأتي بها إلى المحل الذي يكون أمام (طاهر) يضعها فوقه ، وهو يعرف ما يعنيه هذا ، بأن عزيز سبقتنيها ، أو هي من ضمن (مسواكه) المعرفي . يطول مكوثه في المكتبة ، وزرم الكتب والمجلات يتكدس ، ويعلو . وحين ينتهي شوطه هذا ، يُسارع (طاهر) إلى وضعها في أكياس بعد حساب قيمتها المادية ، حيث يُسارع (عزيز) لدفعها نقداً . ويعرف (طاهر) أين سيكون مستقر عزيز في مقهى أبو أحمد ، حيث يحتسي الشاي الخاص مثل شخصه الباهر الوجود . وحين يدخل بعده زمن قصير (عزيزعبد صاحب) إلى المكتبة يُسارع إلى اخباره

بأن (حنّه) موجود في المقهى ، فيعرف من يقصد ويقول على عجالة (خل أشوفه أنه مشتاق له) وما هي إلا دقائق حتى يعودان معاً إلى المكتبة ، ويأخذ (عزيز) بانتقاء الكتب بمثل ما انتقى ، ولكن هذه المرة إلى بن عبد الصاحب المسرحي الوقور . فهو يحترم ذائقة السيد جاسم في معرفة الكتب المفيدة .

المكتبة، عايشها ادباء المحافظة جميعهم، دخلها الكثيرون مع أصدقائهم . و(طاهر) يُسجّل حاجاتهم من الكتب ؛ يجلبها لهم من سوق المتنبي في بغداد . وكان ينبهه الأدباء عن تلك الكتب وأين يجدها . ويروى أن أحدهم سجل له كتاباً تحت عنوان (الدراما) لكنه أسمعه الاسم هكذا(الدّرّامة) وراح طاهر يبحث عنه في شارع المتنبي ، ولم يُفلح في الحصول عليه ؛ فقال في نفسه .. يبدو أنه كتاب نادر ... وآخر من سألهم قال له من سجل لك هذا ؟ أجاب : (........) فابتسم صاحب المكتبة ، وتعجب منه طاهر . حيث سارع الرجل قائلاً : يا درّامة ... قابل درّامة ....؟!!) فابتسم طاهر قائلاً : إنه ملعون ، يمزح دائماً إلخ سحب صاحب المكتبة عدد من الكتاب قائلاً : هذا الذي طلبه صاحبك .. إنه الدراما .. ،يقصد به الفعل في المسرح . راح روّاد مكتبته يُعيدوها على أسماعه ؛ طالبين كتاب (الدّرّامة) للمزحة .

طاهر غفوري .. علامة لا تُنسى من ذاكرة أهل المدينة ، لاسيّما المثقفين منهم ، فقد ترعرعوا وشبت شخصياتهم في حاضنة مكتبتهم . مروا

به (عبد القادر رشيد الناصري ، قيس لفتة مراد ، عزيز السيد جاسم ، عزيز عبد الصاحب ، أحمد الباقري ، عبد الرزاق رشيد الناصري ، مهدية لسماوي ، عبد الخالق العطار) ومجموع الأدباء الشباب . فهو صديق الكل . ورافد معرفتهم بما يزخر به سوق الكتب في بغداد ، هو شارع المتنبي ، فيقتني منه الكتب والمصادر ، يُزيّن بها رفوف مكتبته ،متباهياً بها .

جبر غفوري

مَنْ من أهل المدينة لا يعرف الرجل . ليس من كونه صاحب مكتبة الأهالي فحسب ، بل لتأريخه المشرّف . فهو صاحب مكتبة الأهالي منذ زمن بعيد في تاريخ المدينة . الصحيفة الناطقة باسم الحزب الوطني الديمقراطي ، ومؤسسها المناضل (كامل الجادرجي) فقد عُرِفَ بجرأته على مر الأزمنة ، وضمن تقلبات الوضع السياسي في البلد . يركن إليه الشباب والشيوخ ممن لهم تاريخ سياسي ، سواء ضمن تنظيمات حزبه ، أو ممن انتموا إلى الأحزاب الأخرى . فهو يُسوّق كل الصُحف دون استثناء . كان يُعلق لافته باسم المكتبة (الأهالي) بنفس الخط الذي يتصدر الصحيفة من وسطها الأعلى . مؤكداً على أنها مكتبة الحزب . وهذا دأبه في كل الأزمنة . فهو رجل وقور وكبير السن ومن أهل المدينة القدماء ، لذا لم يقف حائلاً دون رغبته بإعلان محبته لحزبه ، ولشخص (الجادرجي) فكان يؤكد دائما على بساطة شخصيته وشعبيتها ، ورصانته وثباته على المبدأ

الذي آمن به ،حتى حين انحسرت نشاطات الحزب ، بسبب ضغط السلطات

.دخلت مكتبته شاباً في مقتبل العمر . فكان يتعامل معي بمحبة وأبوة، فهو يُشجع على القراءة .. كما وأنه يعرف عائلتي ، حيث كانت المدينة صغيرة ، وعلاقات أهلها طاغية ، قبل أن تحدث الهجرة من الريف إلى المدينة ، فتأخذ بمعالمها ، ولعل أهم معلم هي العلاقات الأسرية والاجتماعية . حين أدخل أقلّب الصحف ، والمجلات وأشتري ما يروق لي دون أن يُعلق على الصحيفة التي أقتنيها . وكانت (اتحاد الشعب ، الرأي ، الحضارة) حيث كنت في مطلع الستينيات من القرن العشرين قد ابتدأت بتنمية الوعي السياسي في حياتي ، بتأثير خالي الذي كان منتسباً إلى الحزب الشيوعي العراقي . كان (غفوري) يحترم رأيي ، بل زاد من توفير شخصيتي في معرفة الطريق الصحيح الذي احترته . ولما بلغ بي العمر مبلغاً، كنت مستمراً على سحبتي في تصفح الصحف اليومية . لكني أضفت لعادتي اليومية ، حمل بضعة مجلات منها (الآداب ، الأديب ، العلوم) جالساً في الركن القصي من عمق المكتبة . أتصفح وأقرأ بعض ما نُشر على صفحاتها ، وهو منشغل في إدارة عمله ، في تصفيف الصحف وتلبية حاجة الزبائن من القرطاسية ، يمازح هذا ، ويضحك مع ذاك . ويواصل الحديث مع الواقفين من يتداول أحداث الساعة ، وهو سبّاق في ابداء رأيه في مجرياتها . وحين أنتهي من نشاطي اليومي ، أكون قد اقتنيت مجلة الآداب ،

والعلوم إن كان منشوراً في مقالة على صفحاتها . دون أن يُثيره هذا ، بل كان الفرح بادياً عليه وهو يطالع ما أكتبه . ومرة فاجئني قائلاً :

–إني أتابع ما تنشره في الصحف ، بارك الله فيك. استمر .

فأرد عليه بخجل:

– إنها محاولات بسيطة .

– لا تستهين بعملك ، إنك تُمسك برأس الخيط ، وعليك أن تشده بقوة.

كان (جبر غفوري) يعرف زوار مكتبته واحداً .. واحداً ، ويوقر ويحترم من يدخلها لأول مرة ، فيستقبله بكل سرور وترحاب ، مما ولّد احتراما عند الجميع . هو لا يمل من ابراز فخره كونّه ينتسب إلى حزب عريق في البلد . يُلبي حاجة من يطلب كتاباً أو قرطاسية ، وإن لم يجدها في مكتبته ،فيشير إلى المكتبات الأخرى ، أو يوعد زبونه بأنه سيوفرها في وقت لاحق ، خاصة الكتب التي يجلبها من سوق المتنبي في بغداد . يتحدث كثيراً عن شخصيات عراقية لها باع في السياسة والاقتصاد ، ويُشيد في مواقف الوطنيين المخلصين لوطنهم . كان وطنياً خالصاً ، يحترم مجتمعه وأسرته وحزبه ويتجاوزه إلى الفقراء من أبناء الشعب . مكتبة الأهالي كانت واحد من مكتبات المدينة التي كانت باحتها ملاذاً لنا في كل وقت وزمان.

الخال نوري خضير
الجيل والمدرسة

تلقائياً حين تحضر في ذهني صورة المناضل الخال (نوري خضير) تكون صورة المناضل (إبراهيم دوبارة) حاضرة . وحسبي أن هذا مردّه إلى خصائص ذاتية لكليهما ، تقترب في كل مرّة ولا تبتعد عن مواصفات شخصيتيهما الفذتين المؤثرتين . فكل منهما مناضل عنيد وشجاع تنتمي شخصيته لمبادئه فتكون مشعّة وقادرة على تقديم الصورة المثالية للأب السياسي. يدخل (دوبارة) غرفة الصف ، فيجد اللوّحة على أتم صورة يلتقط قطعة الطباشير الأبيض ويكتب بحماس كما في كل مرّة (أمريكا عدوّة الشعوب) ثم يبدأ بشرح العبارة من خلال تقديم معلومة جديدة عن أفعال سلطتها الغادرة بحق الشعوب . بعدها يقوم أحد الطلاب بمسح العبارة ، حيث يبدأ درس الرياضيات . نوري خضير تحتل خصاله العمالية الشارع والمقهى . وحين يمر في السوق يستقبله الجميع بالتحية التي يسبقهم بها . كنت أنظر في كل مرة إلى حركته وهو قاصد محل أل (القيسي) فما

تزداد في رأسي سوى صوّر جديدة لمفردات تخص تشكيلة الإنسان الذي يمتلك الاستعداد أن ينتمي إلى شعبه ووطنه ، معبراً عن رأيه وفق هذا السياق من المبادئ . فكان بالنسبة لي صفاً في مدرسة . كيف لا وهو المنتمي إلى جيل كبير من المناضلين .الخال (نوري خضير) لا يختلف عن مجايليه فهو مصاغ من طينة واحدة ، جبلتهم الزمن في فرنه الساحق عبر تاريخ مصاغ منذ سومر ... (آل شناوة) وهم كثر ونوع ... شاكر المصوّر وحارس مرمى فريق الفتيان ... كاظم شناوة مع صحبه حمادي وخرعل الدجيلي ومكتبة الوعي الوطني .. ماجد شناوة ودكان أبيه وعمله الحزبي المكتوم ... نعمان السيّد محمد وقوة شخصيته لاعباً للكرة وممارساً العمل السياسي، أول الداخلين إلى التوقيف حين تشن السلطة حملتها على الشيوعيين ... عبد الله ناصر المناضل الهادئ الطبع ، ينظر إلى الأشياء بدقة ، لكنه حاد حين تكون المبادئ فاصلة بين ما يحدث وميزان الفكر بينهم يتحرك نوري بكل جدارة وحيوية يدخل مواقف الأمن أو الشرطة بكل هدوء ، ويخرج بشجاعة واصرار جديدين ، لم تؤثر عليه فترة إقامته في سجن (نقرة السلمان) من عام 1963 حتى عام 1968 . ولم تثنه عن مبادئه أساليب التعذيب البشعة في عام 1963 ولا استدعاءات دائرة الأمن المتكررة .. في كل مرة يعود إلى صحبه وانعطافته بعد أن يترك السوق وراءه ، واضعاً مقهى اللواء على يمينه ، قاصداً محل آل القيسي (رزاق ومنعم) حيث يلتقي مستقراً على كرسي خارج المحل ، إذ تدور الأحاديث والنقاشات .

بما يشغلهم أو يشغل عامّة الناس وسط فيض من مناخ ثوري خلقته ثورة تموز 1958 وضمن صراع سياسي لم يكونوا طرفاً فيه سلبياً. فقد خلقته زمرة من مروّجي السياسات المتآمرة من خارج الحدود . إنه ينظر إلى صحبه في الشبيبة الديمقراطية واتحاد النساء ، وطلبة اتحاد الطلبة . ولا ينسى شخصية كانت تولف الخيال الشعبي في المدينة . شخصية دحضت تاريخياً افتراءات الدوائر الاستعمارية ، وأبطلت فرية الكفر والإلحاد التي ألصقت بالشيوعيين ظلماً فراح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب . إنه (مجيد طخماخ) كان ينظر إليه ويلاطفه ناعتاً إياه بـــ (يا عم)، مجيد الذي اكتسب لقبه من الآلة التي يُدار بواسطتها طعام (الهريسة) في ليلة العاشر من محرم ، وحصراً أثناء المراسيم والطقوس التي كانت تُقام استذكاراً لواقعة الطف واستشهاد الإمام الحسين(ع) إنه صورة جلية لعمق إيمانه برسالة الحسين الذي اقتدى بفعله الثوري الكثير من مناضلي ومفكري الكرة الأرضية ، إلا نحن !! مجيد (أبو سلام) الأب الحنون ، القادر على عكس مزايا الحب للمناضلين ، في اليوم السابع من العشرة الأولى بمناسبة استشهاد الإمام العباس (ع)، تبدأ مواكب العزاء تسير على طول شارع الجبولي (شارع الهوى) وأبو سلام بجسده الضخم يتوسط الشارع لا لتوزيع بيانات أو نشرات الشبيبة الديمقراطية ونقابات العمال التي ينتسب إليها ، بل ليقدم عهده للإمام المناضل من أجل الإنسان . يتوسط الشارع حاملاً (المشعل) بمشاعله ذات النهايات الدخانية السود . يومها لم تكن تقنية الكهرباء كما

هي الآن ، بل توضع داخل كؤوس صفيحية قطع من الخيش ، المغمس بالنفط ، تُشعل جميعها ، موزعة فيها ، ومجيد يحمل المشعل بساعديه . وبين فترة وأخرى يدور وسط الشارع فينفض الجميع لائذين على أطراف الرصيف حيث أبواب البيوت ، يخلق مساحة من الشارع خاصة به وبمشعله، بعدها يضع الطرف المدبب في تجويف مربوط بحزام على وسطه ، ثم يواصل سيره مع الموكب حتى نهاية الشارع .، ونوري وصحبه ينظرون إليه بامتنان وبلا نفاق ، لأن قضية الحسين هي قضيتهم، وما يوّحد المناضلين عبر التاريخ من وجهة نظرهم هي التضحية والعمل على صياغة حياة ومستقبل الشعوب ، وهذا ما فعله الإمام ، وكما فعلوه ويفعلونه الآن . فنوري كادر عمالي ، ينتمي طبقياً إلى مبادئ طبقته ، ولا يتذبذب بين هذا وذاك ، له حضور فذ للعقل يزن عبره الأشياء والأفعال . فعندما كنت أسمع منه (ها خالي شلونك؟) أجيب باستحياء ، لكنه استحياء مطلمئن على حب وتقدير ، ثم يكرر (وكيف حال خالك خلف ؟ ما هي أخباره ؟) فأقول بخير . مع علمي أن خالي جزء من الحركة الوطنية في مدينة البصرة ، ثم يسأل عن (طالب وخالد رمضان) وهم بمثابة أخوة لأمي . كل هذا دليل ساطع على وحدة العوائل وقوة محبتهم لبعض ، إنه نسيج من ارتباط اجتماعي أسري سياسي.

عرفت المناضل(نوري خضير محمد) في مدينتي الناصرية ، فعرفت جزء غير يسير من الحياة ، لأنه بالنسبة لجيلي مدرسة في النضال وصياغة

الصبر وفق المبادئ . لا أستطيع سوى استحضار شخصيته وهو يتقدم المظاهرات بين أبناء شعبه ، وأبناء مدينته الذين شكّلوا وجهاً مشرقاً عبر التاريخ . لمدينة أنجبت (عزيز السيّد جاسم ، خالد الأمين ، سيّد وليد ، فؤاد مكطوف ، حسين مكطوف ، زهير الدجيلي وأمه المناضلة ، سعد الدجيلي ، حسين السيد فتيح البعقوبي حسن الخياط ، رزاق النجار، ضمعة مرداس ، عطشان) والقائمة تطول .

فإليك يا خال الذكر الطيّب ، وأعلمك بأن ابن أختك قد تجاوز السبعين الآن وشهد أزمنة مرّة سارت على أجسادنا والبلاد بعجلاتها المسننة آخرها التحرير الذي قادته أمريكا !؟ أرجو أن همس بأذن (إبراهيم دوبارة) الذي تشبهه ويشبهك ، بأن (أمريكا الآن محررة الشعوب وليست عدوّها ..؟!!!) وأننا نعيش عصر رديْ جداً ، لكني لن أنسى ما كنت تكتبه على اللوحة ، وبخط واضح ... أمريكا عدوة الشعوب .

أبو سلام ...
نشاط المدينة وذاكرتها

لم تكن الصورة الفوتوغرافية ، سوى حافظة لوجوه طيبة ،كان لأصحابها دورٌ في صياغة الحياة وتلوثها ، فهي تاريخ للأشياء . وما اختيارنا للصورة بدافع التعرّف مباشرة على شخصية مهمة في مدينة الناصرية، بل تؤكد بعضاً من تاريخها الذي اتسم بالحيوية الاجتماعية والسياسية . وفي شخصية (مجيد طحماخ/ أبو سلام) ولكل من الألقاب ما يؤكد صعود الفعل الاجتماعي والسياسي .فـــ(طحماخ) مأخوذة من الآلة المصنوعة من الخشب الضخم ، التي يُدار بها محتوى القدر الكبير الذي يحتوي على الرز أو (الهريس) الذي يُطبخ في ليلة العاشر من محرم الحرام ، وحصراً في عاشوراء (في ذكرى واقعة الطف) ليوزع الطعام على الناس . ولأنه ثقيل الوزن (الطحماخ) فـــ (مجيد) ذو الجسم الضخم ، قادر على حمله وادارته لتحريك محتوى القدر ابتداء من سكب الماء وحبات الهريس ، وحتى نضوجه في وقت يقارب الفجر من اليوم العاشر . أي أنه يعمل طيلة

الليل ، ليس على قدر واحد ، وإنما على مجموعة قدور . يعمل على مراقبتها طول الليل وهو فرح ومبتهج ، لأنه يُقدم خدمة لأبي عبد الله الحسين ، شهيد الطف وواقعة كربلاء . أما (ابو سلام) فقد اختار هذا الاسم لولده البكر الذي أصبح مصوّراً وفاعلاً فنياً ، والاسم جاء بتأثير انضمام(مجيد) إلى منظمة الشبيبة الديمقراطية وأنصار السلام في المدينة . وهو كما نتذكر ونحن صبية ، كان عنصراً نشطاً ، يوزّع البيانات والصوَر والاعلانات والكرّاسات التي تخص المنظمة ويُهتم في الإعداد إلى الاحتفالات الجماهيرية . وهو أول من يتصدر المظاهرات بجسمه الضخم وقامته الفارعة ،وابتسامته التي لا تُفارق ثغره ، فهو يحمل وجه طفل بريء، يُسعد كل من هو بحاجة إلى المساعدة في السوق والمحلة والشركة التي يعمل ضمن ملاكاتها (شركة البيبسي كولا) .

(مجيد ضماخ) عنصر فاعل في المجتمع ، لاسيّما في أيام التعزيات الجماهيرية ، منذ بدء مواكب العزاء التي تنتظم في شريان المدينة (شارع الهوى)أي شارع الحبوبي حالياً . إن فاعلية (ابو سلام) تظهر في كونه حاملاً للمشعل ؛ ذلك الهيكل الطويل الشبيه بسفينة ضخمة ، مصنوعة من الخشب الثقيل ، والذي ينتهي رأسه على هيأة حيوان خرافي فاتحاً فمه ، فيظهر لسانه كأنه يقذف حمماً بركانية . كان يُرعبنا شكله ولا يُخيف مجيد . وكنا ننتظر ذلك اليوم الذي يظهر فيه وسط الشارع وضمن مسيرة الموكب على طول الشارع من محلة السيف وحتى نهاية المدينة قرب المدرسة

المركزية الابتدائية . يحمله بثقله وحرارة ناره ولهيبها ودخانها المتطاير، بل يدور بين مسافة وأخرى وسط الشارع بحيث يبتعد الجميع على الأرصفة ، يلوذون بجدران البيوت ، خوفاً من لهب النار في المشاعل . ويحيد غير عابئ بالحرارة التي تنبعث منها ؛ يدور ...ويدور ، ثم يستقر وسط الشارع . فهو المحبوب للجميع ، صغارهم قبل كبارهم . فعمله يُثير الدهشة والتقدير . يحمل المشعل الضخم ؛ بعد أن يأخذ وقتاً للراحة ؛ بأن يحمله بقوة ، ويضع قاعدته في وسطه ، عبر رأس مدبب ؛ يُدخله بمساعدة الاخرين في جوف مناسب مرتبط بحزام يدور على وسطه ؛ يستقر النتوء في التجويف ، ويُمسك بحبال المشعل من جهتين ، ويسير وهو ينوء بحمله حتى مسافة من الشارع ثم يباغت الجميع بالدوران البطيء الذي يتحوّل على سرعة مناسبة، قبل أن يستقر على طاولة يحملها أحدهم .

في الصورة التي نوهنا عنها ، يظهر (ابو سلام) بقبعته ، هو يجلس معه على اليمين (رزاق القيسي وفليح المصوّر) فمن يكون رفقته هؤلاء . رزاق القيسي من بيت القيسي في المدينة ، بيت عريق بسمة النضال الوطني . ومنهم (منعم القيسي) كابتن في فريق نادي الفتيان الكروي ؛ إنها عائلة تميّزت بنضال أفرادها وتضحيتهم ضمن تاريخ المدينة ؛ سواء كان منهم الكبار في السن ، أو الشباب والفتية والفتيات ، وحتى الأمهات . كلهم نذروا حياتهم لتاريخ البلد السياسي ، ولمدينتهم وعراقتها التاريخية . دخلوا المواقف والسجون ، وخرجوا منها رافعي الرؤوس . حُكم على بعض أفراد

عائلتهم بالسجن ، لكنهم حملوا تاريخياً مشرفاً في السجن ، حتى تم اطلاق سراحهم . فهم أول الموقوفين حين تحين الساعة ، وحين لا يروق مزاج رجال الأمن للوضع العام . فهم الضحية الأولى دون عناء لمزاجهم الزئبقي . أما (فليح) المصور فمن لا يذكر وجوده كمصور من بين مصوري المدينة مثل (رشيد مجيد، جبار ، رحيم ، غانم ، ناصر عساف ، عبد علي مناحي، حامد) وغيرهم . ؛ مصورون متجولون في ساحات كرة القدم والاستعراضات المدنية والعسكرية ؛ والمظاهرات وأيام عاشوراء ، واحتفالات المدارس وعصريات شارع النهر(الكورنيش) أيام زمان والمتنزهات في الأعياد والمناسبات الوطنية ، وحديقة غازي . يأتي الناس ليلتقطوا صوراً توثق وجودهم في المرافق العامة بين كثافة الزهور والخضرة الدائمة. ثم يراجعوا الاستوديو بوصل يزوده لهم المصور الجوال ، كي يُتيح لهم استلام صورهم . وبعض هؤلاء المصورين لهم استوديوهات خاصة وعريقة مثل (كريم وجبار تدرب في حاضنة استوديهاتهم الشباب ، وتعلموا حرفة التصوير التي أصبحت بعد ذلك فناً كبقية الفنون .الجميع تخرجوا من مدرسة (رشيد وكريم وجبار) حتى رحيم بكامرته البوكس ، مكتفياً بحرفته التي تدر عليه ربحاً يُساعده على العيش بكرامة.. إنها الصورة التي أثارت ذاكرتنا لتستحضر صوراً لرموز المدينة ، ورجالها الأفذاذ . إنه تاريخ الأفراد والجماعات . و(أبو سلام) واحد من ناشطي التيار المدني الديمقراطي آنذاك .

التنور+ الخبز = الشعر

ثلاثة خصال ، بل مراحل أو محطات أطّرت حياة الشاعر (عقيل علي) وهو الذي سعى إلى مرافقتها باستمرار دونما كلل أو ملل . مازالت صورته فتاً تحتفي به المدينة الفارقة في زحمة وجودها المعرفي . حشد من المثقفين والمنتجين للنصوص ؛ وعقيل بينهم ومنهم ، لكنه يركن دائماً في مخبزه ؛ يضمه الخبز الصغير ذي الفم الناقث للحمم ، منتظراً نضوج ناره بهدوء مراقباً دنو لحظة تسكن فيها تلك النار ريثما يصفف فستق العجين كالكرات على منضدة معفرة بالطحين . مراقباً فم التنور ، ماسكاً بقطعة الخيش المبللة بالماء . سرعان ما يغمر ساعده في الجوف اللاهب ؛ مدوّراً القطعة المبللة على جدران باطن التنور فيحمّر وجهه الجميل الصافي. وحين يبدأ بفرش العجينة الأولى على المحدة ، مودعاً إياها جوف التنور ؛ تبرز سمات قصيدة يدوّر أبياتها في رأسه ، فتكتمل باكتمال خبز الفقراء المنتظرين على عتبة العمال ، فيطلقون عليه خبز المعمل ؛ الرخيص مقارنة بدخولهم .حتى ترى الأقراص تعقب أثر خطو بعضها مستقرة على طاولة

فُرشت بعناية ونظافة ووضحه . إذ يتواصل بهذا الفعل حتى الظهيرة . يوزّع الخبز على المشترين ، وبينما يغادر الجميع واجهة المخبز ، يبقى عقيل وسط ناره المتواصلة السعير . ربما تراوده فكرة مدونة أبيات قصيدته التي استلهمها في الساعات الأولى من العمل ، يحفظها طيلة عمله ، منتظراً انتهاء وجبته كي يودع حرارتها على سطح الورق الصقيل. مما جسده وشعره وسط فيض التنانير ، بينما يغادر كل من يلبي حاجته من أقراص الخبز يومياً. وهو ضمن معادلة البقاء والمغادرة التي تشده إلى مكانه. لا يدري مستقبله أيكون معقوداً مع الرصيف ، ملاذه الأخير ؟ لم يحلم أن، يكون لهباً بجسده الغض يستقر على فراش الأرض وساد أحجار الرصيف، يمكث على تعرجاته ، ويموت على واحدة من مصاطبه ؟!

عقيل علي : شاعر بدأ مسيرته الشعرية معتمداً على موهبته ونزوعه الفادح للتمرد، وشروعه إلى القول الشعري مبكراً .انتبه له الشاعران (خالد الأمين، كاظم جهاد) ومن كان مقرباً منه ، إلا صاحب المخبز الذي تربطه معه النار والطحين والعجين . توسعت معارفه حيث عبرت الحدود ، وعرفه شعراء مهمين في الساحة الشعرية العربية ومنهم (أدونيس ، وخالد المعالي) طُبعت دواوينه في أشهر دور النشر (الجمل) .قرأه الجميع، وقيل عنه الكثير ، غير أنه كان من باب التشكيك بموهبته ، لكنه صمد أمام كل ما قيل محترماً توحده مع شعره ،مخلصاً لقصيدته ، بينما بقي أسير غربته في الوطن ، لا أقول مشرداً ، بل ضائعاً على الأرصفة . إنه من شعراء

الغضب والرفض في توجهه ؛ والفطرة علمته أن لا مكان له إلا بين أقرانه ، ثم تطوّر ذلك حتى وصل به الأمر أن آمن بانتفاء علاقته مع من هم على موقف الرفض لواقع مرير . قد يشبه فتى آخر كرامبو ، لكنه حافظ على خصوصيته . فشعره بسيط بساطة حياته اليومية ،وبساطة حياته الأولى التي استمدها من رغيف الخبز الذي يُطعم البطون الجائعة ولا يتكلم. لكنه أنتج شعراً معارضاً . ثم تغازل قصائده الوجود القبيحة في الحياة . فهو رافض للأقنعة التي يصفها السياسيون بالانتهازية . يجمع أقرانه ما يكتبه ، لأنه بلا رفوف وأدراج لمكتبة خاصة ؛ فمأواه لا يحفل ببهرجة كهذه . جيوبه هي الأدراج ، لكن أصدقاءه ككاظم جهاد كان أميناً على ما تُدلي به قريحة عقيل ؛ فنظمها في دواوين صدرت في حينها ، وأحدثت لغطاً يُحسد عليه الشاعر. كان قد اتخذ موقفاً في عدم التعريف بموهبة ، فهو شاعر فتى انحدر من الجنوب ــــ يحمل ثقل المعارف منذ بدء التاريخ ؛ لا تسيّره سوى الجينات المعرفية ، دخل إليها بلا أوسمة سوى الشعر . لا جاه سياسي يركن إليه ، ولا قرابة اجتماعية تُدنيه من وجود السلطة ، إنه محارب عدّته الشعر لا غير . فاكتفى بها عدّة ووقاية تحميه من عوادي الزمن ؛ لكنها خانته في النهاية ، إذ تركت شبح الغامض ينقض عليه . ماذا يعمل في بغداد والمخابز قد اكتفت بعمالها ؛ ولا هو بحاجة إلى التقرّب من التنور بقدر ما كانت رغبته أن يقترب من الشعر والشعراء . وحين وجد من يقف منه موقف المتشكك ، اكتفى بصداقة ذاته الشعرية ، مقترناً بالأمكنة المترّبة التي لا

تليق بفتى وشاعراً موهوباً . لكنها حكمة المُدن مع مبدعيها ، تغفل عنهم تعمداً ، ثم تسحقهم حتى العظم ، وتأسف لرحيلهم ، فتقيم ضم القُدّاس على نحو حجول . شاعر بلا مأوى يركن إليه ، فالمدينة الواسعة مأواه ، شوارعها وأزقتها وأرصفتها العارية ، وأشجار فسحاتها التي كانت شاهدة على موته إثر ك عياله في الجنوب القصي ، متلذذاً خياته البوهيمية ، التي صاغت قصائده . عرفته منذ الصبا ، لكني تعرفت عليه أكثر كذاكرة وتربية ، حين كان يُشاهدني صدفة في بغداد، يفتح عينيه بعد غيبوبة ، يحاول تركيز قامته النحيلة ، يطلق عبارات جميلة ، قائلاً : إنها لا تليق إلا لشخصك ، فأعرف ما يقصد الفتى الوفي . أحببته عن بُعد ، وكم كنت أشتاق لرؤيته . لكن غيابه طال كثيراً منذ أن غادر نار تنوره منحدراً إلى ما يسوغه الشعر لحياته التي لا يحلم بها .

(عقيل علي) شاعر قُذِفَ مرغماً إلى الحياة البوهيمية . ولم يحتضنه الواقع كما هم أقرانه. عاش بعيداً عن المسقفات الوطنية ، متلذذاً بحماية سقف السماء الصافي ، متباهياً بسعة الفضاء ، فانطرح على أقرب رصيف يودعه قصائده إلى الأبد . لحظة كانت حاسمة في اسكات صوت الشعر فيه. لكنه لن يدرك لحظتها أنها الوحيدة ستكون شاهداً على شاعريته ووجوده البهي بين أقرانه .إنه حاضر بين الجميع بجلال ووقار . ربما يسعى كالإله (تموز) للعودة إلى الحياة ، حين تخضر الأرض ، ويينع الشجر ، وتصبح الحياة غير التي نعيشها ، فهي لا تُليق بالمبدعين من أمثاله .

عزران القهوجي

لم يكن مقهى عزران سوى مكان تتداوله الذاكرة الفردية ، التي تستمد مكوّناتها من الذاكرة الجمعية . فقد توّفر رواة تمكنوا من المحافظة على بنية ما كان يعيشه العامّة في مدينة صغيرة كالناصرية ، التي تغيّرت أسماؤها وفق توصيفات التاريخ والشخصيات والأحداث. وعزران لا يختلف عن قاضي المدينة سوى في شدّة اهتمامه بالآخر الذي أسس على وجوده مفاهيمه وأفكاره . فمقهى يتوسط سوقاً هجيناً للتداول اليومي ، الذي يجذب أكبر عدد من الداخلين ، ليس للتبضع فقط ، وإنما للعرض أيضاً. فهم منحدرون من بيئات مختلفة ، يتوافدون مع بضاعتهم وحيواناتهم الحاملة لجراب بضاعتهم ، يرحلون الأنماط التي يعيشون ضمنها في بيئتهم ، مما جعل المدينة ذات أوجه مدنية وريفية وصحراوية . فهي قد استجابت لمثل هذه الأهواء ، فحققت النقيض ونقيضه . لكن مقهى عزران يضم الجميع ، فهم فسيفساء الواقع ، ولا اعتراض على وجودهم . لكنه وكما ذكر الرواة ، أنه يستجيب لطلبات الجميع دون كلل أو ملل . غير أنه

يركز ميله إلى زاوية المثقفين ، وهم يتحلقون حول بعض ، لطرح مطالعاتهم التي وضح انبهارهم بما احتوته من حداثة . فكان المقهى ميداناً وديواناً لهم . لأن عزران ممن يتداول الفكر الفلسفي وذو ميول يسارية واضحة . لكن عقله ميالاً إلى الفلسفة ، والجميع يحترمون توجهه الصعب في الزمن الصعب والمكان الصعب والعمل الصعب .

قال الرواة .. أنه لم يكن يغفل عما يدور بين المتحلقين من أطروحات، بل يتواصل معهم أثناء توفر الفرصة . يُبدي رأيه كما لو أنه حاضراً بينهم . وهذا دليل حذاقته وفطنته وحرصه على مشروعه الثقافي . فارق لهم كما ذكر أخوته في أكثر من مناسبة ، فقد انحدر من عائلته نماذج للنضال والعمل السياسي لم يُخيّب ظن أهل المدينة ، بل دخلوا حيّزهم في مدوّنة المدينة وذاكرتها بكل اقتدار . تحتوي مكتبته على معظم كتب الفلسفة ، وكان مهتماً بسقراط وافلاطون ، وله كتاب مخطوط عن فلسفة افلاطون ، لا يعرف أحد مصيره . سجّل من خلال مكانه (المقهى) صفحات تليق بشخصيته الاجتماعية والثقافية ، فحاز على احترام الجميع . فمن مقهاه ولدت مقاهي المدينة ذات الإيواء الثقافي . فكثر المثقفون من كل الأجيال في المقاهي الأخرى ، لكنهم حين يتحدثون عن مقاهي المثقفين، يذكرون مقهى عزران من باب التباهي بجذور مقهاهم وأصالة مثقفي المدينة ، وانحدارهم البيئي والمعرفي المتصل بالتأريخ الموغل في القدم ..

مقهى عزران يعرفه الأجيال من السماع الذي يؤكد أولوية مقاهي المثقفين ، ومنها يذكر الجميع تاريخ أفرادهم مثل(عبدالقادر رشيد الناصري، عبد الخالق العطار، رزاق النجار ، عزيز السيد جاسم) . حيوية مقهاه مستمدة من رواده ، ورواده يستمدون حيويتهم من صمته ووجوده الفاعل بينهم . لا يترك مجلسهم وهو يُلبي طلبات الرواد ، بل يتفاعل معهم عن بعد ، يتحول إلى اذن تتحول في باحة المقهى .إنه تاريخ يُضاف إلى مدونة المدينة ، التي حفلت بتاريخها العريق منذ الوجود الأول للماء والقصب والبردي .فهو شاهد على كل الأزمنة التي مرت سائرة بأقدامها نحو المدينة ، وتركتها على حال متباينة .

بدري قمر

عرفناه ونحن صبية نتدرج في الدراسة ؛ إنه معلم الصف الأول بامتياز، بل من عائلة تخصص أفرادها من المعلمين بتدريس الصف الأول . يتعامل مع التلاميذ بأسلوب متميّز ، يودّهم ويحبهم . يحبونه ويودونه . وهذا ما كان ينعكس على تلقائية سلوكهم داخل غرفة الصف . دونما شغب أو إحداث اضطراب داخل المدرسة ، بل يمارسون حريتهم المنضبطة بما يتلقونه من علم في تعلم الحرف والجملة وهو يرسم علاماتها باقتدار على لوّحة الصف . كان يُجيد الخط ، وله خيال واسع في تطويع الحرف إلى حكاية محببة للتلاميذ ، يأخذهم بالانتباه مركّزاً عبر حكايته ، ذات السحر والعجائبية ، حتى يصل خلال مضمونها إلى الحرف ، فتجده يدخل إلى ذاكرتهم بطلاقة وترحيب ، يُعلمهم الخط على السبورة والدفتر وفق قوانين رسم الحرف . وينمي قدرتهم على ربط فعل الكتابة بذهن التلميذ ، بحيث يوفر نوعاً من التوازن الذي يُنتج حرفاً معافى وسليم الحركة . يراقبهم وهم يكتبون داخل الصف ، يُصحح اعوجاج الأداء نحو تشكله الصحيح . أو

يضطر إلى الذهاب إلى السبورة لشرح ورسم هذا ، لكي يتفادى الخطأ عند الآخرين . كان قد حوّل الصف إلى ورشة عمل متقنة الأداء .إنه ينتمي لجيل يقود عائلة تفخر بتدريسها الصفوف الأولى بامتياز .

حين بلغ بي العمر في الدراسة ، وفي فترة التطبيق في التعليم ، طلبت من أخيه(دهلة قمر) مشاهدة درس في القراءة الخلدونية . وكعادته فرش ابتسامة محبة على محياه ، ورحب باقتراحي . . كان لا يخرج من الصف إلا نادراً ، بل أنه ينشغل بإعداد وسيلة التعليم في فترة الاستراحة . ووسيلته حيّة ومباشرة على السبورة ، شأنه شأن بعض مدرسي الجغرافية والتاريخ ، يرسمون الخارطة أثناء ما يشرحون الدرس . وهذه ندرة فائقة ، دالة على اتقان المعلم والمدرس لطبيعة عمله . وفعلاً ذهبت قبل أن يبدأ الدرس بدقائق ، وحين وصلت إلى الصف ، وحظة تحديقي بالسبورة داهمتني حرارة وخيوط دخان ، بالرغم من عدم وجود ما يشير إلى احتراق ما . وحظة وقوفي أمامه وهو يجاور السبورة ، وما زال الطباشير بألوانه بين أصابعه ، داهمتني حالة الانبهار وأنا أرى النار تلتهب على رقعة اللوّحة ، فقد رسمتها أنامله بدقة. كل شيء كان أقرب إلى الحقيقة ، قطع الخشب المشتعلة ، الفراغ الذي أحدثه اتكاء القطع على بعضه ، بدا متوهجاً . أقفية الخشب بانت شبه سوداء لم تحترق بعد ، أعلى رؤوس الخشب ثمة دُخان يتعالى . حين رآني مندهشاً هكذا ، ابتسم وقال : هكذا يكون الدرس حيوياً، سيعيش التلاميذ لحظات حقيقية ، تشدهم إلى الدرس وقصته

الباهرة . ولم أستغرب من قوة شخصيته التربوية ، فلطالما شاهدت أحاد وهو يغادر المدرسة بسترته (السراوين) وجيوبها المنتفخة ، يرافقه تلاميذه ، وهم يتسربون في الأزقة حيث بيوتهم ، وبين الحين والآخر يمد كفه في جيب سترته ، يُخرج قطع الحلوى (الجوكليت) يوزعه على الصبية ، وهم يضحكون بامتنان .

ولد الأستاذ (بدري قمر عام 1918 في الناصرية أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة ، وتخرج من دار المعلمين عام 1943 وبالرغم من اختصاصه كمعلم للتربية الرياضية ، فقد تركه للتفرغ والابتكار في تدريس الصف الأول ، متنقلاً بين مدار المدينة (السعيداوية ، الغربية – الفيصلية، حجاج ، آل جويبر،الطار ، المركز. وفي كل هذه المدارس ترك سيرة عطرة، يتخذها المعلمون نبراساً لهم في عملهم التربوي . بدري قمر وعائلته التربوية، تبقى حيّة في ذاكرة المدينة التي أنجبت (قاسم أفندي، فاضل عباس الكاتب، جبار صبيح ، إبراهيم غفوري). هم عائلة المدينة التربويين الذي أسسوا لجيل أكلته أضراس الأزمنة المرة ، حتى أوصلته إلى الدرك الأسفل !!؟

الشاعر العصامي

من الرهط الذي اعتمد على فطرته المتجة لموهبته ، والعامل بدأب على تطوير امكانياته الأدبية ، والذي عمل على احتضان ثلة من الأدباء ، وساهم في تطوير معارفهم . ووصفنا الأخير له : إنه مثقف وأديب شمولي . فقد كتب الشعر ، وشعر التصوّف حصراً، ودأب على انتاج النص المسرحي الشعري والنثري ، مستثمراً تأريخ وحضارة وادي الرافدين ، وخاصة الأدب والفكر السومري ، ورسم وأنتج لوحات انطباعية مهمة آنذاك ... إنه الأديب العصامي (قيس لفتة مراد). من هذه الندرة التي استلهمت مفردات واقعها الأسري والاجتماعي للبحث والتقصيّ عما يسد نهمها هذا ، والذي رائده تغذية الموهبة الموروثة أو الجينية . والشاعر واحد من هؤلاء. كنت أراه وأنا بصحبة أبي إلى مقهى(الحاج كاظم) وأرى من بصحبته ، الأديب والمترجم (أحمد الباقري) حاملاً لوحة كبيرة ومتأبطاً حزمة كتب . يجلسان في زاوية المقهى ، وما أن يستقر بهما الحال ، حتى يبدأنا بالقراءة. لا يكلم أحدهما الآخر إلا نادراً ، حريصان على الزمن الذي

يستثمرانه في تلقي المعرفة . أنتج.. وأنتج أدباً رفيعاً ، طبع كتباً ومنها ديوانه (أغاني الحلاج) وكان يضم بضعة قصائد تمت عن حسّه الصوفي . حرّك الواقع على خشبة المسرح بجملة نصوص مسرحية ، أقام المعارض التشكيلة ، مشاركاً ومنفرداً. أقام علاقات مع الأدباء الكبار ومنهم (عزيز السيد جاسم ، عبد القادر رشيد الناصري ، عبد الرزاق رشيد الناصري ، عبد الواحد الهلالي ، عزران ، صاحب المقهى الشهير في الناصرية والمهتم بالفلسفة حصراً) كان مقهاه صفاً من مدرسة متنقلة ، ينشر المعرفة أينما حط ركابه على الأرض ، كان مع الجميع سائراً في بغداد ، وانتشر أدبه بروية وتأني ، ومثل ما احتفى به المقرّبون ، احتضنته وحدته ، في غرفة نائية ومنزوية في أزقة بغداد . يرتادها في المساءات كي ينهل من المعرفة وحفظ الشعر والكتابة .. لكنه فجأة كما عاش وحيداً مات وحيداً . ولم يذكره أحد حتى الساعة . حقاً إنها ذاكرة عراقية مثقوبة ومجحفة؟

إليكِ ..
فقد حان الوقت الآن

كتبت في كل عام عن ذكرى تأسيس الحزب بما يناسب تجربتي وما أعرفه ، لكني لم أكتب عنك .. أيتها الأم الفاضلة المتشددة بالألم . صحيح أني كنت بعيداً عنك في كل حياتي،غير أني متأثر بمجريات حياتك المكللة بالصبر والشجاعة والتضحية . عرفتك أول السباقين لإنجاز مهامك . ولا تبالين بما يلحق بك من أذى . يوم كنت أراك تواظبين على حضور اجتماعات وندوات منظمة إتحاد النساء العراقيات ، مندفعاً إلى النشاط في حقلي كطالب . كنت تسألين وترافقين نشأتي السياسية ، ولم تعترضي على أطروحاتي ولهفتي في القراءة ، بل شجعتي كل خلية في جسدي برضاك غير المعلن . قدتني مع أخي الأكبر ونحن في زيارة إلى خالي المحجوز في القلعة الحجرية في جلولاء ، كان الزمن عصراً ، فرزني فيه الاطلاع على معالم المدينة ، ثم الذهاب بالقرب من سجن الثكنة . كانت ارض الشوارع ترتفع ، وتهبط ملتوية ، وتلك سمة البيئة الجبلية . صعدت بنا ، وصعدت،

وخشنا جرّاء السير حتى شارفنا حافة الشارع ، وإذا بنا نرى وادياً أسفل مكان تطلعنا ، إذ نرى بناية ضخمة ذات أبراج ، أشرت إليها قائلة : إنها الثكنة الحجرية ودخلها يسكن خالكم مع صحبه من البصرة ، والسجناء الكثرة معهم . كان عصراً فيه غرابة لنا ، بما يحتويه من صور لم نألفها . بدأ ضوء العصر يزحف نحو الغامض من الأمكنة ، فتسلل إلينا نشيد عذب رددته حناجر السجناء ، راح يتلوى صداه في الوادي ، ويصلنا بنغمات . سألتك عنه ، وأتذكر أنك قلت : إنه النشيد الأممي . ولم أعرف وقتها ماذا يعني ذلك . لكني تذكرته وأنا أؤلف نصاً على شكل أوبريت غنائي دأب على تلحينه الراحل (حميد نذير) وكانت نهايته كلمات تساير إيقاع النشيد الأممي ، فقد استرجعت ذلك الإيقاع دون قصد ، فراحت الكلمات تنثال وفق ذلك اللحن . وحين عدتِ بنا إلى الفندق اشتريت لنا من الفواكه التي تنتجها بساتين المدينة . واستكملت تماماً رؤاي في اليوم الثاني حيث تمت زيارة السجن وسط إجراءات كثيرة . كانت باحته واسعة أكثر . بقينا حتى انتهاء فترة الظهر . وقبل المغادرة ، أخذنا خالي في جولة ليعرّفنا على أقسام الثكنة . وأتذكر أنه قال : هنا ينام كامل فرانجي ، واحد من مناضلي هذا الشعب . وفي هذا القاووش يوجد المطرب يوسف عمر ، جيء به إثر مشادة مع بعض رجال السياسة آنذاك .. ألم تكن تلك تجربة دخلت حيّز حياتي مبكراً وأنت من نفذ تفاصيلها ؟ كنت بفطرتك وقوة شخصيتك تضعينا في الموقع الذي يدرُّ منفعة تُضاف إلى حياتي . وما زلت أتذكر

موقفك مع (فاضل أسود) وهو من عتاة ضباط أمن البصرة ، وهو يجلب زبانيته لتفتيش دارنا في محلة السيمر حيث قلت له : ماذا تريد منا ؟ أخي غير موجود . ألا تراعي حرمة البيت ؟! حينها وجدت الغضب مرسوم على وجهه . وحين لم يجد ما يشفي غليله اقتادني بعد أن عثر على هوية نادي الفتيان معلقاً : وابنك عضو في نادي رياضي شيوعي ! قلت له بغضب : هذا هو ، إنا حر في انتمائي . فما كان منه إلى أمر بالإمساك بساعدي واقتدت إلى دائرة الأمن الكائنة في نهاية حي الجزائر . أتذكر تحديك له بكل قوة وإصرار دفاعاً عما انتهجته العائلة من مسار سياسي . كنت تبالغين في تحديه ، لكني الآن أجده أكثر صحة في تلقين مثل أولئك درس البطولة .

سافرت إلى كل السجون من أجل تفقد من يترلون فيها من الأقربين : كركوك ، بعقوبة ، الموصل ، سجن بغداد المركزي ، العمارة .. حتى ورثت من تعبها مجموعة من الأمراض ، حيث عجز الطب عن معالجتك ، لاسيما مرض الربو الذي كان يزاحمك في أصعب الأمكنة وفي أحلك الظروف . وقد كنت أراك وأنت تضعين ما تحويه قنينة الدواء من أقراص على راحة كفك ، فتبرز ألوانها ، فتلتقطين من كل لون حبة حسب إرشادات الطبيب ، وأحيانا بدون أن تدفعيها بقطرات من الماء . وحين اعتقل أخي الأكبر إبان الثلاثة والستين بعد شباط الأسود ، لم تتذمري بل

فثناني عن عزمه ، مما أثار أبي وعلّق : إنها على سر أخيها.لحظتها قلت : وما به طريق خالي ألا يدعو إلى الوطن الحر والشعب السعيد؟!

ويوم طرق بابنا في الليل – بعد أن هرب خالي إلى بغداد جراء الضغط السياسي – سارعت إليه ، وحين فتحته ، أرعبني منظر الرجل خلف الباب . عدت من فوري بعد أن أحكمت غلق الباب قائلاً : يمّه هذا رجل أسود واقف في الباب !! قمتِ على عجالة ودون خوف بعد أن تناولتِ عباءتك . وكنت أسمعك وأنتِ تسألين الطارق : من ؟ فأجاب : أنا . وبسرعة فتحتِ الباب ودخل الرجل الأسود . متجهاً إلى غرفة الاستقبال وكأنه يعرف طريقه . جلسنا معه ، وهو يمطرنا بالأسئلة عن حالنا ، وكنتِ تجيبين بكل شمم وكبرياء . وبعد انتهاء زيارته ، أخرج من جيبه مظروف سلمه إليكِ معلقاً على الكيفية التي تتصرفين بمحتوياتها . كانت تحتوي نقوداً من الحزب لإعالة عوائل من سجنوا ومن هربوا بعيداً عن أنظار رجال الأمن . لكن السؤال الذي شغلني هو كيف عرفت أمي صوت الرجل . سألتها فأجابت : أعرف أصواتهم واحداً ، واحداً . قلت : ولم يرهبك لونه ؟ قلتِ : لقد صبغ وجهه ويديه لكي لا يعرفه رجال الأمن ، فهو مطارد من قبلهم ، إنه الرفيق عبد الله .

ويوم قدتني في يوم مغبر من محلة السيمر حتى الميناء لنحضر مراسيم إعدام ثلاثة من المناضلين الذي كان نصيبهم قطار الموت يوماً لنشاهد مراسيم تنفيذ حكم الإعدام بعد تشرين 1964 كان يوما مغبراً هبت فيه

كل أهالي المدينة ، حتى قلت في نفسي ؛ لقد خلت الدور من ساكنيها . رحنا سيراً على الأقدام . كان مشهداً يدعو إلى الفخر ، ونحن نشاهد الأبطال وهم يهتفون بحياة الحزب والشعب والوطن . صعدوا إلى المشانق بكل إباء وشمم . وضج الناس ولم يستطع رجال الشرطة والأمن كبح مشاعرهم التي انطلقت وعمت المكان الواسع .و ما أن سقطت أجساد الرجال وتدلّت حتى زادت العواصف وكثر الغبار . كان يوماً أسود ثارت له الطبيعة احتجاجاً على فعل شنيع مثل ذاك .

عِبرَة ..كانت حياتك لنا ، وحكمة لي استفدت منها ، بل غدت عنواناً استيقظت خلاله كل غفوة داهمتني غفلة . إنه مجالك يا مجال الأم المدرسة ، لأنه انبثق من مجالات الحزب والشعب . فلك مني السلام يا مدينة السلام كما أراك بعد كل هذه السنين العجاف التي مرّت بنا . ليتك تستيقظين وتأذن إليك الآلهة العودة إلى الحياة لترى ما يجري . ولا أدري كيف تكون مشاعرك لحظتها . إنها بمقياس قوة شخصيتك وحسن تربيتها بلا شك . الحكي معك طويل ، وحكاياتك لا تنضب ؛ سأرجئ بعضها إلى حين ، عسى أن تسعفني الذاكرة من تفاصيل سيرتك السياسية العطرة .

صورة الصف
من صورة المربي

لعل غرفة الدرس تُقاس من قيمة معلم المعرفية والتربوية.. وهذا ليس تخريجاً بقدر ما هو نوع من إعادة قيمة الأشياء في التاريخ . والذي وضعني موضع العارف بالتاريخ المنسي عند البعض هو الفنان الفوتوغرافي القدير (ناصر عساف) الذي أثرى تلقي الصوَرية بمجموعة صوَر أعانتني على تنشيط الذاكرة . فالذي حفزني على الكتابة عن المربي الأول في حياتي كطالب وهو(فاضل عباس الكاتب) فوضعني موضع الزمان البعيد في عام 1953 حيث التحقت بالمدرسة الابتدائية . فقد تذكرت كل ما مر بي وبأخي ابتداء من حيازة صورة شمسية بكاميرة المصوّر (رحيم) الذي أتذكر ارتعاشته وهو يدير كامرته ، ثم استحصال الجنسية ، ودخول البيت الصغير الذي كان يحتوي على إدارة نطلق عليها في مدينة الناصرية (الإضفاء) والمربي الفاضل (قاسم أفندي) بنظارته المدورة الإطار ، وهو يستقبل والدي وبومي إلى معرفة تامة بينهما ندت خوفي . وصولاً إلى

التحاقنا بالمدرسة الشرقية ، بعد أن أستكمل العمل في بنائها وأعدّت كمدرسة تحتوي كل مستلزمات الدراسة ، مدرسة بطابقين . أمر مثير في مدينة صغيرة كالناصرية . ولم أنس اليوم الأول الذي انتظمنا فيه تجمعات وكراديس وفق الصفوف ومراحلها . ولحظة الدخول إلى الصف ، وجدناها في غاية الهيبة والفرح والخوف . لكن دخول المربي (فاضل عباس الكاتب) بدد كل المخاوف ، وفرش لون الفرح على طوله وعرضه . كان ذو طلعة بهية ، أبوية ، حنون ، وجه مبتسم دون ابتسامة ، جبين عريض وشعر رأس مجعد ، وعينان جاحظتان مبتسمتان. وقف وسط مقدمة الصف، ورحب بنا ، معلناً بأننا إزاء مرحلة نتعلم فيها كل ما خفي عنا . شرح لنا الكثير الذي لم نعه وقتها ، لكننا شعرنا بالأمان من وجوده ، وبالفائدة التي ذكرها لنا الأهل جراء دخولنا المدرسة . وبتوالي الدروس والأيام والأشهر ، وتجدد الموضوعات ، كبر عقلنا ، عرفنا الأرقام والحروف التي بدت لنا في الكتاتيب رموزاً لا غير ، دخلنا التنوع في الدرس والفن والتمرين الرياضي . انفتحنا على عالم كبير ، غير أن عالم المعلم (الكاتب) شيء آخر بكل خصائصه . من الصعب الخروج من المدرسة بعد الانتهاء من اليوم الدرس الأخير ، ويزداد شوقنا ، حيث ننهض مبكرين كي نسرع للالتحاق بالمدرسة بكل فرح ورغبة . علّمنا الكاتب سر الحرف وهو يصطف مع غيره ليشكل كلمة ، وجملة ساحرة (دار أمي أزرق .. داران ... دور ... واحد اثنان ثلاث)وهكذا سار الدرس بكل

حيويته ونشاطه ، وتعددت السفرات المدرسية ، وكان (الكاتب) أكثر من أب حريص على مرافقتنا بين البساتين والنهر . عمل على شرح عناصر الطبيعة ، ووصفها على أحسن صورة . ونحن نصغي شاعرين بالأبوة والحنان . يبتسم لسؤال أحدنا ، ويجيبه بكل رحابة صدر . ولا أدري كيف انتهت السنة ، وتحولنا إلى صف غاب عنه (فاضل عباس الكاتب) وما أن حللت في الصف الرابع حتى كان هو معلمي المختص بالرياضيات والعربية ، فأعاد لي الحياة من جديد وأنا العارف فن كتابة وقراءة الجملة . علمني كيفية كتابة الإنشاء (التعبير) فرافقتني طريقته حتى غدوت معلماً أدرس الصف الرابع أيضاً ، مطبقاً طريقته في تقديم درس الإنشاء ، سواء في الريف أو بيئة الأهوار والصحراء والمدينة ،حيث عملت . وتتلخص في كونه عمد على توزيع قصص الأطفال ، وحملها معنا إلى البيوت لقراءتها . وفي درس الإنشاء اللاحق ، يجمع القصص ، ويطلب من كل واحد منا وضع الدفتر على سطح الرحلة ، وكتابة عنوان القصة التي قرأها ، والعمل على تلخيصها . كان عنوان قصتي (الراعي الطمّاع)

ولم يتركنا على حراجة ، فقد تابع كل واحد منّا أثناء قراءة ملخصه ، وتصحيح لغته .ألم يكن المربي (فاضل عباس الكاتب) يستحق أن نطلق عليه الأب المربي حقاً . زرع في نفسي كل الود والحب للتعليم ، وحب الوطن بما كان يُنشده من قصائد ، وما يحفظنا من أناشيد . ويوم طبعت مجموعتي القصصية الأولى (الخروج من الدائرة)عام 1974 ، سلمته إياها

كهدية، عرفاناً بدوره الأول في صياغة شخصيتي الأدبية .كذلك .شاهدته يومها يجلس في دكان الحلاق(عدنان العزاوي) وهو أخ الفنان (محسن العزاوي) . كان صالون الحلاقة مرتفع العتبة ، ارتقيت بصعوبة حراجة موقفي وأنا أقابل معلمي الأول . لكنني تجاوزت العتبة ، وفوراً جلست بالقرب منه ، لحظتها رحب بي الحلاق ؛ وطلب مني الجلوس على كرسي الحلاقة ، فقلت له : إني لم أدخل للحلاقة ؛ بل لمقابلة الأستاذ . عندها تطلع بي الأستاذ فاحصاً ، واستغرب ، لكنه بدا بشوشاً ومتمتاً ومرحباً . مما شجعني على القول ، بعد أن رحب بي بأن قال:

– أهلاً وسهلاً بك يا أخي .

استغربت من كلمة أخي ، وداهمني السؤال ؛ هل حقاً أني كبرت هكذا فلم يتذكرني معلمي ؟! قلت:

– وبك أستاذ .

سأل :

تفضل قل ما هي حاجتك من لقائي ؟

قلت:

– ليست لي حاجة أو طلب سوى أني واحد من تلاميذك في المدرسة الشرقية ، فقد علمتني بما جاد به فنك في التعليم بقصة الراعي الطماع التي ساهمت في زرع رغبتي في الكتابة ، وبمرور الزمن من المتابعة لوصاياك أنتجت هذه المجموعة القصصية .

استغرب واحمرت وجنتيه ، كما عهدته سابقاً ، قال بتعجب واضح :

– ولِمَن هذا الكتاب ؟

– لك .. هدية لك .

– ومن هو مؤلفه ؟

– أنا ...

نظر إليه يفحصه ، بينما شاركنا(عدنان)النظر والدهشة ، راح يقلب صفحاته ، حتى استقر على الصفحة الأولى ، وقرأ عبارات الإهداء ، وردد:

– الخروج من الدائرة ... جاسم عاصي !!هل أنت المؤلف؟

– نعم أستاذ .. أنا تلميذك في الصف الأول والرابع في المدرسة الشرقية .

لم يستطع كبح مشاعره ، بأن أسرع لتقبيلي بحرارة ، لاحظت عينيه تلتمعان ، وابتسامته تنطبع على محياه ولبس فمه . وسكت تماماً . ولحراجة الموقف الذي وضعت نفسي فيه ، اعتذرت وانسحبت من بينهما ، دون النظر إلى الخلف ، فهو بلا شك راقب قامتي ، وربما داخلت نظره قامتي القصيرة ، وأنا داخل الصف ، لأداء الدرس أو قراءة قصة الراعي الطماع ...؟

رحم الله معلمي الأول (فاضل عباس الكاتب) ومدير مدرستي الأول (قاسم أفندي).

الداخل بيننا
في الصباحات المشرقة

ما زلت أستحضر في ذاكرتي صورة تلك اللحظة التي تحدد الزمان الذي انقطع فيه رنين جرس الفصل في دار المعلمين في الستينيات من القرن المنصرم ، وهذا يعني انتهاء فرصة الراحة والعودة إلى غرفة الدرس. ربما كان الصف هادئاً حين شرع بالدخول بيننا وليس إلينا . لم تثر سمعه كلمة مراقب الصف (قيام) بل رأيناه مختاراً الرحلة الأولى كي يستقر عليها . فما كان منّا وكما اعتدنا الجلوس دون أن يؤشر إلينا بذلك ، إنه الرجل ذي القامة المتوسطة الطول ، والوجه المائلة بشرته إلى السُمرة ، ذي شعر الرأس الخفيف المسترسل الخصلات ، كان مرتخي النظرات ، هادئاً لا يُثير لباسه بهرجة ؛ بقدر ما كانت مشاركة لتواضعه . دخل بيننا الفنان القدير (طالب القره غولي) مثل كل المرات حاملاً كيس القماش الذي يدثر به آلة العود ، والتي أباح مؤخراً بأنه اشترى أول عود من الفنان (محمد فاضل) وهو في عمر أربعة

عشر عاماً ، وبمبلغ خمسة عشر ديناراً ؛ وهي كل ما كان يمتلكه أثناء سفره إلى بغداد ، آتياً إليها من الجنوب القصيّ، معبئاً ومبتهجاً بأحلامه المبكرة . دخل إلينا مع عوده المتدفئ بكيس القماش ، ثم جلس في أول الصف بكل الكبرياء الذي استله من الفن الوقور الذي صقل سمات شخصيته الكبيرة ؛ الاجتماعية والفنية وأجلسه بيننا نحن طلاب دار المعلمين الذين نجهل مكوّنات الفن ، لكننا نتذوقه في مدينة سكنتها الأصوات المنبعثة من كل زقاق وبيت ، مدينة رددت أصوات شجية لداخل حسن وناصر حكيم وحسن ناصرية وجبار ونيسة ونضال أخو العنقود . كان لا يبتدئ درسه إلا باللحن والأغنية الأصيلة ، فقد تعرّف على ما كنا نتذوقه ؛ وعرف توحدنا في هذا الجانب ، التوحد الذي استنبت من توحد المجتمع ببنيته الكبيرة والمستقرة ، وندرك نحن بالحس ، كما يدرك هو بالمعرفة والموهبة قيمة الفن في تاريخ الشعوب ؛ فهو ليس فحشاً ولا عهراً ، وإنما شأنه شأن فعاليات الحياة الساعية إلى ديمومتها واشراقاتها . يدرك تماماً إن هذه الظواهر المرفوضة متوفرة في الأقبية السرية غير المعلن عنها والمغطاة بسمات وإشارات لا تقبل الحوار والنقد . كان (القره غولي) وهو بيننا يتعامل معنا كأفراد أولاً ، وكمجموعة ثانياً يستظهر أذواقنا ورغباتنا في ما نُحب ، ولا يخدّش أسماعنا بالنشاز أو المرفوض ذوقياً ؛ بل يبدأ بالضرب على أوتار العود ، حتى يجمع أحاسيسنا ويهيئها في بؤرة واحدة ، مراقباً استجاباتنا بدقة ،

مطأطأً رأسه تارة ، منسجماً مع إيقاع أوتار عوده ، وفي أخرى يرفعه إلينا ، لكي لا يكون بمعزل عنّا . كيف بنا ونحن أمام هذه القامة الفنية التي تمنحنا كل ما تمتلك بجرعات متتالية . يبدأ بالجملة الأولى من الغناء ، ونحن نضمر ما يفاجئ مداركنا حد الاستفزاز في كوننا أمام مدرس يُغني ، غير أن تواصله ينسينا حتى غرفة الصف ، لاسيّما أن صوته لا يعبر نحو الصفوف الأخرى ، فهو من الهدوء ما يلزمنا على الإصغاء المركز خوف أن تفر عن أسماعنا جملة واحدة . هكذا يستمر ، ولا يثير فينا تجاوزه لمقامه كمدرس، وإنما تزداد صورته هيبة وجمالاً من سحر صوته ورقة أنامله وهي تداعب أوتار العود، بل يبقى وقاره محفوظاً بسبب غزارته ، وقدرته على استقراء ما نطلب ونُحب . طالب القره غولي فنان مؤثر عرفته من غرفة الصف ، ولم أترك صورة قامته ، فقد ألفته جاراً لنا في المحلة قرب مدرسة المنتفك في الناصرية، وناشطاً في نقابة المعلمين ومانحاً صوته ولحنه للآخرين من الفنانين . نشأ وترعرع في حاضنة فنية تمثلتها مدينة الناصرية . المدينة التي ما برحت موقعها على تخوم أرض سومر ، فهو سليل (شولكي) وغزارة فنه، ولحنه (نيدابا) وهي تصنع له من قصب الماء أول ناي نفخ في فمه ، فماج في جوفه المستقيم هواء محتبساً مُطلقاً فراشات ملونة تراقص الفضاء القريب ، مبتعدة نحو آفاق بعيدة بإيقاعاتها المتواصلة التي طرب إليها القاصي قبل الداني . لم يبرح ما كان معه ، فقد أكمل مشواره مع الجميع ، مبتهجاً متباهياً بفناني المدينة

وشعرائها . يطرب لشدو عود (كمال السيد) ويصغي ، ومن ألحانه استمد القوة والرقة ، وهو يعرف أن السيد يمتلك طاقة غير محدودة بسبب حسه الفني المبكر ، ونظرته الآنية والمستقبلية للفن، فواكبا معاً التماس مع الفنانين ، وعرفا عن كثب ما تمنحه المدينة من أصوات ، هي امتداد للرواد الذين كابدوا الكثير من الضنى والتعب لكي يمنحوا الحياة فعالية الموهبة بأصوات ترجمت حياتهم الاجتماعية والرومانسية . إنهم جميعاً سليلي سطوح المياه وهي تبعث بإيقاعاتها إلى نفوسهم فتشدو بها غناء وطرباً يكشف لوعة النفس والقلب والعقل . كان ينظر إلى تجربة (فتاح حمدان) باحترام تجسّد في اهتماماته به وبصحبه من الفرقة الموسيقية في المدينة.كان مع (حسين نعمة وستار جبار وكمال محمد) ومع كل من يضيف لتاريخ المدينة الفني من عطائه عطاء متجدداً . يصغي إلى (زامل سعيد الفتاح وكاظم الركابي) فيستلهم من كلماتهم السحر الذي كان ينتظره ، فهم جمعٌ ما فارق مجلسهم أحد ، بل يتآزر مشهدهم بأسماء وقامات فنية ، تتشوف الرقي والرفعة في ما هم عازمون على الوصول إليه .

طالب القره غولي ذاكرة محتشدة بالعطاء ، لكن بؤس الواقع من ساهم بإيقاف المواهب ، فتبعثرت وتباعدت أواصرها ، فكانت نهباً للزمان والمكان . ما استقر له حال ، لكنه أبقى هويته مستقرة على صورة وجه الفن المشرق . لم يرحل عنّا ، بل بقي بيننا ، يدخل بيننا

كما كان قد أعتاد دخول غرفة الصف ، ويجلس بين صفوفها فناناً كبيراً شجي الصوت ومرهف الإحساس . إنه امتداد لفنانين كبار تعلم من فنهم أمثال(ناصر حكيم ، داخل حسن ، حسن ناصرية) فكان أميناً لهم ، يردد أغانيهم ، ويستلهم نبرات أصواتهم وألحانهم في أغانيه وتلاحينه.

الشاعر المناضل

من أحدى زوايا رحم الحياة ؛كان نظرنا يراقب الشاعر المناضل في حيويته الثورية ، فما اكتسبنا منه سوى البحث عن المعارف التي صاغت شخصيته وطوّرتها بهذا الشكل الذي كان لنا مثلاً نقتدي به ونتذكره ، لاسيّما مواقفه المبدئية التي لم تحد عن طريقها ؛ صَعُبت الحياة أو لانت . فهو العنوان واللوحة التي يمكن وضعهما على غلاف كتاب الحياة ، ونشيد يمكن ترديده في المناسبات . يمكننا أن نتباهي بمصادر نشأتنا ؛ وهو حق لنا نحن جيل الثورة ، الذين لا يتقدمون بفعلهم الحسي الآن سوى من أجل عكس الوفاء للأسبقين ، ليقولوا للملأ .. نحن لم نترعرع سوى في حاضنة كبيرة ونقية حرصت على أن تنشئنا على الطريق الصحيح ، لا بالقسر ، وإنما بالمثـــل من الفعل والسلوك الحقيقي . لا أيد طويلة تمتد إلى المال العام،ولا نوايا سيئة تضمرها للوطن والشعب . نحن لا نمد أيدينا إلا نحو مصادر المعرفة والثقافة ، ننتشل الكتاب الذي نريد من أعلى الرفوف . لبكير من محتواه عقلنا قبل كروشنا .كنت صغيراً بجسدي ، لكني كبير

بعقلي ، فلا أشتري صحفي إلا من مكتبة (الوعي الوطني)في الناصرية، وأصحابها لا يعرفونني . ربما حسبوني ملبياً لطلب أبي أو أحد غيره . ولكني كنت مطمئناً بأني ألبي نداء نفسي التواقة للمعرفة والمشاركة ، لذا تجدني في مقدمة المظاهرات وهي تطوف شوارع المدينة وخاصة شارع الحبوبي (شارع الهوى) تحت رايات ولافتات مرفوعة بوجه الفضاءات الواسعة ، الصفوف المتراصة والحناجر الهاتفة ، فقد كانت تضج بهم ، والشوارع تمتلئ فجراً بأبنائها البررة ، ونحن نندس بين صفوف الكبار ونهتف ، ونسعى لأن تكون قاماتنا بموازاة قاماتهم ، اليوم أو بعد غد . كانت هذه بمثابة رعاية غير مباشرة لنا من لدنهم . كان الركض والجري بين صفوفهم يطول ، لأن السير يتواصل على وتيرة مستمرة ، وأنا أتنقل من هنا إلى هناك ، ربما كنت أحاول أن أعرّف نفسي لهم وخاصة (زهير الدجيلي أو كاظم شناوة) بأني أنا الذي أشتري الصحف من مكتبتكم ، ها أني أتظاهر معكم ، كانت الصحف لي وليس لسواي ، أشتريها لأقرأها وأتعلم منها . وحطة تستكين المظاهرات في نهاية المدينة ، وقرب مدرسة الشرقية تبدأ الكرنفالات تتغير ، ويأتي دور الكلمات والخطابات والجميع يُصغي ، وبين خطة وأخرى يهتف الجميع ويصفق لذكر اسم أو تاريخ . وأنا مبتهج لذلك ، وأحسب نفسي جزء منه ، أشارك الدجيلي تظاهره ، معتقداً أن قامتي بدأت تــفرع وتتسامق وسط أجواء صحيحة .

كنت أراقب كل ما يستجد ، ولم يبهرني سوى مشهدهم الذي يملئوني فخراً ، خاصة ارتفاع قامة (زهير خزعل الدجيلي) بنظارته المتميزة، وهو يُلقي شعراً يُلهب به مشاعر الجمهور ، وبمقابله كان رجال ترفع قامته على الأكتاف يعمل بمحل لكوي الملابس في وسط المدينة أسمه (فرحان) وهو نفس الرجل الذي أسس (قرية فرحان) في طرف المدينة غير المسكون ، والذي غدا لي مادة روائية تحت عنوان (الداخل والخارج) حاولت أن أسطر سيرة هذه المدينة والرجل ، بما يُتيح لي التعبير عن حقبة زمنية مرّة وقاسية في تاريخ العراق .

وتتوالى السنين ، وأعرف بعض الشيء عن الحياة والسياسة ، عرفت (سعد الدجيلي) مباشرة ، وما كانت تـــنسج عليه من قصص وحكايات تعكس شخصيته الدائرة بين الجد والسخرية الناقدة للأوضاع السياسية وعرفت والدهما وأنا أصغي لما ألقته من شعر بليغ ، ثم عرفت عنها قصصاً لا تزيد من شخصيتها إلا ألقاً مشرقاً لنموذج المرأة العراقية المناضلة ، فهي أم المناضلين بحق . زهير الدجيلي .. عذراً منك فقد تركت ذاكرتي المتواضعة تنهل من بعض تاريخك المشرق ، فأنا تلميذ صغير في صفك ، لكني بسعي منك ومني ومن الآخرين كنت الذي أنا عليه الآن في اصطفافي مع النخبة الطيبة من العراقيين الذين لا يهدرون تاريخهم هباء ، تعلمت منك البساطة والعمق والصبر . لا أدري كيف كنت أترجم ذلك بعقلي الصغير . كل الذي أعرفه أني كنت عبارة عن عجينة صلصال بيد نحات

ماهر . قد تكون أنت النحات الأول ، ولكن لست لوحدك فهناك (السيد وليد ، فؤاد مكطوف ، كاظم شناوة ، حسين السيد فليح اليعقوبي ، خالد الأمين ، طعمة مرداس ، خيري ، عبد الله ، سليم بن داود أحمر فهد ، خلف السيد علي) كثر من هم على شاكلتك في الصفاء والنقاء ، تربينا في مدرستهم وصفوفهم ورضعنا الحكمة الأزلية التي رسخت في أذهاننا أو في مستقر لا نعيه : أن نحافظ على تاريخنا ، ولا نُبدد صورته النقية لهذا السبب أو ذاك .ماذا يكتب المستذكر عن (زهير الدجيلي) شاعراً ..؟ مناضلاً ..؟ وإذا كان هذا أو ذاك ، فمن سبق من ؛ النضال أم الشعر ؟ وما أتصوره الآن ، والآن فقط ؛ إنهما ولدا معاً في جسد ووجدان إنسان عاش زمناً قصيراً في مدينته ، لكنه طويلاً قياساً إلى زمن الغربة والفناء في أرضها !! الدجيلي .. صورة تراود فتى آخر من المدينة ، ها هو يسوق وتيرة ذاكرته ، ليس ادّعاء بأنه يعرفه مباشرة ، وجهاً لوجه ، بل كان تأثيره عليه أعمق وأدل . فتح له الطريق عن بُعد بما كان يحمله من وهج متواصل السطوع . رآه بأمّ عينيه محمولاً على أكتاف الجماهير ، مستنهض ، بل مُشعلاً وجدانهم الوطني بجميل شعره ومواويله ذات النهج الثوري ، المحب للوطن والشعب . الدجيلي من عائلة مناضلة ،تتداول الثقافة كالخبز اليومي ، قريب من مكتبة (الوعي الوطني) في الناصرية مع صحبه (كاظم شناوة وصاحب حمادي) له أخ مناضل ، وكثير الحديث بين المثقفين ، وذو باع في سحر حديثه كأخيه (زهير) وأمهم المناضلة والشاعرة المرهفة .

أخوه (سعد) لا تُخفى حكايته التي انطبعت في ذاكرة الجميع ، ولكن لم يذكرها أحد يوماً . وها أنا مع التاريخ . في يوم ما ، وحصراً في عاشوراء ، حيث تقام التعازي في كل مكان من مدينة الناصرية. وكان شارع الحبوبي (الهوى سابقاً) يحتوي مجلس عزاء . وفجأة احترق كتب وسط الجميع ، وأخذ بالتخبط بين الجالسين الذين هبوا من أماكنهم ، فاضطرب المجلس . وقيل ، بل قال أحدهم وهو أب لأبناء مناضلين ... الذي جنب الكتب إلى الموكب هو (سعد الدجيلي) فهب الناس للقصاص منه ، وعادوا خائبين ، بعد أن عرفوا من أمه ؛بأن سعد مودع في دائرة الأمن منذ زمن . الرجل الذي قال ذلك ، وأغضب عزائم المعزين ، بأن هبوا غضباناً ؛ هو نفسه قد ابتكر يوماً هتافاً ضد المناضلين من أبناء شعبنا ، كان يُحمل على الأكتاف ، فيهتف (ما كو شيوعية هلبلد ما ...) فيجيبه المتظاهرون (كو) وهكذا يتردد في شارع الهوى أو سوق (ما .. كو ؛ ما ... كو) الذي تحوّل إلى شعار تناسل من حنجرة ذلك الرجل الذي أراد أن يعبّر عن حقد دفين للشعب ومناضليه (ما... توا...... ما .. توا) وفعلاً خسر الوطن أعز أبنائه في الغربة . فقد ماتوا هناك ، وترملت النساء وتيتم الأطفال بجرة قلم بائسة؟!.فمدينة الناصرية خسرت تباعاً أبناءها على أرض الغربة (الفنان فائق حسين / الفنان كاظم ساجت الخالدي/ الشاعر زهير الدجيلي / الفنان حيدر عبد الحسين ، / أحمد الجاسم ، محمد الزهيري) والقائمة تطول .

زهير الدجيلي أنموذج تعلمت منه الأجيال ، فهو معلم في صفوف كبيرة هي الشارع والمقهى والمكتبة . ولا أعتقد أن أحداً ينسى في يوم ما قصيدته (الله يا هل الوطن) والتي غناها الفنان (سعدون جابر) ولم يُذكر يومها اسم الشاعر لأنه اسم محظور ذكره . غير أن الجميع يعرف من القائل . الشاعر الذي يمرك وجدانياً حب الوطن ، فيخاطبه (الله يا هل الوطن .. شمسوي بي أحبه .. نيرانه من الثلج .. تجوي وأكول شاده) هذه بلاغة الشارع الثوري ، خواطر شاعر عاش في الغربة ، وعانى ما عانى من أجل فسحة في أرض الوطن ، ليس للسكن والاستقرار هذه المرة ، بل لامتلاكه بضع أشبار تحتوي جسده ، قبراً تأتيه الطيور والعصافير ، كي تردد قصائده الخالدات ترقص وتغني فوق فضائه . لا تقرأ الفاتحة على قبره سوى الطيور التي تغني بها ؛ فسحة قرب قبر زميله (مجيد جاسم الخيون) كي يتزاوروا في الليالي المقمرة ، يستذكران شعرهما ، وشعر مجايليهما ...، الله يا هذا الوطن ؛ تبخل على أبنائك بتلك المساحة ، وأرضك ممتدة بوراً لا زراعة فيها يعبث بها المارقون ، وذوي الشهوات لجمع المال السحت ، هؤلاء بلا ذاكرة . ما زلنا نتذكرك مع صحبك (عزيز السيد جاسم ، سعد الدجيلي ، كاظم شناوة ، شاكر شناوة ، حميد غني ، خالد غني ، حسين السيد فليح ، خالد الأمين ، علي مطرود ، سعدي مطرود) وغيرهم . كنت أراك شعلة نار تسير على قدمين ، فعرفت سر ومعنى النضال من أجل حياة الشعب ومستقبله ؛ تسيرون بين الجمهور ، تقلبون

صفحات الشوارع (النيل ، الهوى) حتى تستقرون في شارع (عشرين) وفي مركز فيه (فلكة) كما يسمّيها ، الجميع وأنتم على هياج ، يرفعك أحدهم ، فتظهر قامتك ، ورأسك الوافر الشعر ذي التجعدات، ونظاراتك ذات العدسات السميكة ، ترفع يديك ، وينبري صوتك بأعذب الأشعار وأكثرها قوة في التأثير على الجماهير . لا أدري الآن .. هل كنت تحفظ تلك القصائد وتلقيها ؟ أم كنت ترتجل الشعر جرّاء حماس الجماهير ؟ إني أشك على أي القراءة أستقر . غير أني متأكد أن الأجواء تلك تستحضر الشعر لا محالة . فأنت القادر على مثل هذه الميدان من فنون الشعر . كيف لا وأنت كصحبك من الشعراء ابتداء من (أبو معيشي والحاج زاير) وصولاً إلى (زامل سعيد فتاح وكاظم الركابي) كنت وما زلت في ذاكرة محبيك في المدينة المضيء القائمة . فإذا نساك الوطن ، فقلوبنا وذاكراتنا مأواك ومثواك الأخير ، فنم مطمئناً ، وإن غفل عنك الشعب يوماً ،فأن أغنية (الله يا هل الوطن ..) سوف تُعيد حالة البحث عن قائل هذا الشعر المغنى والوافر الوطنية(الله يا هل الوطن شمسوي بي احنا / نيرانه مثل الثلج / أرجف وأكون انشاد / ولـــي يضيّع وطن وين الوطن يلكاه ؟ / اللي مضيّع ذهب سوك الذهب يلكاه / واللي مضيّع وطن وين الوطن يلكّاه ؟) .

وعذراً أني لم أصفف أبيات القصيدة بشكلها الحقيقي ؛ لكني سأصفف مشاعري بما يُليق بشخصكم .. يا صاحب أول درس تعلمته في السياسة والشعر وبناء الشخصية . بوركت أيها المعلم الأول .

فتى الماء والبردي والطير

كان للتحولات الاجتماعية والاقتصادية تأثير واضح على توجهات السرد في بداية سبعينيات القرن الماضي . لكنها بطبيعة الحال اختلف تأثيرها كما هو واضح في ما تجسد داخل نصوص القصاصين . ذلك بسبب ما رافق تلك التحولات وما سبقها من تغيّر في بنية المجتمعات العربية ، بتأثير الهزات العسكرية ، لاسيّما حرب حزيران . غير أن حرب تشرين أعادت للإنسان توازنه جرّاء تلك الهزة النوعية التي حققت وعياً جديداً ، تعلق في زرع الثقة في النفس العربية بالرغم من الخيبة التي حصدها الوجدان العربي جرّاء وقف اطلاق النار ، مما دفع إلى إعادة النظر في الذات . هذا الحراك التاريخي يحيلنا إلى ما كانت عليه الثقافة بعامة والأدب بخاصة من تلقي مثل هذه الهزات وتأثيرها المباشر ، لأنها من مشغوليات الذهن العربي آنذاك ، حيث كان تأثير ذلك كرد فعل ظهر جرّاءه أدب قصصي عراقي

له من المداومة يُشير إلى مثل هذا التأثر . فهو أدب يعالج متغيرات البيئة والواقع العراقي بروح نقدية من خلال عكس المتغيرات المرافقة على البنية الاقتصادية والسياسية . ولعل بيئة الريف هي ما حظي بمثل هذا الاهتمام من لدن القصاصين . لاسيما بيئة الأهوار وما كانت تحتويه من حيوات صالحة لأن تعكس دلالاتها معبّرة عن الواقع . ومن القصاصين الذين كتبوا نتاجاً قصصياً في هذا المضمار هم (فهد الأسدي ، حميد ناصر جيلاوي ، جاسم عاصي ، اسماعيل سكران ، محسن الخفاجي ، عبد الجليل المياح ، عبد الأمير الخبيب ، شوقي كريم ، غافل النطري) وغيرهم . غير أن القاص (فهد الأسدي) كان من الرواد في هذا المضمار . فهو من ضمن كتّـاب الستينيات الذي اجترح له ملاذاً تعبيرياً ينحو لاستقلالية خطه وتوجهه في الكتابة القصصية . فهو ستيني مختلف عن أبناء مرحلته ، فقط كان يجايلهم في ما يستخدمه من بنية وتقنية جديدة في الكتابة ، لكن له همومه الخاصة ، وولعه بنماذج من الشخصيات كان قد عاش معها في أهوار الجنوب حيث مسقط رأسه ونشأته . وقد تجسد ذلك في معظم قصصه المنشورة في مرحلة الستينيات ، وضمت بعضها مجموعته البكر (عدن مضاع) .

إن القاص (الأسدي) يتعامل مع نماذجه بعفوية فنية خالصة ، مما وضعها مثل هذا التعبير – السهل الممتنع – ضمن دائرة الرمز أو محمولات الظاهر والباطن . فهو يعرضها على صورتها الواقعية ، ثم يربك حركتها

ووجودها بنمط التهويل اللفظي ، والتعبير الصاعد على وجودها الواقعي . كما وأنه يُطلق طاقاتها التعبيرية إزاء واقع محتشد بالأخطاء بروح التمرد الفطري ، مما أكسبها نمطاً من التعبير عن وجودها . فالمعاني التي تطرحها القصص وما تولده من دلالات ضمن البناء الفني الذي صاغ من خلاله أجواء نصوصه ، وهي السمة التي ميّزت قصصه من بين مجايليه ، ذلك لأسباب منها على سبيل المثال : واقعية القصة ومستواها الموضوعي والفني، ثم ما يخص أنماط التناول المنطوية على ـــــ السهل الممتنع ـــــ أسلوباً ولغة ، ومستوى الخبرة المكتنزة التي تكشف عنها النصوص، ثم الإحساس بتأثيرات المكان المائي، والمعرفة الحسية بخصائصه ، وليس معرفته طوبوغرافياً. هذه المرتكزات قد تبدو ذات صبغة واقعية في متابعة ما يحيط بالنماذج من تأثيرات ، وما يحدث على الأشياء من متغيرات ، غير أنها تقود إلى ما وراء مثل هذا النمط من الكتابة ، التي ترمي إلى مقاصد فكرية – سياسية اجتماعية – دون أن يكون لذلك صوت معلن .

فالمكان مثلاً يعمل على تشكيل وعي الشخصية عبر المعاناة الذي تمر بها ضمن صراعها مع الواقع ، وهذا الوعي الذي يرقى إلى منطقة الوعي المكتسب ، أي المعرفي ، يحافظ على فطريته وعمقه في آن واحد . صحيح أن القاص يتعامل مع البيئة والمكان بإحساس من وعى المدن وإشكالاتها التي شكلت عامل تعطيل للاسترجاع وإدراك سمات المكان السابق وخفاياه المؤثرة ، بحيث خلقت نوعاً من التراكم الحاجز لظاهرة الاستعادة ، لكن

ما تؤكده القصص هو الإدراك ووعي خصائص المكان عبر الصور المضمرة في الوعي الباطن ـــــ على حد قول باشلار ـــــ أي أن الذاكرة تزخر بمحمولات تـُـجدد صورة المكان من خلال حراكه وضمن حراك منظومة الإنسان في تعامله مع الأمكنة ، ومن منطلق فلسفي في أحايين كثيرة ، ووفق ما أكده (غولدمان) بهذا الشأن متطرقاً إلى الصور الواقعية التي تضفي على سماته . أي جدّة التعبير ودقته بنيوياً ، وتأشير علاماته الدالة . وهذا راجع إلى المحمول النفسي المترحّل من عالم الطفولة والذي يلعب دوراً أساسياً في عملية الاسترجاع والخلق الجديد . إن ما يخضع له القاص في إجراءاته عن المكان ، ليس المشاهدة البصرية ، أو الانطباع النابع من المتابعة المباشرة فقط ، وإنما استدراج وعكس اللاشعور في وصفه وإقامة علاقة نصية مع تفاصيله . أي استمالة الذاكرة إلى خزين الطفولة . وهي ذاكرة متشكلة بالأساس عبر التراكم المعرفي ، تستمد معلوماتها وانطباعاتها من الذاكرة الجمعية . فــعالم(الأسدي) لا يفضي بذلك من خلال موقف فردي وجودي – وإن بدا ذلك ظاهرياً – بل يحاول توسيع دائرة التعبير نحو مستوى جمعي . بمعنى نقل النظرة العامّة من خلال النظرة الخاصّة . وهي بذلك تتحلى بالموضوعي والفكري . وهذا مؤسس بسند جمالي . إذ أن للقاص تميّز خاص ونكهة في صياغة بنية قصصه أسلوباً ولغة . وهي تتجلى في وتيرة ومنهج أسسته القصص مجتمعة على مدى مسيرة القاص ، وهي طروحات مبكرة سبقت مثيلها من لدن مجموعة من القصاصين

العراقيين الذي كانت بيئة الأهوار فضاء لنصوصهم مع تباين وجهات النظر وتشكيل بنية المكان وحركة الحيوات فيه .

إن مثل هذا التأسيس ، لم يكن من بنات تقليد الأنماط السائدة ؛ بقدر ما هو متشكّل من خلال حركة الواقع ووعي القاص له . حيث تتجمع مفرداته في النص عبر رؤيته لهذا الواقع ، والمتجمعة في الرؤى النقدية لظواهره . ذلك كون الراوي العليم في القصص ؛ سواء شـــكّل على نمط ذاتي أو موضوعي ؛ فهو مشارك في فعل النص ومجسِّد لأحاسيس نماذجه . أي يساهم في دفع عجلة السرد عبر منظور فكري - جمالي . وهي - كما ذكرنا - ليست انتقادية بسبب من تلك المشاركة والاقتراب الإنساني من النموذج بقدر ما تمتلك نظرة استثنائية لحركة المجتمع في المكان . بمعنى إطلاق فعل الفرد عبر فعل الجماعة . والعكس وارد ، وإن كان مثل هذا المتشكّل الرؤيوي ، والموقف الفكري ، ينطوي على حالة من المعالجة الخاصة التي تطرح الحاد والمتشابك من الأفعال لحالات إنسانية في أمكنة فريدة مثل(المصحات ، معهد تأهيل المكفوفين) وهي تداولات ذات خصوصية نقدية ، وعرض مفجع لتأكيد جانب إنساني مضطهد .

إن ما وقع على نماذج (الأسدي) من اضطهاد وحيف فئوي وطبقي في مجموعاته (عدن مضاع ؛ طيور السماء ؛ معمّرة علي ؛ الصليب .. حلب بن غريبة) هو ليس اضطهاداً سياسياً مباشراً ؛ بقدر ما هو نوع من المحاصرة من قبل المصادر المجهولة . بمعنى تحكّمت في هذه سلطة منتـــجة

من السلطة السياسية . وإن اتضحت حالاتها في (الجنون ، العمى ، الفيضان ، توظيف الرموز الواقعية كإيشان حنيظ) وغيرها ، لكنها محاصرة ترقى إلى الضغط الوجودي المحفوف بأسباب واقعية ، ضمن سياق اجتماعي واقتصادي مكابر . وأرجو أن لا يقود هذا إلى تفسير كون القاص ينطوي بجهده على مباشرة وتضمين قسري . فجمالية النص وجدليته ما يحكم حركته ونسقه ويجدد من حراك نماذجه وحيويتهم التلقائية ، و ما يمكن ان يؤسس عليه من دلالات؛ هو الحفر في الممكن لمعرفة ما ينطوي عليه من قصد . لأن القصص جميعاً عبارة عن عرض للحالات الإنسانية . أما جدلية الأشياء ووجودها وعلاقاتها ومسبباتها ، فهي تأويلات يمتلك حقها القارئ فقط وهو ما نلاحظه في القصص التي انطوت على جدلية الواقع وصراعاته المستندة إلى بنيات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، معبّر عنها بشكل غير مباشر ، أي هي حاصل تحصيل للحراك العام . هذا من جهة ومن الجهة الأخرى ، فنعني بذلك أيضاً متعلقات المكان وتأثيراته . فالقاص في تعامله مع البيئة تحديداً يفعّل عناصر المكان من خلال تفعيل التجاوب السلوكي مع المتغيرات والصعوبات والعقبات التي تواجه الإنسان . فهو يدفع النص نحو تأسيس صورة سحرية للمكان بمحدودية واضحة . غير أن له مفرداته مثل هذا الفعل السردي في قصص مثل (الكارخ ، معمرة علي ، طيور السماء ، المعجزة) . كذلك منح الأجواء القصصية نكهة القراءة في الكشف عن دواخل النموذج . ونقصد

به ما يحيط بالنماذج من خصائص مؤثرة للمكان وتعلقهم به ؛ بمعنى تعلق الشخصية بالمكان من باب السبب والنتيجة . أي أن وجوده محكوم بالعلة والمعلول عبر العلاقات المستديمة مع البيئة كما في قصص (النشور ، الظمأ) هذه الخصوصية متأتية من طريقة التعامل التلقائي المحدد بوعي فطري للراوي العليم سواء كان ذاتياً أو موضوعياً . وبذلك استطاعت القصص أن تستكمل أدواتها ووظائفها الموضوعية . خاصة في طرح الاستثنائي من الظواهر . والتعامل مع بيئة فريدة ، هي بيئة الأهوار . يُضاف إليها ذلك السياق في استخدام الحس الشعبي . أي نظرة النماذج البسيطة في تلك البيئة للواقع المعاش ، وعكس مثل هذه المفردات عبر صورة الإحساس بفعل التوازن والارتقاء بما هو شعبي ــــ حكائي ، ثم التوفر على سياق ينطوي على بلاغة شعبية في طرح المفاهيم . وهذا ما يميّز الإنسان في تلك البيئة في كونه يعي ما حوله ، معبراً عنه بما يمتلكه من أدوات تعبير شعبية بليغة . إذ نلاحظ أن قصة (التشبيه) مثلاً قد قررت مسارها الموضوعي ضمن كشف ما خفي في مثل هذه الأمكنة (معهد التأهيل للمكفوفين) إلا أن القاص حاول تجاوز ذلك باتجاه حالات فكرية فلسفية . أي طرح فكرة الاحباط ، وذلك لاختياره مجموعة من العميان يتوسط بينهم مبصر ادّعى العمى . وهي عملية حددت بالتجربة ضياع الابصار . بمعنى غدت المعادلة (أعمى + مبصر – مكفوف) وهو نوع من جدل العلاقة بين الرائي وغير الرائي . وباعتقادنا أنه جدل يفضي إلى

صراع يكشف ما خفيَ في بنية العلاقة بين المكفوفين مع بعضهم . أو علاقة المكفوفين مع المكفوفات . بل تعداه إلى علاقات كل الهؤلاء مع بعضهم ، حيث اختلط الإبصار بالعمى . وهو سياق فكري جدلي آخر . وبذلك عبّر بالدال عن مدلولات اكثر غنى . وهذا ما نجح به القاص ، في التعبير عن الإبصار أو عدمه ،واختلاط الألوان . وهو جدل الإدراك أو عدمه ، فهو يوحي باضطراب الواقع الناتج من اضطراب أسسه الموضوعية .

وحين استخدم القاص بنية المقاطع ذات العنوانات الفرعية ، كانت بمثابة دالة على إحياء السرد في طرح المفاهيم . فإذا طرح الأجداد والآباء مفاهيمهم ، فأن الأبناء ذكروا طروحاتهم عبر سؤال (أيها الجد ، هل نحيا لنصير ، أم نصير لنحيا ؟) وبهذا السؤال يتحقق جدل وصراع أكثر حدة في اتخاذ النهج للمقاومة الذي يتحقق من خلال (عبيد السيد) الذي طرح مفاهيمه التي حققت النتائج الدالة على جدل وصراع دام طويلاً . في ما تتحقق مفردات الصراع بين الواقع والإنسان عبر ساعي البريد في مساحات الأهوار وكشف الانطباع الأكثر بلاغة عن المكان وحدة العلاقة مع الواقع من جهة . ومن علاقة ساعي البريد بعمله وبطريقة أدائه من جهة أخرى . وقد اتخذت القصة من الماء معبراً لمثل هذا المفهوم . وبذلك تحقق للمصدر المائي دلالته المكانية في العبور والامتداد والحسم . والقصة تقترب من قصة (الكارثة) في موضوعة الصراع . لكنها تختلف عنها في بنية النموذج – الإنسان – مراقب منسوب الماء (الكارثة) الذي يتخذ من فهمه للأشياء

سبيلاً لما يجري . وهو موقف انتقادي واضح من خلال ما كشفه الكارخ لانقياده الروحي إلى الرقم خمسة .

إن قصص (فهد الأسدي) عبّرت عن معانيها من خلال أنساق فنية موازية لمنطق موضوعاتها . وطرحت أفكارها بشكل متوازن لاسيّما بخصوص طروحاتها الفكرية النقدية . متخذة من الواقع وبلاغته نسقاً دالاً على مثل هذه المفاهيم ، حيث جسّدت صراع الإنسان مع الطبيعة ، ومع عوامل القمع والقهر الأخرى . وهي أقرب إلى صراعات أبطال (همنغواي) إزاء الواقع ودلالاته الفلسفية .

- في الكتابة عن إنسان كبير مثل(فهد الأسدي) تتسع الرؤى باتجاه نصه الذي تميّز، ومثّل شخصيته على أصعدة (التعليم والقضاء). فطموحه لم يقف عند حد ، فالمثابرة طريقه في الوجود . من هذا ارتأينا أن يكون جهده الإبداعي مركز استعادتنا لرمز من رموز المدينة.

رواد المسرح في الناصرية

في الناصرية رسخت حركة المسرح على جهد فنانين كانت لهم قدرة على التواصل والتجديد واستقبال المعرفة . وكان لاجتماعهم هنا أو هناك، عبر المسرح المدرسي ، ومسارح المنظمات المهنية كنقابة المعلمين والعمال والطلبة ، وبقية المؤسسات التي احتضنت نتاج وأعمال الفنانين ، وهيأت لهم كل ما يحتاجون من عوامل الارتقاء بأعمالهم . كما وأن الفنانين كانت لهم تقاليد تمتد على أشهر السنة ، بحيث لا يخلو شهر من عرض مسرحي . ونحن إذ نتناول ذلك ، ليس من باب التاريخ أو البحث في تطورات هذا الفن ، ممثليه وكتابه ومخرجيه .، وإنما نحاول تحريك محتوى الصورة ، التي هي بدورها احتفظت بوجود فاعل لفنانين أكثر فعالية وتأثيراً في واقع حركة المسرح في المحافظة . وبهذا تكون الصورة لسان التاريخ ؛ تنطق حين تقلّب صفحاتها ، ويتأمل المرء

محتوياتها . وفي هذه الصورة التي هي بمثابة سجّل لتاريخهم المختزأ ، لكنه العاكس لفعلهم في الحياة الثقافية والفنية حصراً أيام زمان :

الأول على اليمين الفنان (حسين نعمة) الذي انتشرت سيرته الفنية حتى عبرت حدود الوطن . لكن الصورة تنظر إليه ، على أنه الفتى الذي كان يشكل موقعاً في موكبنا الشبابي قرب ديوان الشيخ عباس : فهو الرادود الذي يُلهب حماس من ثكلة استشهاد الإمام الحسين (ع) فتى توزعت مواهبه منذ نعومة أظفاره ، واحتل قلوب أصحابه من الفتيان مثل (فائق حسين ، علي ومهودي أولاد عبد الأمير الشكرجي ، مجيد أبن حميد الكبيجي ، يقظان إبراهيم الدرويش) وغيرهم كانت ألفتنا تمتد حتى تصل إلى بيته ، حيث تستقبلنا والدته الطيبة بما كانت تجود به السوق المجاورة لسكننا من فواكه وتمر ولبن. لا يستقر لنا حال في اقتحام البساتين وارتياد دور السينما(البطحاء ، الأندلس ، الفرات) كانت حيويته قد أدخلته إلى عالم الفن غناء ومسرحاً كان يُجيد تقليد الأصوات لمطربي الريف مثل (ناصر حكيم ، داخل حسن ، حسن ناصرية ، جبار أونيسه) وكان المسرح المدرسي يحفل بإبداعاته في أداء دور رجل الريف الذي يتقن اللهجة الشعبية : مشحون بطرافة الأداء والنقد التهكمي .

الثاني هو الفنان والكاتب المسرحي (مهدي السماوي) فنان وكاتب دؤوب : يُجهد نفسه في إعداد نصه المسرحي ، ومحاورة الفنانين

في ما يكتب ، ويتواصل في الكتابة ، حتى يكاشف أقرانه بانتهاء الكتابة . فيعمل الفريق الفني في الإعداد للتدريب ابتداء من استنساخ النص بعد قراءته كاملاً ومناقشته . وكان الكاتب يتقبل الملاحظات . بعدها يبدأ في التدريب ، ويحرص على دعوة بقية الفنانين في المحافظة ومريدي فن المسرح للحضور للاطلاع على كل جُهد يُبذل لاستكمال العمل . ويحرص على دعوة أحد الفنانين لحضور يوم العرض الأول . هذا هو السماوي فناناً كبيراً ، كتب العديد من المسرحيات منها (الظاهرة ، حصان محترق الأطراف ، الرأس ، حاذورا بعد القرن ....) إضافة إلى المسرحيات ذات الفصل والفصلين والتي نشرها في كبريات المجلات آنذاك ، كذلك كتب القصة القصيرة ونشر منها العديد في الصحف . عمل معلماً في المدرسة الشرقية الابتدائية وقدم من خلال مسرحها العديد من الفعاليات في المناسبات الوطنية والدينية . وكان نشطاً أثناء فترة التفتيش الصباحي ، خاصة يوم الخميس ، حيث يشرف على ما يعدّه تلاميذ كل مرحلة من فعاليات .

الرابع (الفنان حميد كاظم البناء) ممثل بارع ، شغل دوره بكل حيوية، وهو يتمثل أكبر الفنانين العرب والأجانب ، يتقن حرفته ولا يتعب المخرج حين يعطيه الدور . طويل القامة ذي بنية رياضية ، وفعلاً كان يمارس تمارين الأجسام في نادي الفتيان . شخصية حادّة المزاج ، لكنه يخفي في داخله قلباً نابضاً بالمحبة والود للجميع. لا يشغله سوى

المسرح . يبحث عن أدواره عند المخرجين والكتّاب ، وينشط في فعاليات المنظمات الجماهيرية كالنقابات والجمعيات الفلاحية . كان يتقن دور رجل الريف كحسين نعمة ، لكنه تلبس بشخصية الإقطاعي والسركال وتوابع الشيخ في العشيرة متمثلاً دور الشخصية الأهم من بين حاشيته.

أما الرابع ؛ فهو الفنان (حميد عبد الله) الذي لا يختلف عن زميله (حميد كاظم) لكنه تميّز بأداء دور النموذج الساخر والناقد لما يجري في الواقع . أكمل دراسته الأكاديمية وتخصص في الإنارة . وحين كان يتحدث عن فنه ، يعمد بثقة على وضعه موضع الكتابة والإخراج من حيث الأهمية . ففن الإنارة تطور كما كان يقول ، وأصبح لغة أخرى تستكمل لغات النص ابتداء بكتابة النص ، ومروراً بالتمثيل . فمفردات الإنارة تتعدد بتعدد الألوان في الإضاءة ، بحيث تغدو أبجدية أخرى تعكس محتوى النص المسرحي . فهي لغة خطاب مستقلة في ذاتها ، ومندمجة مع الكُل . لذا وجدناه متحمساً لفنه ، مبدعاً في تطبيقاته على خشبة المسرح . فالرائي إلى حركة الشخصيات ، ودرجة تأزمهم وانبساطهم ، تعمل إنارته للإفصاح عن المسكوت عنه وغير المنطوق على الخشبة ، مشاركاً الموسيقى بموسيقى أخرى ؛ هي موسيقى الألوان (الإضاءة) بأطيافها المتداخلة .

أما الخامس في الصور؛ فهو الفنان الكبير (فاضل خليل) في عز شبابه . فقد رافق والده (مدير شرطة المحافظة) وكان ميله للمسرح واضحاً . كان يعرف معظم الفنانين في المحافظة ، فهو ما أن استقرت عائلته، والتحق بالمدرسة ، حتى استقر مع المسرحيين من أمثال (السماوي ، عزيز عبد الصاحب ، محسن العزاوي ، حسن عبد الرزاق ، يقظان إبراهيم، وملا الجاسم ، فلاح حسن الجيلاوي، فوزية حسن) وغيرهم . جمعته بهم الألفة الفنية ، والهدف الأسمى المجسّد في وضع الفن في خدمة الشعب والوطن . أثر في من رافقهم ، وتأثر بخصائصهم ، بسبب شخصيته المرنة والبسيطة ولا أقول المتواضعة ، فهو كبير على هذه المفردة . كان يحس أنه من بين الناس عامّة ، ومن بين المسرحيين . لم تشغله وظيفة والده ومركزه الاجتماعي ، فقد أضافت له بساطة على بساطة ، ودأباً على دأب من أجل إغناء حركة المسرح . واستمر في زيارته للمدينة بعد أن نُقل والده إلى محافظة أخرى ، حرصاً منه على مشاهدة العروض . لقد حفلت الحركة المسرحية في المحافظة ، ليس على جُهد أبنائها ، بل كان الفنانون الكبار يحضرون العروض ، وأتذكر منهم الفنان الراحل (عزي كرومي) إنها شلة طيبة من المسرحيين احتفظت بهم الصورة الفوتوغرافية ، لتؤدي دورها التاريخي الثقافي كبقية الأجناس في الفن والكتابة . ، حركة المسرح في المدينة ولادة ، إذ يمنح المسرح أبناء جدد ، يعمل المخرجون على استيعاب مواهبهم المبكرة خلال المسرح

المدرسي ، ونشاط المركز في احتفالات القطر في المشاركة بأوبريت أو مسرحية جديدة ، يتم انجازها على مواهب الرواد والشباب . إنهم مدرسة تُخرّج الأجيال الفنية ، فقامات الممثلين أمثال (رزاق عبد سكر) قادرة على انتاج وولادة أبناء بررة له . كذلك جهود الفنان الرائد(يقظان إبراهيم الدرويش) الذي شغل النشاط المسرحي ردحاً من الزمن . إنهم جميعاً يعشقون الفن المسرحي ، لذا فقد طال مكوثهم على خشبة المسرح أكثر من بقائهم في منازلهم .

الملا أحمد
وحكاية الصابونة والغراب

لعل من طرائف الانتساب إلى الملالي والكتاتيب أيام زمان ، هي المفارقات التي تحدث داخل تكية الملة . والملا أحمد ، له تكية في بداية خمسينيات القرن الماضي . وما زلنا نتذكرها هي عبارة عن باحة بيت تتوسط مساحتها نخلة فارعة الطول، وطارمة يجلس تحت سقفها العالي الصبيان لقراءة أجزاء القرآن وحفظها. كانت قامة الملا الفارعة بدشداشته أو صايته الزرقاء دائماً ، ووجهه الصارم الأبيض ، الذي لا يتناسب مع عينيه الزرقاوين . باحة الدار واسعة ، تتوسطها نخلة فارعة متينة الجذع ، تعطي ثمراً كثيراً من الرطب . في الاستراحة نسارع إلى جمع ما أسقطته الريح ، أو حركة الطيور ، وهي تحط على الأعذاق . كان يتخذ من أحد الغرف مكاناً للعقوبات ، تحتوي على الفلقة والعصي الخيزران ، والفلقة عبارة عن قطعة خشب مربوطة بحبلين متدليين من السقف ، تربط قدما المعاقب بالحبل على الخشبة ، ثم ترفع الساقين قليلاً بواسطة عقدة ،حتى

ينحني الظهر ، مستنداً على نهاية ظهره ، وتعمل العصا ضرباً مبرحاً حد يحيل باطن القدمين إلى الورم والاحمرار أو التقرّح، نسمعه ونحن نردد سور القرآن بأصوات عالية تمتزج مع صراخه واستغاثته . وويل مَن يذهب إليه بعد العقوبة ، فقد يلحق به الضرب مثله .

الملا أحمد شديد بالرغم من وسامته ، يتجول بيننا حاملاً العصا الخيزران ، يراقبنا واحداً تلو الآخر، ويقف عند أحدهم صدفة ويطلب منه قراءة الصفحة في جزء المصحف ، أو أنه يجلس على كرسي من الخشب ، يولي ظهره لباحة الدار. وحين يذهب للتسوق ، يترك أحد الصبية بديلاً عنه ، كان قد دربه وزرع في نفسه القسوة ، فهو يتمثل طباعه ، ويخترق ملاحظاته على هذا أو ذاك ، ما أن يحضر الملا حتى يخبره بكل ما حدث . وكنا نكرهه ، ونتربص له خارج الجامع ، ويفرح كثيراً حين يعاقب أحدنا . لكن حكاية الصابونة والعرب ، تشكل الأهم في حياتنا في التكية، فالملا أحمد ما أن يشير إلى أحد الصبية ، أن يسارع لإحضار إبريق الماء، فنحن نعرف حاجاته من إشاراته الصارمة . وبعد أن يقضي حاجته ، يجلس على حوض الماء منظفاً كفيه برغوة الصابونة التي يلتقطها من على قطعة المعدن التي ثبتها بمسمار على جذع النخلة . فعلى الصبي الذي يرافقه في حمل الإبريق ، وإيصاله إلى المرافق ، ثم عائداً به إلى حوض الماء ، أن يراقب لحظة انتهاء الملا من غسل كفيه ، فيحمل الصابونة ليضعها في المكان المخصص لها داخل غرفته . غير أن صبي من الصبيان قد يسهى عن

ذلك وما أكثر حالات السهو ، فيسارع للإنضمام إلى صف الصبية ، فينقض الغراب الذي يعتلي سعف النخلة على الصابونة ، ملتقطاً إياها بمنقاره، محلقاً بعيداً ، وما أن يعرف الملا بذلك ، حتى يأمر بحمل الصبي إلى غرفة الفلقة لنيل العقاب الصارم ، إذ لا نسمع سوى صراخه وطلب الرحمة ، فلا يتحرك قلب الملا إلى استغاثته . غير أن السؤال الذ كان يشغلني وأنا في تكية الملا وإلى الآن ، أين يذهب الغراب بقطعة الصابون ؟ وقد تتعدد الأخطاء في اليوم الواحد ، فيكون نصيب الغراب من الصابون لا بأس به . كانت أمنيتي أن أحلق ملاحقاً الغراب ، لمعرفة المكان الذي يذهب إليه لخزن قطع الصابون ، هل يأكلها ؟ وإذا كان العكس ، فكم عدد القطع التي يجمعها من بعد مراقبته الدقيقة إلى ما يقع فيه الصبية في عدم حمل الصابونة ومعاكسة أمر الملا ؟

الملا حلبوص

وللملا حلبوص حكايته ، وأول تلك الحكايات : هو الخوف المبكر منه ومن صورته المتخيلة والتي شاعت بين الصبية ، فآباءهم وأمهاتهم يهددونهم في حالة عصيان أوامرهم ، بأن يُلحقوهم بتكية الملا حلبوص قاسي الصيت في المدينة . وحين تلاحظه وترى خيزرانته المعكوفة تحجم رقبة الصبي ، تدرك المبرر لهذا الخوف . يضاف إلى ذلك عوقه ، فهو لا يستطيع النهوض والتجوال بين الصبية ، غير أن عصاه الطويلة تنوب عنه . فهو ما أن يرغب في معاقبة صبي من الصبيان تلكأ في القراءة ، أو أتى بتصرف يثير في الصف الضحك ، حتى تجده فجأة يمد عصاه باتجاه الصبي محكماً دورانها على رقبته ، ساحباً إياه بسرعة نحو مجلسه ، دون أن يترك لديه الفرصة لانتزاع دوران الخيزرانة المحكم والهروب خارج البيت ، بل يستجيب سائراً بين صفوف الصبية ، متلكئاً .وما أن يصل إليه ، حتى يسارع صبيّان عيّنهما لمثل هذا الأمر ، رافعين سيقانه ، أو ممسكين به محنيّ الظهر فينهال على رجليّ قدميه أو ليونة عجيزته ضرباً لا يطاق . كان

قاسياً ولا تنبت في قلبه ذرة من الرحمة ، يلتقط من طعام الصبية ما يتيسر ، إلى حوزته . صارماً بمبالغة واضحة .

كل صبي منـــا في الكتاتيب الأخرى ، ينذره والده أو يهدده إذا ما لم يواظب عند الملا ، فسوف يذهب به إلى الملا حلبوص ، فنرتجف خوفاً ورعباً عند سماعنا باسمه وأخباره . فكيف بي وقد نصب لنا القدر شباكه ودفعنا لزيارة مكتبه . إذ كان أخي الكبير لا يواظب على تكية الملا أحمد ، وقد اكتشف أبي ذلك مؤخراً دون أن أعلمه أنا بغيابه . وفي عصر أحد الأيام جاءنا أخي إلى المقهى ، وكنت أرافق والدي ، فسأله : هل خرجتم جميعاً من التكية ؟ قال : نعم . غير أن أبي ساوره الشك ، فاقتاده إلى المسجد وهو قريب من المقهى . وما أن دخلنا في الرواق حتى سمعنا أصوات الصبية وهم يرددون آيات من سور القرآن ، فنظر والدي بغضب إلى أخي . ولحظة مشاهدة الملا أحمد أبي وبرفقته أخي ، حتى أبدى تذمره وسؤاله عن غيابه كل تلك المدة . وبعد أخذ ورد بين أبي والملا ، أمر الملا الصبية بمرافقة أخي إلى غرفة الفلقة ، وكنت أسمع صراخه واستغاثته التي ما أثارت قلب أبي ، فرحت أتلصص من خلال الباب الموارب ، فشاهدته معلَّـــقاً بالخشبة ، كاشفاً عن سيقانه وملابسه الداخلية التي انطبعت عليها ملوحة مياه النهر . وإزاء ذلك قرر عقوبته أكثر ، في الذهاب به إلى الملا حلبوص . وكان ذلك . كنت أرافقهما إليه . كان يسكن في أزقة محلة السيف في مدينة الناصرية ، وجدناه يتخذ من عتبة داره مكتباً له ، رحب

بنا بصرامة ، وأبدى استعداده لتسجيل أخي . وقد وجدت بأم عينيّ احمرار عينا الملا حلبوص ، ووجهه الصارم القاسي ، أما أخي فقد بدا مصفر الوجه ، لا يفقه شيئاً . ولم أره يذهب إلى تكيته قط ، بل لازم النهر للسباحة ، واتخذ من أغصان إحدى الأشجار المعمّرة والقريبة من النهر عشاً هيأه كي ينام على فراشه المصنوع من أوراق الأشجار والأغصان الرقيقة الليّنة . ينهي وقت الظهيرة في قيلولة نوم تُريح خلاله جسده ، ويُبعد آثار الخوض في النهر. وعند حلول العصر يستيقظ من غفوته مترعاً بالنوم المريح ، بعيداً عن ملا حلبوص ، وحتى الملا أحمد ، عائداً إلى البيت . مبتعداً عما شاهده من صرامة الملا الذي يضمر حقداً وقسوة ...!!!؟

الملا جاسم ..
الأبوة الفائضة

حين تذهب إلى تكية الملا جاسم ، فما عليك إلا أن تجتاز السوق ما بعد شارع الهوى في مدينة الناصرية ، ثم تدخل سوق الخياطين ، بعد محل الحاج (حسن الخياط) انحن يساراً ، سينفتح أمامك سوق عريض ، مرصوف بالدكاكين ،تتناغم في فضائه حركة عجلات مكائن الخياطة . وعند نهاية السوق العريض ، اقصد زاويته اليمنى ، سيواجهك باب ضخم ، مفتوح . أدخله ، وعند الزاوية اليمنى أيضاً ستجد الصبية متراصّين تحت الطارمة ، يرددون قراءة الآيات ، محرّكين رؤوسهم ، كما لو أنهم عصافير أو فراخ دجاج يلتقطون الحب بأناة واطمئنان. وترى الملا جاسم يجلس هادئاً ببشرته السمراء الداكنة ، ضعيفاً منموماً على نفسه ، كأنه المهاتما غاندي . لا يحمل عصا ، بل يراقب بعينيه الفاترتين .وحين يجيد الصبي القراءة ، يأخذه بين أحضانه ويقبله ، ويشبعه حناناً وأبوة .

الخان الذي يتخذ منه زاوية لتكيته : كبير وواسع ، تنتشر على جوانبه الغرف، التي يتخذها التجّار مخازن لبضاعتهم . فالحمالون داخلين وخارجين . يعانون من ثقل أحمالهم في الدخول ، يحملون بين أياديهم مسامير معكوفة متينة ، يُمسكون بها الحمل ، وحين الخروج تجدهم يحركون أجسادهم ، كما لو أنهم يؤدون تمارين رياضية ، أو ينفضون عن ملابسهم الغبار العالق بها ، إذ تظهر ملابسهم مبقعة من العرق واللون التباشيري، وحين يسيرون تبدو لحركة دشاديشهم طقطقة صلبة .

الملا جاسم لا يعاقب أحد ، لأن لا مخالفة تصدر من أحدهم : له صبيّان ، هما أبناء ولده . يتواجدون أحياناً ويغادرون لمساعدة والدهم في عمله في أحايين أخر . كان يجاورنا في الطارمة رجل يلف السجائر (المزبن) وكنت ألاحظه وهو يعمل . وحين وجد لي ميلاً في ما هو يعمل : ابتسم، وتركني أراقبه . كان يضع مجموعة كبير من أنابيب رفيعة من الورق ملفوف على شكل أنابيب دقيقة القطر ، يلمها حزام جلدي عريض . تتراصّ مع بعضها ، وهو يحركها دائرياً ، وحين يتأكد من تراصّها ، يتواصل بتدويرها ورفعها إلى الأعلى ، وتركها تسقط على صينية من مادة الصفر عريضة جداً بعد أن يرش فوقها التبغ المطحون ، يدورها ، ويدورها، حتى تمتلئ بالتبغ ، فيضعها في كارتون صغير مصفوفة بعناية . وعندما تأكد من رغبتي بمشاركته ، أخذ مجموعة من الأنابيب المملوءة بالتبغ ، مسكها بين أصابعه ، وراح بأظفره، يغطي على فتحاتها بضغط

متتالي من كل الجوانب ،كما لو أنه يفري شيئاً رخواً ،تماماً مثل امهاتنا وهنّ يبحث في شعر رؤوسنا ، وبين آونة وأخرى يرصّنْ ويطلقنْ صوتاً من أفواههنْ دليل الظفر بحشرة الرأس(القملة) يفقسنها ، فتدمى سطوح أظافرهنْ ببقع الدم القاني . كان يسمي هذه العملية بـــ (التقفيل) . وطلب مني عمل ذلك ، فأبديت مهارة في العمل . هكذا كنت أساعده في وقت الاستراحة ، أواظب على ذلك بانتظام غير ممل بالنسبة لي . والملا حين يلاحظني يبتهج قائلاً : اعمل يا ولدي العمل مفيد .

لم أر ولم أعش مع ملا رجل مثل ما اكتسبته وخبرته من حنان الملا جاسم . فقد كان ملموماً على نفسه ليس له هم سوى تعليم الصبية سور القرآن الكريم . كان يدفعنا للمعرفة ابتداء من قراءة السور. لم أدرك ذلك وقتها ، فهو على سجيته يحب العلم مبتدئاً من قراءة القرآن . كان محباً للعمل . وهذا ما لمسته من تشجيعي على مساعدة الرجل في لف السجائر للزبن .حفظت على يده أجزاء من القرآن ، وتعلمت منه الأخلاق والبساطة والرحمة والمودّة .

ما كان يزخر به بيت الملاية زهرة؟

بيت الملاية زهرة مجاور لبيتنا ، لا يفصلنا عنه سوى حائط (طوفة) يمكن تسلقها أو الصعود عليها والانحدار منها إلى البيت ، وأعني به إلى المساحة المجاورة للبيت ، والتي هي عبارة عن حوش مفتوح ؛ وهي غرفة خربة ، مفتوحة الجدران ، يقطن فيها السيد (يونس) الذي يقضي نهاره وليله بقراءة القرآن بصوت عالٍ ؛ ويعيد تلاوة وترتيل دعاءات وفلجات صوفية ؛ ضامر الجسم ؛ يحزّم وسطه بقطعة قماش خضراء ؛ مكتفياً بالطعام القليل الذي تجلبه له أخته (أم محمد) من البيت المجاور ، لا تسمع في البيت صوت يزعج الآخرين . وفي وسط الحوش وقرب جدار عالٍ ، نجلس نحن الصبية كي نرتل آيات من سور القرآن على متكئات من الخشب تسمى (الرحلة) . تدير هذا الصف (آسيا) وهي امرأة جميلة ومدينة ولها قلب يقطر محبة وإنسانية . ترعانا كما لو أننا أولادها . في البيت يركن السيد (جبار) وهو أب العائلة ، صامتاً ؛ بعد أن يؤدي

متطلبات البيت من حاجات ، تقوم بخدمته العلوية (أم محمد) . ما زلت أذكر مجموعة رؤوس الثوم معلقة في أعلى باب المطبخ ، كذلك الرتيبل الصغير الذي هو مأوى لبذور الرقي ، يجمع لموسم الشتاء ، ليكون رفيقاً للتسلية في ليالي الشتاء التي تقيمها الملاية زهرة . كان حبنا للملاية أسيا ، دفعنا لطاعتها ، وهو أول الطريق إلى تلقي ما تقوله ، وما تعلمنا خلال حديثها مكارم الأخلاق من الأمانة والحفاظ على الجار والعطف على اليتيم والمسكين وابن السبيل . ومنها امتلأت نفسي بحب الأجواء الصوفية ، والأماكن المغلقة على نفسها وسرها . والذي أضاف وأكد مثل هذا وجود السيد يونس إلى جوارنا ، دون أن يتدخل بشأننا ، ولا ترتم عيناه باتجاهنا ، فهو مشغول بهم أكبر ، لا نعرف سره . ولم يغيبه عنا سوى مستشفى الأمراض العقلية ، حيث مات وسط ردهاتها ، بعد أن عاد منقطعاً عن أهله سنين طويلة ، لكنه عاد إلى انفعالاته ، مما اضطرهم إلى إيداعه المستشفى دون عودة سوى بخبر موته.

وما زاد معرفتي بالحياة ، من خلال مرافقة والدتي إلى بيت الملاية زهرة عابرين الطوفة . كانت الليالي جميلة وممتعة ، حيث صحون الكعك أو الكليجة ، وبذور الرقي ، والشاي . كانت صينية الشاي ، تحتوي على صحون تحتوي صورة (المعيدية) وهي صورة شائعة آنذاك في المقاهي ، كذلك الأقداح المذهبة (الأستكانات) والملاعق ذات التيجان والرؤوس الواضحة للحيوانات أو أوراق الأشجار . وكانت الملاية زهرة تضع

الكتاب الكبير أمامها ، وما أن تفتحه حتى تظهر ريشة الطاووس بكل بهائها ، وألوانها المتعددة ، وأهدابها المتحركة ، تأخذها بين أناملها وتضعها في مكان قريب ثم تبدأ القراءة في كتاب الليالي ـــــ الذي عرفته ما أن تطورت ذائقتي في القراءة ـــــ . كانت الحكايات تترى ، والملاية تقطع القراءة ، وتأخذ بالاسترسال الشفاهي ، فقد حفظت معظم الروايات الواحد والألف عن ظهر قلب .

الملاية زهرة ينبوع للمعرفة ، وباب للنور ، لاسيّما أختها أم محمد ، التي تجلبك سكونها وهدوئها الذي ينم عن صبرها في إدارة البيت ، وكبت آلامها . كان للبيت نكهة خاصة ، لاسيّما عندما عشنا أنا وأخي الأكبر عندهم ، بعد أن ذهبت والدتي لإجراء عملية لعيون جدتي (أم حنف) .

كانت أيام لا تنسى ، في الليل نتلقى الرعاية الأمومية في البيت ، وفي النهار نستلهم عبرة دروس آسيا الممتعة ،وسط تلك المساحة التي تسع العالم في نظرنا ، لقد أقفل الكون علينا بابه ، فالتذت نفوسنا بما نلقاه من رعاية الملايه(آسيا) وتفقّدها لنا ، حيث تجلس بمقابلتنا ، تراقبنا ، وتتركنا للقراءة الجماعية ، كل لوحده ، مما يجمع أصواتنا في صوت واحد يتناغم في فضاء المكان ، ويطغي على صوت (يونس) الذي ربما تأخذه بغفاءة بعد سهر الليالي . تأمر بتوقف القراءة والمراجعة ، ثم تطلب من كل منّا قراءة السورة لوحده ، فتثني على قراءته ، أو حفظه ، لدرجة تُطرب لها قلوبنا . ترعانا كم لو أننا أبناءها . توزع علينا الحلوى والخبز المعفر بالسكر والحليب

الذي نُحب، وتسمح لنا في أوقات النهار من إخراج طعامنا الذي نحمله بأكياس من القماش تعمله لنا أمهاتنا ، فتكون خير فرصة نأكل بها ونمارس اللعب الهادئ ، بينما تذهب آسيا إلى داخل البيت الرئيسي . تترك لنا وقتاً كافياً لنمارس حياتنا البريئة ، ثم تعود ، فيعود الدرس القرآني تارة أخرى .

أم عبد الرضا
هموم البيت والأخ المفقود

ما كان متوفراً عند أم عبد الرضا ، إلا حب الحياة مع زوج يمتهن النجارة ، يصنع الكواريك،والحجلات ، والأسرّة الخشب ، والصناديق الصغيرة (السحارات) التي تستخدم لتوفير النقود التي يحرر على جوانبها بالفرشات الألوان العشوائية تـــبهر أهل الريف ، حيث يقتنوها بعد بيع بضاعتهم من الدجاج والبيض والخضار . زوجها (عبد الرزاق) بنظارته السميكة ، يخرج من البيت صباحاً ، ولا يعود إلا في الظهيرة ، محملاً بما منحه عمله من رزق . بعده يأتي أخوها (عبد الرضا) الذي يتخذ من دكانه في قيصرية البزازين صفاً لتحفيظ سور القرآن . ولا أدري كيف تكنى بأم عبد الرضا ؟ هل بسبب رعايته له يتيماً منذ صباه ؟

هذا البيت – أيضاً لا يفصله عن بيتنا سوى السطح دون سياج (ستارة) فمن السهولة الذهاب إلى بيت الملاية من السطوح المتصلة مع بعضها . كانت مشغولة بأمور البيت من طبخ وتنظيف ، مخصصة لنا وقتاً

للمتابعة .ويبدو لي أن متابعتها وتعقبها لا ترقى إلى جهد الملاية زهرة . لكني بلغت زمناً ليس بالقصير في تكيتها . مطلعاً على أهم حدث لها في حياتها ، وهو فقدان عبد الرضا، بعد اتهامه بالانتماء إلى الحزب الشيوعي المحظور ما قبل عام 1958 فانقطعت أخبار ، وأخذت تسأل عنه هذا وذاك ، فتأتيها الأخبار متضاربة ، ومنها قلع أظافر كفيه وقدميه بالكلابتين، وتعليقه لأيام بالكلاليب . وقيل وضع في حوض التيزاب فذاب جسده ولم يبق له من أثر . فكلما سمعت خبراً من هناك هرعت إليه ، لكنها تعود بخيبة أمل ، ولما طال انتظارها أصيبت باليأس ، ثم أيقنت بموته . فتفرغت لشؤوننا وشؤون بيتها وتربية ابنها وسد حاجات زوجها .

ولعل ثورة 14 تموز 1958 كشفت الكثير من الأسرار ، وفكت الألغاز ، ولعل ظهور(عبد الرضا) حياً أهم لغز اتضحت معالمه ، ليس لأم عبد الرضا – كما تحكي – ، بل لأهل المدينة جميعاً ، فهو شخصية محبوبة بين جيرانه في المحلة والسوق ، عاد مهدماً كهلاً يضع على عينيه نظارة سميكة الزجاج . بعد فترة الاحتفاء به ، عاد لممارسة عمله في الدكان يرتدي العقال واليشماغ ، وعلى ظهره العباءة الصفراء الخفيفة ، ومداسه ذي الرأسين المدببين. كان يتعثر في مشيه .كثر طلابه ، وسارت الحياة كما يمكن أن تكون ، لكن عبد الرضا كان بالكاد يتلمس طريقه ، إذ يتعثر وهو يسير على أرض شارع (عكد الهوى) حيث (دربونتهم) المجاورة لخان آل ياسين وخان الدرويش والد الممثل الكبير (يقظان إبراهيم الدرويش) لا

يخرج من بيته ليلاً ، بل يعتكف على قراءة القرآن . ونحن نحظى من لدن أم عبد الرضا بدروس جيدة ، بعد أن اطمأنت من بعد ما عاد إليها فقيدها العزيز .

ديوان الشيخ عباس

في خمسينيات القرن المنصرم كانت مدينة الناصرية ملمومة على نفسها من حيث تعدد أمكنتها المتمثلة بالمحلات ، أطرافها ومركزها. فالمدينة تقطع جسدها شوارع طولية تمتد من أولها الشمالي وصولاً إلى حدّها الجنوبي فالبساتين الممتدة إلى ما لا نهاية . فهنالك شارع الهوى ، وشارع عشرين وشارع الكورنيش . ومحلات مثل محلة السيف وباب الشطرة والسويج . ولشكلها هذا تأثير اجتماعي ؛ فالعلاقات الاجتماعية والأسرية قائمة على أساس المحبة والاحترام . فكلما صَغُر المكان كلما سادت الألفة بين أبنائه والعكس صحيح . فالجميع ينعم بعلاقة طيبة مع جاره ؛ ومع من يُبعد عنه في محلة أخرى ، فقد تجمعهم المقاهي ، كمقهى (التجّار ، عزران ،ميّزر ،الحاج سعيد ، العروبة ؛ اللواء ، عليوي الأقحم) وبقية المقاهي المنتشرة على طول سوق باب الشطرة ، حيث الأغاني الريفية والغجرية .

ولعل معالم كثيرة كانت معروفة بأسماء أصحابها : سواء كانت مشتقة من المهن أو ألقاب العشائر . وديوان الشيخ (عباس) معلم لا يمكن للذاكرة أن تغفل عنه أو تتناساه . فقد عُرف باسم الشيخ لمكانته الدينية أولاً ، وحسن معاشرته للناس من أبناء المدينة : من خلال مشاركتهم في كل المناسبات ثانياً، ولهم في شخصيته المعرفية الدينية مرجعاً دينياً عادلاً . يقصد ديوانه رؤساء العشائر والوجهاء والوفود ليتزودوا من علومه الدينية، أو يستفتوه بأمور دينهم ، أو قضاء أمر ما استعصى عليهم ، ويأخذوا بمشورته حين يستعصي الأمر على الأطراف المتنازعة ، أو المختلفة في أمر ديني ما . والديوان مأوى لمختلف الوافدين إلى المدينة ؛ فقد قلّت الفنادق . فخارجه واسع جداً تعلو جدرانه قطع القماش التي تحمل سور القرآن والقباب والأدعية : وتزينه صوَر الأولياء وصورة الكعبة المشرفة . مفروشة أرضه بالسجّاد ومصفوفة بجوار جدرانه الأريكات ، وعلى مدخله يوجد زير ماء عذب وبارد : على حافته (طاسة) وهي عبارة عن مقتطع من نبات جوز الهند الصلب القشرة : والمطلي بالقير : مربوطة بسلسلة نظيفة إلى الجدار . حين يأخذنا التعب : نهرع إلى الديوان : لا يمنعنا أحد ، ونتجه نحو الزير لنرتوي أجوافنا من ظمأ حر الصيف اللاهب . نغفو في الظهيرة بتأثير برودة الديوان دون مراوح أو أي مصدر للتبريد . نغفو حتى العصر ، ولا يُسأل عنا من قبل عوائلنا : لأنهم يعرفون جيداً لا نرتاد سوى

ديوان الشيخ عباس ، وحين نراه يخرج من داخل منزله إلى الديوان من خلال باب يتصل من الداخل ، تطمئن قلوبنا ، ونسارع لأخذ كفه كي نقبلها ؛ وما يكون إزاء هذا الاحترام إلا أن يربت على رؤوسنا واحداً بعد الآخر . فهو يعرفنا ويعرف أباءنا وأمهاتنا وأخوتنا الكبار وأعمامنا وأخوالنا . كأنه يحمل لكل منا سجلاً خاصاً به . بل هو يعرف أهل المدينة حسب مهنهم وسكنهم . كانت له طلعة بهية محببة نتبعه بعد أن يجتمع في ديوانه القوم قبل أي فرض للصلاة ، وبعد أن يحدثهم ويجيب على أسئلتهم . يقوم من مكانه متكئاً على عصاه ، فيتبعه الجميع ونحن معهم . يخرج من الديوان باتجاه شارع الهوى . يعبر شريانه الهادئ لقلة السيارات فيه آنذاك ، حتى نكون مع موكبه في مدخل سوق تختلط على جوانبه دكاكين المهن المختلفة ، وتشغل وسط أرضه الإبل في الصباح ، حيث يفرغ الأعراب بضاعتهم من الحبوب باتجاه الأسواق المسمى كل واحد منها(السيف) ثم نكون بمواجهة سوق الصياغة المزدانة واجهات دكاكينهم بالعارضات ، تلمع فيها قطع الذهب من قلائد ومحابس وسوارات للأيدي تحت نور المصابيح الساطعة والساقطة من الأعلى . يخرج بعضهم القريب من الموكب وهم من الصابئة ، يقبّلون يده ، فيسحبها إكراماً لهم ، ويواصل المسير بابتسامة يوزعها على من يمر بدكانه . فمنهم من يترك دكانه ليلتحق بركبه للصلاة ، حتى ينحي بنا إلى سوق الصفارين والحدادين فنسمع ضرب المطارق . وما أن ينح

ركبنا ويدخل السوق ، حتى يعمت الطرق فجأة ويهرع أصحابها لاستقبال الشيخ ومرافقته حتى الجامع الذي يتوسط السوق ، ثم يجتمع الجميع بانتظار الأذان ليصطفوا خطوطاً متناسقة وراء قامة الشيخ المتواضعة المفعمة بالورع والحكمة والإيمان . الديوان يقع داخل محلة شعبية تحيطه دور السكن ودكان الطرف وحمام عام يقصده أهل المدينة على طول النهار . المحلة التي سميت باسمه تمتاز بالهدوء والألفة بين ساكني بيوتها . لا يبتعد أحدهم عن مشاركة جاره ، نساء ورجالاً في مناسبات الفرح والحزن ، بل تجدهم في قلب المكان حيث تُقام مراسيم أفراحهم أو مآتم أحزانهم . والشيخ عباس أول المشاركين بكل رغبة ، حيث يبث الفرح وينشره بينهم ، ويطمئن الناس ويواسيهم على مصابهم الجلل .

كانوا صفوفاً ومعلمين

لا شك أن مدرسة الحياة أوسع ، ومدرسة السياسة أكثر سعة . ثم مدرسة الحزب أعمق وأثرى . لذا كان من معلمي ومدرسي الحزب خير عناوين يمكن الاستدلال بوجودهم النابع من رحم الذاكرة والمكلل بالقيم الأصيلة . ولعل حكاياهم خير ما يُسري في النفوس عذوبة الحياة ،وقدرتها على التنامي والتجدد ؛ فحكاياهم خير تذكرة للدخول إلى الحياة المضطربة الآن والتبصُّر بالصبر والتأني في رؤية المستقبل . من هذا ارتأيت تسجيل شيء عن كل من كان لهم فضل في صقل شخصياتنا ، ووضعها في الموضع المناسب من حراك الحياة . فمنهم من عايشناهم والآخر من سمعنا عن أخبارهم وحكاياهم من الثقاة الذين لا يهمهم في رويها سوى الحقيقة ، والحقيقة وحدها .

الأخلاق وصيّغها:

وخير ما أستهل فيه استذكاري هذا هي حكاية الرجل الذي صعد إلى حبل المشنقة هاتفاً ... الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من حبل

المشانق ... إذ يروي إن (يوسف سلمان فهد) بعد عودته من موسكو ، وبأمر الحزب كان وجوده في مدينة الناصرية ، حيث كان في بداياته مستقراً في بناية قرب ضفة نهر الفرات عاملاً مثابراً . وكان يسكن في بيت، وحصراً في غرفة ما يسمى صحن (الدرج) أو السلّم في البيت ، وهو مثابر على قراءة رأس المال . وقد استغرق منه هذا ستة أشهر . بعدها وبأمر من الحزب انتقل إلى بغداد . وفي يوم وفي وقت العصر ، حيث كانت العائلة العراقية قد اعتادت على تهيئة مراسيم شرب الشاي وأكل (البقصم) وهو نوع من المعجنات . ذكرت أحد الحاضرين من أن فتاة في الناصرية تسأل عنك ، وهي تخاطب (فهد) فاستغرب من ذلك ، وذكر أنه لم يتعرّف على فتاة هناك . وأكد القائل ؛ بلى أنها كانت تعيش معك في نفس البيت ! لكنه استغرب أيضاً قائلاً : صحيح أني كنت أعيش في بيت ، لكني لم يسبق لي أن التقيت بفتاة داخله طيلة الستة أشهر التي بقيت فيها . غير أن القائل استدرك : تلك التي كانت تجلب إليك الشاي ؟! قال : أنا لم أر الفتاة ، بل كنت أرى قدح الشاي (الاستكان) فإذا كان ممتلئاً أدرت فيه الملعقة ، ثم أشربه على دفعات . وإن كان فارغاً تركته حيث هو . غير أني أراه في كل مرة ممتلئاً ، وكان يحتوي شاياً لذيذاً . ربما انتبه إلى قوله الجميع، وهو يقول : ربما كنت أرى كف الفتاة ، ولكن لن أسأل نفسي من تكون ، بقدر ما كان يشغلني الكتاب والشاي . فما كان من كل

واحد منهم أن استلم درساً في الأخلاق الشيوعية . وربما قال الجميع مع أنفسهم مرددين قوله المأثور : الشاي خمرة المناضلين .

ولم يبعدني الزمن طويلاً ؛ لكي تكون لي الأيام خير راوية تلقي بحمل مروياتها على مسامعي . فقد عشت تجربة وأنا في مستهل وعيي السياسي وحصراً عام 1961. ففي يوم داهم بيتنا في البصرة ، وحصراً في أزقة محلة (السيّمر) رجال الأمن ، وعاثوا في البيت للبحث عن خالي الهارب إلى بغداد بعد خروجه من المحتجز في جلولاء ، وفي (القلعة الحجرية) كما كانت تسمى . وهي ثكنة عسكرية استغلت لحجز المناضلين . وأذكر أني رأيت فيها المناضل (كامل قزانجي) قبل استشهاده ؛ والمطرب (يوسف عمر) بعد التفتيش اقتادوني إلى دائرة الأمن الكائنة في نهاية شارع الجزائر ، وكان المفوّض (فاضل أسوّد) وضعونا في غرفة هي في الأصل كراج مرفق مع البيت وكان فيه رجل فارع الطول وآخر قصير القامة أشيب الرأس . لم يتكلم أحد ؛ بل أن الصمت كان ملازماً لنا . ولكن بعد الاستقرار بدأ الكلام ؛ فعرفت أن الرجل طويل القامة ذي البدلة (السراوين) كان يسمى (جليل) وهو مسؤول نقابات عمال البصرة . والآخر من الناصرية ، حيث سألني عن أخبار انتخابات نقابة المعلمين آنذاك وما جرى لــ (خليل الفخري) وبقية الطلبة الذين اندمجوا مؤيدين ومعلنين عن القائمة المهنية . بعدها اقتادوا (جليل) وما هي إلا دقائق ، حتى ترددت على أسماعنا الحركات غير الموزونة ، وحصراً في الغرفة التي

تشكّل سقفاً لنا . كان التعذيب مستمراً معه . وحين عاد كان قد عدّل من هيئته واتخذ له مكاناً قريباً منا . وخطتها استدعينا معاً إلى القاعة الطويلة التي اكتشفت سعتها وأثاثها ، حيث كانت مجهزة بعدد من الطاولات وخلف كل طاولة كرسي ليجلس عليه المحقق ، بينما المتهم يقف أمامه . كنت في الطرف البعيد عن طاول الضابط الذي يحقق مع الرجل القصير الأشيب . ومن كثرة الكلام وتداخله عرفت أن الشخص يمت لفهد بصلة قرابة ، وتبلور ذلك أن ذكر بأنه (عم) الرجل الذي عرفت أنه يكنى بـــ (سليم) وهو ابن السيد (داود) الموظف المسؤول عن دائرة الماء والمجاري في الناصرية . عندها اندهش الجميع لما يقوله ، وأخذوا يلحون بالأسئلة ليتأكدوا من صحة ما يدعيه بهذه القرابة . وأذكر أن أحدهم بعد أن اجتمعوا مع المحقق الذي يجري التحقيق معه ، بأن حملوا كراسيهم وتحلقوا حوله ؛ أن قال : (وهل أن فهد عمك النّح) ويقصد فعلاً أخو الأب . فقال (نعم أبي داود أخو فهد من أم وأب) عندها حملقوا جميعا للكائن الذي هبط عليهم من جرم بعيد ، طلبوا منه الحديث ، لكنه راوغهم ، بأنه لا يستطيع الوقوف بسبب إصابته بمرض الروماتزم . فما كان من أحدهم إلا أن قرّب له كرسياً بعد أن مسحه بكمه . جلس وراح يسترسل كما سألوه عن الكيفية التي أسس بها عمه الحزب الشيوعي . كان حديثه حديث معلم استغل الفرصة ليلقي الدرس على تلاميذه . وعليّ كان تأثيره كبيراً ، إذ كيف كانت الصدفة الجميلة أن ألتقي في آن واحد وأنا الفتى مع

(جميل وسليم) هو ذا المدرس البليغ الذي ملأ وجودي بسمة الأخلاق الأصيلة .

الخارج من معطف اليومي:

من يكون غيرك يا (طعمة مرداس) سمعت عنك كثيراً أول الأمر ، لكني لمس بمثل ما جالستك وعرفت سر كل ما كان يُقال عنك وما يتناقل حولك من أخبار . فكل الذي سمعته اجتمع في لحظات لقائي بك في دكان الحلاق (وهاب) في سوق الشيوخ . كنت تجلس هادئاً ، لكنك متفحصاً كل ما هو موجود ، تتميز بالحذر والترقب ، كأن ما مرَّ بك علّمك السلوك هذا . دقيقاً في نظرك ، لا يخرج منك الكلام إلا بعد أن يمر بفلتر الرقبة الطويل كما قال الإمام علي (ع) لا تعلّق على الحدث إلا بعد أن تسمع مجمل الآراء والانطباعات ، وحين يحين دورك تُدلي بما يمثل وجهة نظرك التي تحكمت بأسسها من لبن الحزب . الكل يصغي بعد انتظار من أبي مرداس أن يُطلق وجهة نظره ، وكلهم استيعاباً للرأي الصحيح . تقترب الآراء ولا تبتعد إلا قليلاً . لأنها نابعة من أصل واحد . كان جمعكم طيباً ، وجلستكم محفوفة بالعمق والبساطة أنت و(عطشان ظيون، عزيز العرب) ومن يجلس على كرسي الحلاقة مشاركاً في الحديث ، فكتابكم مفتوح للجميع . سمعت كثيراً عن أخبارك ، ولم يدهشني أنك تجلس في سوق الخضار أمام مجموعة من فصائلها لتبيعها بأقل الأثمان ، لكنك تؤمن بغناها وقدرة مردودها المادي في ما يوفره لأفراد الأسرة .

كنت أراك وأنت تقود أطفالك ، متذكراً اعتراض البعض قائلين : علي كيفك أبو مرداس ؟! فتقول : إنهم يعوّضون ما خسره الشعب من أبنائه . هي ذي الحكمة التي تعلمتها منك ، بل من سلوكك العفوي المفعم بالفكر وحكمته في الحياة .

الهدوء غير المفرط:

كنت أراه يأتي في الوقت المبكر إلى مقر الحزب ، متجهاً إلى السلّم الذي يقوده إلى الطابق الثاني ، . يدخل غرفته ولا يخرج منها إلا في الصباح لإنجاز عمله الحزبي . لا أعرفه إلا بـــ (أبو كريم) وسيم ذي شعر سرح ، وعينين كنبلتين ، لكنها عميقة الفحص للآخر . هكذا عرفته وشاهدت أثناء وجودي ضمن من يستلمون الخفارة الليلية في مقر الحزب ، وأثناء النهار ونحن نعمل في المكتب الصحفي . وما عرفته عنه في ما بعد خلال وريقات كتبها الأخ (عدنان الرفاعي / أبو عصام) .. أنه من منطقة قريبة من ناحية الفجر في الناصرية في قضاء الرفاعي . وفي البادية الممتدة بين الناصرية والديوانية والسماوة . كانت تلك المساحة التي يتحرك فيها ذلك الفتى وهو يلتقي بعدد من الفلاحين الذين كانت لهم خلايا تنظيمية ضمن صفوف الحزب الشيوعي العراقي ، حيث التقى بواحد من هذه الجاميع الصغيرة حتى استهوته، وبدأ يتعايش معها حتى انتمائه إلى صفوف الحزب . تعلم القراءة قبل الكتابة. كان يعمل في مجال الفلاحين حيث يصل إلى أعماق الريف في مناطق الرفاعي والشطرة وحتى تخوم الأهوار ومغارات

الصحراء . كانت له عائلة تعيش تحت خط الفقر تماماً . كان ملتزماً بتعاليم الحزب ، وخاصة بأوقات الاجتماعات . وكان له تاريخ طويل في النضال . وكان آخر من ترك المقر في الناصرية بعد الهجمة في عام 1978 لكنه أخذ يلاحق الخلايا والتنظيمات ، ولملمت شتات تنظيمات الحزب إلى أن اعتقل إثر وشاية عنه . وبقي تحت التعذيب القاسي ، لكنه لم يذكر سوى عبارة واحدة همس بها في أذن أحد المعتقلين ، طالباً إيصالها إلى عائلته إذا ما استشهد : (أنني أبو كريم رفيق شيوعي من الناصرية) إذ تعرّض إثر التعذيب لتوقف الكليتين . إنه (أبو كريم) كما كان يعرفه الجميع ، لكن اسمه كما عرفت مؤخراً(مزهر هول راشد) عاش مناضلاً ومات مناضلاً باسلاً .

ألم يكن كل ما ورد دروساً سطّرها تلك الرموز ، فاستحقت أن تكون مجموعة من العِبَر المفعمة بسر الحكمة السياسية والاجتماعية ،كانوا حريصين على مفردات تاريخهم المشرق المجسّد في الرموز المناضلة ، وهي صفحات مشرقة من تاريخ العراق .

من يوميات مفكرة
العائلة العراقية المناضلة

العائلة النواة التي تبدأ بها كل فعاليات المجتمع . وهذا بديهي في علم الاجتماع . لكن أن تكون العائلة متضافرة في حراكها السياسي فهذا يُعد من الندرة . لاسيّما إننا نعيش في مجتمع تربى على تقاليد ، وأحيط بالكثير من محبطات كل ما من شأنه الارتقاء بوعي الشعب : ومنها الأسرة التي تبدأ منها كل الفعاليات سلباً أم إيجاباً . وفي تأريخ الحزب الشيوعي العراقي منظومات اجتماعية واسعة من المناضلين : كان للأسرة دور كبير في مد العون والمشاركة والتضحية . ولعل الأب والأم في الصدارة من هذه الصورة من النضال الذي يضاف له ويتبادل معه الأدوار . وفي الناصرية المدينة الولود لعيّنات من المفكرين والسياسيين والمثقفين والإنسانيين والأوفياء ، ثمة أسر مناضلة عُرفت بتأريخ مشرّف في هذا المضمار من مثل (عائلة القيسي وعائلة شناوة) . ونحن إذ نستذكر ما قدمته عائلة (الأب شناوة) إنما اعتماداً لما وفره الأخ

(ماجد الفضلي) وهو من أفراد هذه الأسرة الذي يحمل تأريخاً يمكنه توصيف ما مر وما جرى لأفراد أسرته . كذلك اعتمدنا على ذاكرتنا ، حيث ترعرعنا منذ صبانا معهم ، وشاهدنا وجودهم المؤثر عبر تأريخ طويل ، أثّــر بنا كل ما قدموه للحزب من عمل نضالي استفدنا منه ، كما تعلمنا على سبيل المثال من (فؤاد مكطوف ، طعمة مرداس ، عطشان ظيون ، عزيز السيد جاسم ، نوري ناصر الكهربائي ، ستار طاهر ، حامد سمير ، رزاق مكّوف ، أميرة عبد الأمير ، زهير الدجيلي ، سعد الدجيلي ، محسن الدجيلي ، حسين مكّطوف ، وغازي البطحاوي ،السيد وليد ، حسين السيد فليح اليعقوبي ، خالد الأمين ، عبد الله ناصر ، أبو إيمان ، كريم هول ، علي مجيد ، كاظم فرهود) والقائمة تطول . هؤلاء قدموا لنا دروساً في الأخلاق السياسية ، من خلال حفاظهم على طبيعة العمل السياسي ضمن حراك الحزب ، في وضع مصلحة الشعب فوق كل المصالح المضرة بالوطن والحرص على حاضره ومستقبله . عائلة (شناوة) اجتمعت على أن تنذر نفسها للشعب من خلال تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي فكان (الأب ، الأم ، شاكر، باقر ، كاظم ، ماجد ، علي ، خولة) الوجوه التي زيّـــنت حديقة بيت شناوة مثل أزهار لا يفوح منها سوى العطر الذي زيّن فضاء الأسر الأخرى ، وشوارع المدينة وأزقتها وحاراتها . وكانت قصص نضالهم مثلاً يُحتذى بها . وفي هذه الورقة نحاول أن نُعطي الأقل لأفراد هذه

الأسرة من خلال ما قدمته من عمل كبير حفظته لهم الذاكرة الجمعية وما حفظته مذكرات الصديق (ماجد) وما تجود به ذاكرتنا:

الأبوين .. الصوت الوطني المشجع :

كان للأب والأم في العائلة دور كبير : تترشح منه الوطنية وحب الشعب . ذلك واضح من دفع أبنائها إلى سوح النضال ومشاركتهم هموم شعبهم . ولهم في هذا مواقف احتفظت لها الذاكرة . فكانت درساً بليغاً لكل الآباء والأبناء الذين سيصبحون آباءً . ففي بداية خمسينيات القرن الماضي – كما يذكر ماجد – ثمة وضع غير طبيعي ، برز من خلال دخول بعض الأشخاص إلى بيتهم برفقة شاكر ، بعدها تم غلق باب غرفة الاستقبال عليهم . وكان والدهم من يحرس هذا المشهد ، ويراقب الشارع يميناً وشمالاً . فهو بفطرته أدرك دوره الوطني ، ووعى دور أبنائه في الوطن فحماهم وشجعهم ، وارتقى بوطنيتهم عالياً . يقول ماجد : كان والدي دائماً مواظباً على سماع الراديو : واضعاً إياه قرب أذنه . وحين سألته عن ذلك ، وسألته لماذا لا يرفع صوته كي نسمع أنا وأخوتي الكبار ما يبثه الراديو ..؟! أجاب : سوف تسمع في وقت آخر. ولم أكتف بالجواب ، بل واصلت التلصص مصغياً حتى سمعت ما لم أسمعه سابقاً ، ومازال الصوت راسخاً في ذاكرتي ... هنا إذاعة موسكو ... بعدها تعلمت الكثير من أخوتي ووالدي ووالدتي .

ولا ينسى ماجد موقف والده إبان الاعتداء الثلاثي على مصر ، حيث المظاهرات التي قام بها الطلبة ، مما أدى إلى اعتقال أخيه كاظم وهو في سن السابعة عشر . وحين عرف الوالد بذلك أسرع إلى سجن الخيالة ــــ باستيل الناصرية ــــ وقابل ولده كاظم وصحبه من الغيورين على أرض الوطن العربي ، فما كان منه إلا أن قال أمام جمع الشرطة والمسؤولين : وصية لكم أن تكونوا أقوياء ، ولا يرهبكم هؤلاء خدم نوري السعيد . وأن لا تكونوا أذلاء ، لتكن لكم كرامة وتسلّموا بما يجري لكم ... ويومها قام مدير التجنيد الملقب (أبو طويرة) بإضافة سنة على عمر كاظم ، ليصبح ثمانية عشر سنة ، وهي سن العسكرية ، حيث سيق هو وصحبه إلى راوندوز .

وحين تعرضت الثورة صبيحة شباط الأسود وعمت الشارع الفوضى، وقف الأخوة حائرين ولم يقطعوا بشيء بعد ، حيث فاجأهم والدهم حاسماً الموقف بقوله : ماذا تفضلون الموت داخل الدار ، أو الموت في الشارع ، أجاب الأخوين باقر وكاظم :الموت في الشارع شرف كبير لنا .. قال : إذن اخرجوا ودافعوا عن الثورة. ولعل مواقفه وهو يواجه رجال الأمن في دائرتهم حين يذهب لمتابعة أمر أولاده ، دليل قاطع على شجاعته وإيمانه الراسخ بموقفه ومعتقداته التي قادته إلى أن يقف مواقف وطنية في أحرج الظروف والمحن السياسية . فكان بليغاً ذكياً في حسم الأمور على وفق مبادئ تربى عليها بالفطرة والتأثير

المباشر . أما والدتهم فقد ساهمت من منطلق قدراتها الذاتية وما يفرضه على وجود المرأة واقع المدينة . لكنها لم تبخل عن مرافقة أولادها وهم يحملون وثائق وبريد الحزب لتبديد الشبهات متنقلين من مدينة إلى أخرى ، أو داخل المدينة نفسها ، لاسيّما في مرافقة ولدها ماجد بعد أن شب عوده السياسي . إذ ذكر عنها : إنها كانت ترافقني دائماً لأحمّلها بعض رسائل الحزب وبياناته وأدبياته . وقد كانت مناضلة شديدة المراس ، وتحذّر أبناءها من عيون المتربصين .

باقر شناوة وقار الشيوخ:

الابن الأكبر للعائلة . كان له دور مشرف ووطني طيلة حياته . فهو لم يهادن ويراوغ على مبدأ ، سواء كان فكرياً حزبياً أو فكرياً شخصياً . بل كان السند للجميع مع الأب والأم . وله دوره النضالي الذي تفخر به عائلته وشعبه . فلا فعالية سياسية جماهيرية إلا وهو في الصدارة . ولا من موقف لأفراد العائلة وهم يأخذون المشورة والعزم من والدهم ، إلا كان من الذين يقترحون وينفذون . فحركته بين الناس والأصدقاء كانت حيوية وهادفة ، حيث يذكر ماجد : في يوم لفت انتباهي أخي باقر ، وهو يدخل محل بيع سجائر البلاط في الناصرية . كانوا يتحدثون فيما بينهم وأنا أراقبهم ، لأن المحل كان مجاوراً لمحل والدي . سألت والدي : من هذا الرجل الجالس بقربه أخي باقر ؟

أجابني : إنه إنسان طيب . قلت في نفسي أنه من الجماعة إذن . وهذه الوقفات شكـــلت وعي ماجد المبكر بالسياسة والعمل الحزبي .

لقد كان باقر بحكم سنه ، ينوب عن والده في أن يكون مرشداً لأفراد العائلة . وقد تربت عائلته الكريمة على حب الوطن ، وكنا نراه أثناء زياراته إلى الناصرية بعد أن نـــقُل إلى مدينة كفري .

شاكر شناوة ، مصور المدينة وحامي هدف فريقها:

حين تستذكر المدينة تأريخها ، لابد أن تمر على مرافقها المختلفة ، كالأندية والمحافل والمنظمات الجماهيرية مثلاً . والأستوديوهات واحدة من تلك المرافق ، فقد شهدت المدينة مصورين أفذاذ منهم (رشيد مجيد ، جبار ، كريم ، رحيم ، ستار ، حامد ، غانم ، عبدعلي مناحي) وغيره . وشاكر شناوة مصور تميّز عمله من خلال ما كان يمارسه في ستوديو (يوليو الذي غيـــر اسمه إلى (ستوديو شاكر) بعد الثورة فقد دأب على انتخابه لصور البورتريت والمناظر الطبيعية وأزقة وشوارع المدينة . هذا إضافة إلى أن وجود محله في وسط المدينة ساعده على استقطاب الجمهور . ضمن الفرق الرياضية الشعبية . وقد كان حامي هدف فريق كرة القدم لنادي الفتيان الشهير بنشاطه وكادره . فقد لعب في فريقه كل من (نعمان السيد محمد ، جبار كنن ، شريف تعاس ، علي مرهون ، عباس هليل ، خالد غني ،حسين السيد فليح اليعقوبي)

كان لوجود هؤلاء الفتية مكانتهم بين أهل المدينة ، يوم كان لكرة القدم جمهورها من الكسبة والحرفيين وعامة الناس : حيث شهدت ساحة متوسطة الجمهورية المجاورة لشارع الهوى (الخبوبي) نشاطاتهم مع الفرق الأخرى . كان لشاكر إعلاناً ضوئياً في ذاكرة الناس الذي جعله نجماً من نجوم المدينة التي لا تأفل . فحين عُرف أهل المدينة بنشاط شاكر السياسي ، لم يصب أحدهم بالدهشة السببية ، ما عدا من كانوا يُعادون كل ما هو تقدمي في البلد ، ومن الذين نذروا أنفسهم لمعادات الشعب والوطن ، ظانين أنهم بهذا السلوك إنما يُحبطون كل شيء . فلغتهم همجية وواحدية التصور ، وتعمل على قسر الناس على التخلف لكي لا تتزعزع منابرهم الواهية . وشاكر بدأبه المتنوع وحيويته الفائقة ، كان مثلاً يُضرب لكل شاب يحاول أن يبني شخصيته على مقاس معظـــم وحيوي ورصين . ذلك لأن الشخصية الشابة ، كان لها من يستقبلها بالعقل والمعرفة والحنو والصدق : فأين نحن من أيام مظلمة من أمس مضيء . كيف لا ونحن تربينا على خلق هذا المناضل الذي هرع مع أفراد أسرته صباح تموز 1958 تاركين البيت نحو الشارع ، هاتفين بحياة الشعب والثورة التي قضت على حكم نوري السعيد . وقد هرع شاكر إلى الأستوديو جالباً قطع القماش التي طبع عليها صورة جمال عبد الناصر : كانت قد أرسلت إليه من مدينة البصرة آنذاك ،محتفظاً بها في محله لحين تأتي الساعة . وها هي أتت والشارع يمور

بالجماهير . وكان شاكر مبتهجاً وهو يلتقط الصور للجماهير الهائجة المعبرة عن مشاعرها بنجاح الثورة. هكذا احتفظت المدينة بصوّر أبنائها ، وضمتهم بين حناياها ، يوم تم تدخل بعد البغضاء قلوب الناس بسبب الصراع السياسي . كان شاكر يتصدر الفعاليات الجماهيرية ، متظاهراً ومحتجاً ومبتهجاً بما سطرته ثورة تموز من انجازات ، وما كان لقادتها من مواقف وطنية واضحة . فهو جزء من خلية كبيرة يدور نشاطها في المدينة ، ذات التأريخ الثقافي والسياسي المرموق . وكان شاكر يشكل وجهاً من وجوه الملصق السياسي الحيوي في المدينة وهم (طارق السيهان وذياب المصور ومحسن مهدي أبو عادل) الذي كان يخفي عنده الرسائل الحزبية . وكان له دور وطني كبير من خلال انتمائه إلى صفوف الحزب ، وكانت مقهاه محطة لقراءة صحيفة الحزب (اتحاد الشعب) ومعرفة الكثير مما يقوّم شخصيات الشباب آنذاك . فقد كانت مقهاه مدرسة بحق . كان الجميع يتلقفون ما كان يكتبه (أبو كَاطع) في صحيفة (الرأي) بصراحته المعهودة ، وما يكتبه (أبو سعيد) في صحيفة (اتحاد الشعب) وما يسطره (محمد حسن الصوري) في صحيفة (الإنسانية) . ولا ينسى أحد ما ذكره أبو كَاطع في قوله : { المطي مطية لكن ايلاله تبدل } ولا محمد الصوري في مقاله الافتتاحي المعنون (فاليسقط التاريخ) . إنه بحق تأريخ مشرّف للجميع .

كاظم شناوة الداخل مبكرا:

الفتى الداخل إلى معترك السياسة مبكراً . لا ينسى أهل المدينة حيويته ونشاطه مذ كان في المدرسة الإعدادية . ثابر وعمل ونشط ، فما ازداد جرّاء ذلك سوى وقار المناضلين الذين يضعون عنوان شخصيتهم السياسة على خط متوازن مع شخصيتهم الاجتماعية . فكان له ما أراد وأحبّ . تميز كونه قريب من كل الأجيال ، مرشد لهم : لا يقابل أحد إلا بعينين سوداوين مبتسمتين ، يُحدثك وكأنه يعرفك منذ دهر . لذا تدخل إلى قلبه كونك جزء منه ، ويدخل إلى قلبك كأنك تعرفه قريباً منك غاب عنك . هكذا عرفناه . وحين سيق إلى العسكرية وهو في السن السابعة عشر جرّاء اشتراكه في مظاهرات الاحتجاج على اعتداء بورسعيد ، حار به المسؤولون الأمنيون وهم يحتجزونه مع صحبه في سجن الخيّالة ، كيف يساق إلى العسكرية ابن هذا العمر ، لكن عقل (أبو طويرة) كان أكثر ذكاء ومكراً، فما كان له إلا أن أضاف سنة واحدة في السجلات الرسمية ، وبقدرة أبو طويرة هذا أصبح كاظم بعمر الثامنة عشر ، فالتحق مع من سيق إلى العسكرية إلى راوندوز . يقول ماجد : استغرب كاظم وهو يرى الأب يُثني على موقفه في سجن الخيّالة قائلاً : أنتم حافظوا على موقفكم وتماسكوا مع بعض . كما يقول لنا نحن الأخوة الثلاثة .. تشبثوا بمواقفكم المدافعة عن الفقراء من أبناء الشعب . وسلمه عشرة دنانير زاداً للطريق والنفي . وبقي هناك

إلى أن نُقل إلى حامية الناصرية ، وكان آمر الوحدة العسكرية (إبراهيم الجبوري) .

كان صنو كاظم رفيقه (خليل الفخري) المناضل الفذ ، الذي لم تلن له عريكة : نشط وثابر ومثله من سيق إلى العسكرية (رزاق حطاب) الرجل الهادئ الساكن على ما يظهر للآخرين ، لكنه مثابر يأتي على نشاط لا يظهر منه سوى رزانته وكتمانه : ثم (منعم القيسي) يكفيه أنه سليل عائلة مناضلة ، وذو حركة مضاعفة دفع ثمنها من صحته وراحته . كذلك (حمد علي النجار) وجمع من الفتية الآتين للدراسة من الأقضية والنواحي كالشطرة والرفاعي وقلعة سكر وسوق الشيوخ. وبقي أولئك الفتية في حامية الناصرية إلى صبيحة تموز 1958 ، وإذا بطارق على الباب وحين خرج ماجد ليفتحه ، اندهش حين شاهد كاظم يقف لصق الباب قائلاً : إنها الثورة يا ماجد : أين أبي وأمي وأخوتي !!

عاد كاظم إلى حيوية نشاطه في مدينته . وأول باكورة عمله بعد الثورة ، استحداث مكتبة (الوعي الوطني) وهي عبارة عن دكان صغير يقع في سوق المدينة الرئيسي ، على مقربة من مكتبتي (جبر وطاهر غفوري) يبيع الصحف وعلى رأسها صحيفة (اتحاد الشعب) . يستعين بموزعين متجولين ومنهم (حسين صالح وفوزي معتوق) . كان مع كاظم في المكتبة المناضل (صاحب حمادي) . وبعد أن انتقل صاحب إلى بغداد عام 1959 بدأت المضايقات على توزيع الجريدة من قبل

الاستخبارات العسكرية ومُنعت من الدخول إلى المدينة . لكن كاظم كان يذهب إلى محطة أور لجلب الجريدة الآتية بالقطار من بغداد دون أن يراقبه أحد . واستمر هذا العمل إلى أن رُفع الحظر عن الجريدة ، يومها سلـّم كاظم أمر إدارة المكتبة إلى (حميد ديبي) من أجل إكمال دراسته في معهد الفنون الجميلة في بغداد . ولم يمض على دراسته سنة واحدة اعتقل لاشتراكه في مظاهرة تدعو إلى السلم في كردستان . أعتقل في سجن خلف السدة . وبعد خروجه من السجن عاد إلى المدينة وترك الدراسة متفرغاً للعمل الحزبي . لقد كان نشاطه في بغداد متميزاً حيث يشارك في كل الفعاليات الجماهيرية ، وكان وقتها يزور أخيه شاكر الراقد في أحدى مستشفيات بغداد ، حاملاً معه النشرات والبيانات الحزبية ، حيث يطلب منه شاكر قراءتها له وهو على فراش المرض إثر مرض عضال ألمّ به .

ماجد شناوة الحالم بالحرية والسلام:

شاب استهوته السياسة بالفطرة والتأثير المباشر من أفراد العائلة وما يراه يمور في الشارع ، فهو المنتبه إلى والده وهو يستمع خفية إلى إذاعة موسكو ، وهو المتحمل مهمات إيصال بريد الحزب برفقة والدته ، والمساهم بكل ما يناط به من أوامر . وهو صديق مناضلين أشداء مثل (محسن مهدي – أبو عادل – والمناضل الشهيد طارق السبهان وعباس

محسن) . وحين اكتشف الرفيق (أبو علي) أن ماجد يقوم بكل تلك الأعباء الحزبية وهو لم ينتم بعد في صفوفه ، سأله : لِمَ لم تقل لي أنك لست عضواً في الحزب ..؟ وكانت نبرته ـــــ حسب ما قاله ماجد ـــــ حادّة وشديدة . أجابه :وماذا في ذلك ..؟ ألم يكن صديق الحزب مؤهلاً لإنجاز مهام الحزب ..؟ وطال الحديث ، وأسقط (أبو علي) اللوم على أخيه شاكر ، لأنه لم يخبره بذلك ، ولم يرشحه للحزب . بعدها اكتشف ماجد أن كل ما دار محض مزحة ليس إلا . فأصدقاء الحزب يؤدون مهام ربما أكثر من أعضائه ، فهم الظهير القوي والشجاع . وكانت تلك اللحظات هي الحاسمة لحظة أخرج أبو علي ورقة دوّن فيها اسمه وطلب منه اختيار اسماً حركياً قائلاً : أنت من الآن مرشحاً في صفوف الحزب وبدون أي جدال . ولم يقل وقتها إن شاكر طلب منه ذلك ، لكنه امتنع لعدم بلوغ سنه القانونية التي نص عليها النظام الداخلي للحزب . هكذا بدأت سيرة هذا الفتى الذي شارك مع الطلبة في مظاهرات الاحتجاج على الاعتداء الثلاثي على مصر ، متذكراً شعار { نوري سعيد القندرة وصالح جبر قيطانة } . وما توالي الأحداث في العراق والمنطقة سوى عوامل إيقاظ همة ووطنية هذا الفتى الذي تربى وسط عائلة شيوعية معروفة في المدينة . فصوت أخيه شاكر وهو يطلب الراديو لسماع بيانات الثورة ، كان لصيقاً في جدار ذاكرته، والصور التي أخرجها أخوه من الأستوديو وهي تحمل صورة عبد الناصر

يتذكرها جيداً ، ولقاءاته بالرفاق وإناطتهم له بالمهام في توصيل بريد الحزب ورسائله ، هي الأرض الخصبة التي نشأ في عمقها . فصلب عوده، وتهيأ لمواجهة الظروف الصعبة .

يذكر ماجد وبفخر واضح قائلاً : { في مهمة طلب مني الحزب وأنا الصديق أن أوصل رسالة إلى أحد الرفاق في الفهود . أخذت معي كاميرا وسافرت ، وقد شاهدني هناك رجال الأمن وهم (فرحان عتيوي ومحسن سلطان) وسألوني عن ماذا أفعل هنا ، فأجبتهم لغرض التقاط صور إلى الأستوديو بطلب من وزارة الإرشاد . فاقتنعوا ، بعدها التقطت لهما صورة وواصلت أداء مهمتي . } وعند عودته ولقاء الرفيق (أبو علي) سلّـمه ما تبقى من المبلغ وهو دينار ومائة وخمسون فلساً . وهو ثمانمائة وخمسون فلساً . فاستغرب الرفيق قائلاً ألم تأكل أو تشرب ..؟ فأجاب .. بلى أكلت وشربت . هكذا كانت أمانة من يؤتمن على أموال غيره، فأين ما نجده من أخلاق من تلك التي بنيت على أسس متينة ومبادئ حقة . وقد حكم عليه في السجن منذ عام 1963 وحتى عام 1966 ؛ حيث استقبلته العسكرية . وكان مثالاً للصبر والجلَـد أمام سجانيه ورجال الأمن بما كانوا يقومون به من أساليب التعذيب الوحشية وبقي أميناً ولا زال لمبادئ الحزب ، متحمساً لسلامة الوطن ؛ حريصاً على مستقبله . كيف لا وهو آخر العنقود من المناضلين في هذه العائلة التي نذرت نفسها لجسد واحد وروح موحدة

من أجل أن تكون لهم بصمة في مجمل الحراك التاريخي للوطن والشعب العريق والممتد جذوره بعمق كي يُحكي ما وهب الإنسانية من حضارة ومعرفة شهد لها كل الأوفياء للإنسانية .

وهنا لابد من ذكر أختهم (خولة) التي عرفتها أماً فاضلة وزوجة وفية ، وإنسانة متطلعة مع الشعب لعراق مزدهر ومطمئن وآمن . عاشت محنة عائلتها بصبر فطري نقي ، وترعرعت بما تبقى من حياتها في كنف أسرة فاضلة وزوج مناضل وكادح هو (أبو نضال) ، انتمى للحزب عبر مهنته عاملاً أولاً ثم مؤمناً بعقيدة الكادحين هو وأخيه (أحمد) إنه سِفر جميل لهذه العائلة قطعنا في أزمنته قليلاً وبقي الأكثر وديعة في صفحات التأريخ .رحم الله أبناءها في ملكوت الخلود ، وفي ضمير الشعب والتأريخ، إنه خير الحافظين .

وجوه من رحلة التعب

عنوان مداخلتي مأخوذة من مجموعة قصصية للقاص والروائي (عبد الرحمن مجيد الربيعي) أستاذي ومعلمي ورفيق بداياتي في مسيرة الأدب والثقافة.وأرى أنه استهل مجموعته تلك بهذا العنوان ، متابعة للمتعبين من مدينته من الأصدقاء وشغيلة الفكر والعمل ومهـــن ورمـــوز المدينة (الناصرية) وأنا إذ استعرض وأتداخل مع من أثروا الحياة بتضحياتهم ، وأثـــروا في من حولهم من الشباب ومن تحلى بالوطنية بالفطرة ، أي الوفاء للمكان والزمان اللذان يشكلان الوطن . الوطن الكامنة صورته في الذات والضمير . وفي ما أكتب نوعاً من البانوراما قد تختلف عما كتبت ؛ لأنها هذه المرة تستدعي وجوهاً طيبة لها تاريخها . وما الإيجاز سوى محاولة لتذكر ما استطيع استحضاره.

وعبد الرحمن الربيعي ، لم يكن سوى النموذج من المبدعين الذين أنجبتهم المدينة ، وترعرعوا في حاضنة اليسار العراقي . فهو لم يبخل بأفعاله عن الوطن ولم يبتعد عن مجموعة من المناضلين من أمثال (عزيز السيد

جاسم ، وعزيز عبد الصاحب و عمران رشيد ، وعدنان ورزاق النجار وعبد الرزاق رشيد الناصري ورشيد مجيد) بل كان من ضمنهم ومن بين صفوفهم . يقف أمام ورشة الناصري - كما سوف نكتب عنها لاحقاً . ناضل وسجن وأبعد عن مدينته في ريفها . لكنه لم يزد إلا من صموده وترسيخ وترصين إبداعه الواضح الآن أوفى ما سبق من مراحل . كان مربياً وفناناً قديراً ومناضلاً دؤوباً . صنع له اعلاماً ، حين أدار الإعلام وجهه ليس عن عبد لرحمن ، بل عن الكثيرين ، فما كان منه إلا أن يضع نضاله الإعلامي من بعد الجائزة الإبداعي ، فحقق الكثير وما زال في خضم الوجود يعمل على وتيرة الإنجاز ،عبر ذاكرة يقظة للأزمنة المنصرمة والأمكنة التي زالت عنها هويتها ، بفعل المحو. (عبد الرحمن مجيد الربيعي) رمز مهم من رموز المدينة ، التي غذّت المشهد الثقافي والسياسي العراقي بخيرة أبنائها .

طعمة مرداس .. الدرس المتنقل:

مَنْ مِنْ مدينة سوق الشيوخ أو الناصرية ، أو المناضلين الآخرين الذين دخلوا السجون ، من لا تحتوي ذاكرته صورة المناضل (طعمة مرداس) إنه صف متنقل ، يُلقي الدرس في الشارع أو ضمن مكانه اليومي في سوق الخضار ، أو في دكان (وهاب الحلاق) عصراً . كنت أنظر إليه وهو يحدّق ويتأمل ما يردده (عطشان ظيون ، عزيز العرب ، طارق الخميس) ولا يتكلم إلا بعد أن يستوعب ما يسمع ، حتى تكون آراؤه في ما يدور

حوله أكثر عمقاً ودراية بالشأن السياسي والأيديولوجي . فهو لم يعرف الفكر إلا من خلال تطبيقاته على الوجود ، ولا الشعارات إلا عبر ما تمسه من حقائق الحياة ، كان راهباً في زي سياسي ، وسياسي في حلة شعبية بليغة وأصيلة . يتأمله المرء كما لو أنه في حضرة غرفة للدرس . يحظى باحترام الجميع ، لأنه يتعامل معهم بمستوى يديره عقله وتسيّره أخلاقه السياسية الرفيعة التي اكتسبها من الحزب ونضاله الطويل . إنه نموذج قد كتب عن أمثاله (أبو كَاطع) في أدبياته ، معتبراً بلاغتهم الشعبية ، ظرفاً لفهم بلاغة الحياة . إنه مدرسة وباب للمعرفة التي ما تنحت وتمحضت إلا من قوة الحياة التي عاشها . عاش ومات مخلصاً لما آمن به واعتقد ، فقد تجلت له الحقيقة حتى في آخر لحظاته كما ذكر أقرانه وهم يودعونه . إنه سياسي متصوف ، يقبل بالقليل من الحياة ، لكنه يمنحها الكثير .

إبراهيم دوبارة... الوقار الفطري :

عذراً لأني أطلقت اسمه الذي تعارف عليه جيلنا آنذاك . غير أن العبرة في ما هو كامن في شخص الرجل المناضل هذا ، ابتداء من غرفة الصف وحتى الشارع والمقهى ، فقد كان يوزع عنايته وعطفه واهتمامه العلمي في التدريس على الطلاب كما لو أنه يرش ماء الورد على القامات الساكنة عند مساطب الدرس . جاداً في درسه ، حكيماً في حجته العلمية ومحاورة تلاميذه ، ملماً بمادته العلمية . لم يحدث لنا رد فعل سلبي حين

عرفنا أنه شيوعي ، بل زاد فخرنا بشخصه وعلمه ، لأننا بدأنا نحبو لدخول صف الحرب ، مستعدين لهذه المظاهرة أو تلك لنظهر بالصورة التي يراها أساتذتنا . قامة طويل وجسد رياضي ، يخطو من عمق الصف باتجاه اللوحة ، ليسعف الطالب وهو يحاول انجاز مهمته في حل التمرين ، يستقر بالقرب منه ، يوليه نظرات مشجعة ، تـــزيد من ثقته بنفسه ، يثني على خطواته . هكذا عرفناه ، وبهذه الصفات تلقينا منه درس الأخلاق السياسية . كان لا يتورع أن يثقفنا ما أن تنتهي مظاهرة ما في ستينيات القرن الماضي ، بهدوء تام وثقة مما يقول ، يكون تسلسل حديثه قائماً وراسخاً بيننا . ولم أستغرب حين سمعت خبر بسالته في مدينة الكاظمية في بغداد ، وهو يتصدى مسلحاً لدموية شباط الأسود ، وصل حد الاستشهاد في شوارع مدينة مقدسة ، تحتضن شهيد كبير مثل الإمام (موسى الكاظم) الذي كان استشهاده تراجيدياً كما هو معروف . العبرة في الدرس الذي استلهمناه من شخص إبراهيم المربي والمناضل .كان إذا دخل الدرس يتوجه إلى السبورة بعد أن يحينا ، يكتب بخط جميل وكبير عبارة(أمريكا عدوة الشعوب) ثم يضع قطعة الطباشير في مكانها ، وينفض أصابعه من عالق الذرات ، ويبدأ بشرح العبارة ، ولزمن لا يؤثر على وقت الدرس ، بعدها يمسح العبارة ويكتب عنوان الدرس .هذه العبارة التي تحولت بمجرى الأزمنة القاسية إلى عبارة أمتن وأكثر حداثة (أمريكا محررة الشعوب...؟!!).

عبد الله ناصر.. السائر بهدوء بين الجميع :

ابن المدينة البار، الذي جمعته الألفة مع أخوته من معلمين ومناضلين ، في المواقف والسجون . لم يكن مبالغاً في ما يؤدي من فعل سياسي ، بل كان يسير بفعله بتلقائية مبدئية ، تتماشى مع تلقائية الحياة ، لأنه يؤمن بأنه أبنها ومعلمها في آن واحد . ينظر إلى الخلف كما ينهل من علم الحياة وعلم الحزب ومبادئه ، وإلى الماحول ليزيد من معرفته ، وإلى الأمام ليرى مستقبل العراق . ينظر إلى سجّانيه نظرة كلها إصرار كما كان يتحدث عنه رفاقه ، وكما عرفناه نحن صبية وشباباً في التظاهرات والمقاهي ، وكلنا حرص على أن يكون الدرس الذي نتلقاه من فعله أكثر بلاغة . نستلهم ما يومئ إلى جديته التي لا يُظهرها المشهد المباشر لحركته ، لكن ما يختزنه من حكمة في الأخلاق السياسية . داخل المواقف والسجون ودهاليز التعذيب ، ولم تــُغيّر من طباعه أحلك الظروف، لأنه رضع حليب المبادئ من ثدي أصيل. حين نراه نرى الماضي بكل اتزانه ، وندرك الحاضر بكل مقوماته المفترضة ، ونحدّق بما يؤشر إلى المستقبل ، فهو مدرسة علمتنا كيف يحافظ الرجل على مبادئه ولا يُسوّق الأفكار كما لو أنها سلعة بائرة . رعيل من المناضلين قدموا لنا ما هو جزء من وجودهم ، ابتعدوا عن ترف الحياة ، وتمسكوا بحكمة التضحية ، فكانوا خير عون لنا في فهم جزئيات الحياة . عبد الله ناصر مربي من الرعيل الذي يعمل على رفع وعي التلاميذ ، ليكونوا ذخيرة المستقبل . من الدرس ينطلق ، ليتسلل إلى السياسة ، فتنطلق عباراته

سلسة مطواعة ، تصبنا كجرعة ماء في قيظ لافح . عانا الكثير و لم يلن أو تضعف إرادته ،فاستحق منا التوقير والرفعة والتذكر .

حسين اليعقوبي ـ القط الأسود:

بقدر ما كان رياضياً متميزاً ، كان مناضلاً دؤوباً ، حاضراً في كل الميادين . كانت صفته الرياضية هذه اكتسبها من انتمائه إلى فريق نادي الفتيان ، مع صحبه (عباس هليل ، شريف نعاس ، عاجل كريم ، نعمان السيد محمد ، خالد علي) وغيرهم ، هو حامي هدفهم في كل المباريات . ومناضل عرفته الميادين السياسية ، والمظاهرات ، وضمته المواقف والسجون ، خاصة سجن الرمادي في ستينيات القرن الماضي . هاجر إلى ألمانيا ردحاً من الزمن ، وما عاد إلا وجد أن أعز الأصدقاء (خالد الأمين) قد استشهد على أيدي جلاوزة قصر النهاية . قال لي أقمنا حفلاً تأبينيا له في المهجر . وبقي السؤال يراوغه دون جواب : كيف لجسد خالد الذي يشبه عود السيسبان تحمل أساليب التعذيب حد حرق ساقيه بالنار ، بعد أن لفتا بالقطن المغمس بالكحول ، مما أصابهما بالغنغرينا، فــقُطعت أثرهما ساقاه ، ولكن دون جدوى . كان اليعقوبي صديق وفيّ ، ورجل حاضر في الملمات مناضل ، يرفع من معنويات رفاقه وأصدقائه ، وما حصد إثر مشاركته في حملة السلم في كردستان إلا السجن حتى بعد عام 1969 حيث أطلق سراحه . في أرشيفي رسائله من سجن

الرمادي ، نقل حلاها بشاعة السجون ومعاناة السجناء ، وأشواقه للحياة في مدينته البارّة .

كريم القصاب .. فرادة الشخصية /

عرفته من مرحلة الصبا ، حين كان يصعد إلى سطح الدار ، ويبدأ بإنشاد أغنيته والجميع من الأسرتين يحدّق به ويشجعه . منذ كان صبياً هكذا ، يجذب الجميع بلثغته المحببة وهو يردد عبارة (عنكود حبي) حتى يسالته في الجدال حين يحين الحديث ويشتد وطيسه . له آراء ناضجة في ما يدور ، متمرد ، ورث المهنة ـــــ القصابة ـــــ عن أبيه (خميّس) ومارسها حتى وفاته . حين تقف أمام دكانه لتشتري قطع اللحم ، لا يتواصل إلا في الحديث عن السياسة ، وما يدور في الأروقة من حراك ، تتلمذ في الحزب واكتسب لغته وأخلاقه . لم تثنه السجون عن سلاسة لسانه ورصانته ، وتدفق عزيمته ، وتواصله في تقييم الأوضاع السياسية . بالرغم من إقامته في سجن قصر النهاية ردحاً من الزمن ، إلا أنه خرج ليفضح كل ما شاهده هناك ، محافظاً على التاريخ المشرّف للمناضلين . كان يمتلك ذاكرة سياسية محكمة ، وقدرة على تواصل نظراته وتحليلاته ، فالمجالس مدارس بالنسبة إليه . رحل وصورته ما زالت تراود بمشهدها عيون أهل المدينة ، سواء أمام دكانه ، أو في وسط المدينة بدشداشته وهندامه الأنيق . كان يتحدث عن (خالد الأمين) وهو يصفه مشاهداً زياد في

قصر النهاية وهو يصارع صعوبة السير على قدمين محترقتين ، ويتحدث عن كل شيء ؛ لكنه لا يبتعد عن صراحته في ما يذكر ويقيّم . إنه نموذج المناضل المثابر ، الذي أسس لعلاقات طيبة مع الجميع .

عائلة آل غني .. نماذج من تاريخ الوطن:

مثلما استذكرنا الأشخاص ضمن العائلة في العام الماضي ، فنحن الآن بصدد استذكار عائلة (آل غني) وهم الأساتذة والمناضلين (الأب والأم، حميد غني ، خالد غني ، ستار غني) فقلة من نجد ثمة عائلة تتضافر جهودها معاً في السير على طريق واحد ، صعب كان أو سهل . وهذه العائلة المباركة ، شهدت مواقف في مدينة الناصرية في تاريخها الشخصي ، أو ضمن تاريخ المدينة ، أو تاريخ الحزب . فهم على صعيد اجتماعي ، تفردوا في مساهماتهم الشعبية ، كما حصل لـــ (خالد) وانضمامه إلى نادي الفتيان . أو (حميد) كوجه اجتماعي حافظ على تاريخ العائلة المجيد والمشرّف . ثم تاريخه النضالي . أما (ستار) فقد استكمل شخصيته مربيا ومناضلا. هذه العائلة لم تتفكك أواصرها في أحلك الظروف ، بحيث تفسح المجال للطغاة النفاذ من مجالاتها الضعيفة ، بل كانت القوة درعاً حماها من ترصد الطغاة ، فالتماسك صفة دائمة . وقد ظهرت للرائي أثناء الشدائد والمحن ، وما أكثرها على الشيوعيين ، فحين يُعتقل الأبناء ، تجد الأب والأم يسهمان في رفع معنوية الأبناء ، ولا يُخذلون أو يخذلون أحد.

والأبناء تمرست عريكتهم في مهد النضال وحراكه المتواصل . وجوه اجتماعية وسياسية ، يتصفح المرء سجلهم ، فما يزداد إلا فخراً بما أنجبته المدينة من رجال تنبض الحياة وتشرق من وجودهم في مشهدها الطويل ، فما أكسبوها سوى صفحات جليلة لتاريخ مدينة لم تبخل على العراق من إنجابها للمناضلين والمثقفين وذوي الإبداع المتواصل والمتجدد .

تتميز شخصيات العائلة بتفرد ، لكن الهدوء هو الطاغي عليهم . فالمناضل(حميد غني) تميّز بشخصيته الاجتماعية ، فما زادت السياسة سوى مسؤولية جديدة ، تقابلها الحكمة ، فالحكيم لا يزيد بتطور عقله إلا حكمة جديدة تُضاف إلى سجله . وحميد كان راهباً يتواصل مع المبادئ ، فتراه يتحلى بنفس الهدوء سواء مع رفاقه وأصدقائه أو ممن يختلفون عنه في المنهج. فلما يظهر عليه الانفعال بالرغم من أن الحديث الدائر يخلق فوراناً داخله ، لكنه رصين عند الشدائد ، فتكون تعاملاته مع المقابل هادئة تنم عن خبرة وصفاء رؤية . أما (خالد غني) فلا يقل عنه ، غير أنه يبدو في بعض الأحيان منفعلاً ومضطرباً إزاء الأخطاء ، لكنه يدخل ساحة لعب كرة القدم أكثر رصانة ورشاقة ، يتميّز بين أقرانه ، ويدور داخل ساحة اللعب برشاقته نفسها ، لا يغادر موقعه ، وإنما يلتزم بوظائفه صد الكرة أو تحويلها إلى هدف الخصم . إنه رياضي وسياسي من طراز رفيع ، تبقى صورته بخصائصها عالقة في الذاكرة ، شأنه شأن بقية عائلته الكريمة. أما(ستار غني) فهو من جيلنا ، يمتلك ذات ساحرة يروّض بها المقابل ،

وساخر من طراز متميز ، غير أنه جاد في عمله ، وفياً لأصدقائه وللحزب . لم أجده متطرفاً ولا مغالياً . امتهن التعليم فزادت شهرته كمعلم مثابر ومؤدي جيد لوظيفته .أما بقية أفراد الأسرة فقد تميزوا بالوقار والمشاركة الوجدانية مع أبنائهم وهم يؤدون واجبهم الوطني والمبدئي ، تماما كأفراد عائلة (آل شناوة).

أيها الكرستال..

أزح عنك غواية السحر

في أي بيت هو الآن
ومع أي طفل يسهر
وإلى أي أُفق يصغي
وهو الصوت والصدى .
فارتقب .. أيتها الناصرية قميصه !
وانظري ملياً في هويتنا ..!
خشية أن يتسلل إلى أيامنا
ليل كسيح))

الشاعر ناهض الخيّاط

أيها الكرستال .. يا خالد الأمين..

سكنت الدنيا ، بعد أن دار بنا الكون دورته، واصطخبت الأرض بفواجعها وتبعثر رملها، وفار تنورها، وما ضاعت الصور عن مدونات الذاكرة وقراطيسها . غيبتها المسارات وثُـــــقل الأزمنة ، لكنها تزاحمت وتراكمت فصعب حملها . وما أسرع الزمن حين يهوى الجريان في سباقه معنا ، وما أثقله في أشد الحالات محنة .إذ يدور بنا ويقطّـــع على هواه أوصالنا . إنها حكمة (احيقار) أو سواد ، حكمت الصبر، فغدا في كل منـــّـا حكيم خبيــــرٌ بالدنيا ، وعرف سر دورانها الغريب والمهول . حكمة نبتت داخل رؤوسنا كقصب سومر الأزلي ، الذي لم تقف دونه أيدي التجفيف ، ولا استطاعت أن تعاكس إرادة الأنهار . فيا خالد ... إن ذاكرتنا مستنبتة من الماء ، ومع سحر جريانه . فهي ذاكرته وهو ذاكرتنا . مكتوبة حفاواتنا على أديم البردي . معلقة كالأجراس على رؤوس زقورات المعابد في أور ولكش وأوروك . وها هي صورتك تبدو للعيان ، إنه بصولجان مذهب . أدد بحكمته . ليس الآن ، وإنما منذ الأمد البعيد . منذ بدأ الشعر مكتوب على جدران الكهوف والرقي. يوم إنبجست موهبة الإنسان ، ورغبة الدفاع عن نفسه . رحل أيها الكرستال العديد من صحبنا، وبقي القليل والنادر ، وقد طالته الأزمنة فهشمته ولم تتمكن من هزيمته ، دحرته لكنها لم تهزمه . متعبون هم وعلى وهن وسفر وانتظار. لا تلذ لهم في زمن الخواء هذا سوى ومضة من الماضي . ربما يشع منها بصيص

أمل يكشف ظلمة الطرقات وتشابك المعابر والمسالك ، ويحـــدّ من تربص عيون الموت وغفلة الواشين الأفاقين ، من الذين نصبوا من أنفسهم قضاة يفتون ويصدرون قرارات الموت . لم يكن لنا الخيار من أي الطرق نسلك للمسير على وفق ما قالته الحكاية يوماً . بل تشعبت الدروب دون إرادة منا أو اختيار، وتوقف فينا الزمن وحاذرنا من ظلم أخوة يوسف . ولم يبق سوى النور الذي يضيء الزوايا والأرائك التي خلفتها وصحبك الميامين على شاطئ الفرات . فلا يعطر جروف النهر غير عبق زنابقك ، زنابق الماء السائرة مع مجراه ، مثل زوارقنا الورقية التي نطلقها حرة على سطح المياه .

في كل منعطف كنت يا خالد، ووسط كون مضطرب كحر الصيف وظهيراته. فقد قسوت على جسدك الطري ، وصقلته ، ولوحت شمس الظهيرة صفحة وجهك الملائكي ، وكنت وقتها أسأل نفسي :أما تغري الفتى نداوة التبريد فتبقيه داخل منزله في الظهيرة الحارة مع جمع العائلة ..؟ وأي صبر يمتلك الفتى وهو يدخل سعير نارنا الموقدة ، أمام مروحة منضدية بائسة لها اهتزاز يوقظ الموتى من سباتهم ..؟ بينما خالد ينحو باتجاه جنة أخرى وقودها الورق والحبر . تسورها العيون المترقبة والأفواه التي لا تنطق إلاّ بالسر الدفين للحياة . أوراق لها رقة ورق سجائر اللف ، يجمعها على بعض على شكل فتائل صغيرة ، ثم يغادر مزهواً لاستقبال الطرقات له ولصحبه واحداً ، واحداً . كأنهم داخل صف يجلسون ، صف للأخلاق كان، وصف لمفردات العقل . لوحة راقصة كنت ، وأنت تخترق السوق ,

فلا تنظر إلى الآخرين إلاّ بعينين يبرق فيهما وميض كاللمع . تنظر فتسحر، وتتحدث فيأخذ أحوتك الطرب ، كما لو أنهم يصغون إلى خبر فريد ، جامع وشامل . إنهم أخوتك وليسوا أخوة يوسف . كيف لا وأنت لا تردد سوى سحر الكلام كشهرزاد ، عن أُناس سحقهم الدهر ، وطوقهم عجلة الزمن بثقل الفقر والإملاق ، وجارت عليهم الأحداث والمصاعب فصقلت عودهم ، وعمّرت رؤوسهم بالإيمان . وشفتيك لا تملآن من نثر الكلام كالزنابق . له لون وشكل وطعم . وهو ماء وهواء وعطر . يعيد للمرء إطمئنانه وإستقراره. خـــــــــالد .. كانت صحبتك علامة ناشطة يحنّ إليها كل الطيبين والمثابرين والذين لا ينتظرون من فعلهم جزاء ولا شكورا . من ذوي الاهتمام العام المولعين بالصغائر والكبائر في حب الوطن والناس . لا تملَــك المجالس او يضجر منك مقهى (أبو أحمد) وروّاده، بل يستقبلك الرجل مع سنونواته الإثنتين وهما تتحدان من مرتفع المروحة السقفية دوراً فما . أتذكر من مساءاتنا ونحن نغادر سينما الأندلس ، رأينا (أبو أحمد) جالساً على دكة المقهى ، مغلقاً أحد الأبواب كاملاً والآخر تركه إلى المنتصف . وحين سألناه :ما بك يا عم..؟ أجاب : لم يأت السنونو الذكر إلى عشه ..!خلطتها عرفنا قصة السنونو الساكن في مقهاه ، وكان انتظاره طويلاً .ولم يبرح المكان إلاّ بعد عودة الذكر . وهذا ما عرفناه في اليوم الثاني . وهاهم صحبك يا خالد وذلك هو مقهاه الذي ما أن تحل بين ظهرانينا حتى يشيع الفرح والأمل في فضاء

المقهى : منتشراً وغائراً في قلوبنا وضمائرنا . إنه وهج كلامك بمثابة صورة للمدى ، وهو حديثك العذب ، والمروحة هي إشارتك . ويوم جلسنا في غرفة دارنا مع الصديق (حسين السيد فليح) ، قرأت لي قصيدة عمودية ، انبهرت بقوة سبكها ومعانيها . وحين سألتك لمن هذه القصيدة يا خالد..؟ أجبت على عجالة :إنها للشاعر الجواهري . فاطمأن قلبي على شاعر الشعب ،لكن حسين أشار لي من بعيد بإصبعه . فهمت من إشارته أن القصيدة لك وليست إلى الجواهري . يومها عرفت أنك لست بصدد أن تظهر كأديب ، وإنما تحمل هماً سياسياً . فأنت قصيدة في ثوب سياسي ، وأنا لا أراك الآن سوى قصيدة تتجول داخل المدينة . وقد حققت معادلك الموضوعي بتحديك للطغاة ، فزهدت بالدنيا وأنت أدرى من زهد في الدنيا في بطون التأريخ . وأكيد ذلك ، فصحبتك مثل (عزيز السيد جاسم – ورزاق رشيد الناصري – وقتيبة الشيخ نوري – وشريف الربيعي – وجمعة اللامي- وعبد الرحمن طهمازي)علامات فتحت لك مكتبة الزمن ، وتصفحت لك بطون الكتب ، وكانت علاماتهم مروراً كرائين إلى مدينة الماء .الناصرية ، ها وقع خاص ، فهي أيقونة تترك آثارها وتحفظ أسرارها ذاكرة المدينة ، فأي مكان كانت دكانة الناصري ..؟ تلم وجوهكم وتحفظ كتبكم وكتاباتكم من بعد مقهى الأب (عزران).

لقد تأكدت لي شاعريتك من سمات شخصك وما وقع وقتها بين يدي من قصائد ، وما قدمته لديوان (سان جان بيرس) ، الذي ترجمه

الأديب المثابر (أحمد الباقري) . كانت المقدمة مفعمة بالشعر قبل حاصية النثر . فقد عكست تجربة (بيرس) شعرياً . ولا أدري هل سحرتك قصائد الشاعر ..؟ أم سحر نثرك شعره . ؟. فامتزجا، ورحت تتلذذ بظاهرة أخرى هي مزيج من تجربتك وعمق رؤيتك للواقع ، ثم قوة اندفاعك نحو الحاضر والمستقبل . فقد كان لديك نشيد ذاتي ترددُه ، وصوت متناغم يواكب قامتك . فحرصت على أن تكون أنيقاً بأسهل الملابس وأبسطها كان واضحاً . وفعلاً كنت مثل كرستال يتجول في المدينة .

لا أدري ماذا أقول أيها الحاضر بيننا ..؟ هل أكتب عنك ..؟ أم عن صحبك ..؟ أم عنكم جميعاً ..؟ فالزمن قصير ، والذاكرة متعبة ، والكون يمور ويدور في حلقة مفرغة ، لا معنى لوجودنا ، يقودنا العميان ، وتتناهبنا المصالح ، . تتسلط علينا من لا رحمة لديهم ، فأخوة يوسف كثر في هذا الزمان ، والدنيا غدت جباً كبيراً سيضيّع الجميع . فلا زليخا ولا قوطيفار هنا ، ولا سرجون ولا أحلام المسجونين . بتكأ الآن معدٌ وحافل بالفاكهة . والسكاكين بأيدي الرجال وليس عند النسوة فقد سنها الكلام ، والكلام وحده . الكلام الذي وراءه قلوب قاسية ، وأصابع خشنة . فويل لنا ، ويل لنا يا خالد..! كيف الحديث إذاً ..؟ فلا أنت انفصلت يوماً عنا ولا صحبك فكروا بمغادرتنا ، بالرغم من نأي بعضهم على أطراف الكون وفيافي المنافي وجب العالم السفلي ، وضمن أقفاص

الأسر ومناقبه الصيفية، لكنهم صحبتك ، حيث بقيت لوحدك في ظرف سياسي قاسي ، وكنت أنظر إليك . ربما ما أُلاحظه عندك من حركة وتجوال ، تملأ بها فراغ الواقع والوجود في أقسى الحالات وأشدها حذراً . كأنك تضع طاقية الإخفاء ، إذ لا يراك سوانا . كانت صورتك تظهر لي وسط الغرفة الصغيرة والمظلمة ضمن جعجعة الأشياء واصطفافها، والخراوات وتعاقب اغمارها. وبالكاد أزحت صورتك عن ذهني تماماً ريثما ينتهي مراثون المحنة ..! كي لا أراك إلاّ نقطة بعيدة سرعان ما تلاشت في البعيد القصي ، فاستقرت نفسي وملأتني الفرحة في أشد الأماكن حزناً وقسوة . بعد ذلك قلت لنفسي :حسناً فعلت يا رجل، فخالد كتاب مفتوح للجميع ينبغي عدم طوي صفحاته . فالأدع يراعه يتواصل بمثل ما يزخرف جسده فضاءات الشوارع والأزقة بشتى الألوان ، ويفعمه بعذوبة الموسيقى الأليفة ، فأنت قامة شامخة من الشعر يا خالد، وسلّماً جديداً في الموسيقى . فكيف إذا اجتمع الاثنان معاً ..؟ إنها قصائد تتردد على أفواه الطرقات ، وتحفظ في أفئدة أزقتها ، وبين لب أشجارها ، فقد احتال على شعرك الزمن وسرقتك أمهر اللصوص ، لصوص الشعر والكلام ، ورواد البلاغة والفصاحة ..! لكنك بقيت لوحدك قصيدة كاملة يرددك الزمن ما امتد وطال ، يحبها الكهول قبل الشباب .

خالد .. أيها الكرستاني..

ها أني تعديت السبعين ، وصحبك ما زالوا وسط ظهيرات الصيف وقسوة برد الشتاء يلتمون مع بعضهم ، تلمهم المواقد ، وحكايات الستين، لا يتعلموا الحكمة إلا من أفواه العامة ، نابذين بريق الدنيا وغواياتها، تأخذهم الطرقات الخلفية ، شارع عشرين وشارع الهوى ، والنبي . ابتعدنا عن بعضنا كثيراً ولكن جمعنا خيط طيف يتحول بنا في الفضاءات ، وينقل ما خفي في الضمائر لبعضنا كحمام الزاجل يدور حاملاً أسرار الضمائر . فقد يموت الشعر على الأفواه ، لكن الشعرية لا تموت في الأشياء أتذكر ذلك يا خالد..؟ ها اني أتذكره ، فإننا لم نتعلم سوى شعرية المكان والزقاق والدربونة، ولا يعرف غيرنا أي عذوبة تنبع من هذه الأماكن المتعبة والمقصية. إنها شعرية الصرائف والأكواخ وبيوت الطين ، مشدات رؤوس الأمهات والخالات والعمات وعصاباتهن ، أجساد الحمـــالات الصابرات على أحمالهن الثقيلة على الظهور في أ سواق الخضار او الصوف ودهن الحر ، وبائعات القيمر في الصحون عند الفجر الأول في باب الشطرة والسويج. لقد فضض بنا ذلك الواقع وأبعدنا عن كل شرور الحياة وضمعها ، تعلمنا أن نقول للآخر اعط ولا تفكر في أن تأخذ ، وها أننا نسير يا خالد على نفس السمفونية التي أسمعتنا إياها الآباء .

أسأل: كيف هي صورتك لو عشت معنا إلى الآن ..؟ هل تتغير سحنتك ..؟ فتصبح بلون الرماد كما نحن ..؟ أم تبقى قمراً يشع ..؟ لقد

أكلتنا الأزمنة ، وما زالت تنوك لحمنا وتقضم عظامنا ، فقد خرج من جوف الغابة من لا يرحمنا . جاءونا بشتى الصور والألوان ، حملونا على محفات الموت، هيئوا لنا التوابيت صفوفاً وهدروا لحمنا قرباناً للترب . ولم نفق من حلمنا إلاّ والكون يدور دورته العكسية ، فأنت لا تعرفنا الآن جراء ما نحتت فينا السنين ، فغدونا كالصخر الجلمود . فقد نحتوا صخر وجودنا على وفق ما يريدون ، بل أبطأوا سير الكائن فينا باسم الله . فالويل لهم ، والويل لنا ، هل يتسارع فيك الزمن الآن فيتقل كاهلك ..؟ فقد كثر الضرب بنا حتى افتقدنا الإحساس بالوجع ، والآن لابد أن أُجيب على أسئلتك حال حضورك جمعنا ، فأنت الكرستال الباقي ، وأنت صورتنا الأزلية ، كما قال الشاعر (ناهض الخياط) ، وأنت تعرفه ، فقد نعتك بالكرستال الشبوعي ، وحسناً ما احتار من النفائس كي يضعك صنواً لها، أيها النقي التقي المشع بالنور ، أيها العقيق النفيس . فقد عاد (الخياط) ليوقظ فينا صفاتك . هاتفني وحدثني عنك وعن الماضي ، وكدت أدخل حلال البكاء من فرط حديثه . ليس من حزن كدت أبكي بقدر ما اعتراني حفر صوفي جاصف بمثل ما كنت أُقلب شخصيتك في رواية (جمعة اللامي)كنت صبوراً ، مشرقاً بالأفكار كما وصفك ، مؤمناً بما تقول . أتذكر أفكارك وألحظ طروحاتك كما لو أنك تمتح من ماء البئر الذي لا ينضب، فقد أعاد لي الشاعر شكل الهرم المقلوب ، أعاد لي وجهك ورونقه ، حتى أعدت ترتيب ما صاغه كي أستكمل دورة التصور والكلام

بمثل ما يفعل الفلاح في ساقية الحقل . تذكرتك وأنت تأخذ حيزك الزماني والمكاني أمام شباك موقف السديناوية المستطيل . تأخذ لك نفحة من هواء نقي ، وتدخر صورة سريعة لما هو خارج ضيق الحيز . ثم تعود إلى مكانك. كنت أراك وأرى صحبك . ترانا ونحن نخطف من أمام المركز خوف أن يعرفنا أحدهم فينقض علينا متحفين . كأننا نبعث برسائل برقية تدل على وجودنا ، واستمرارنا على الحياة . تبتسم دليل الرضا ، ونمرق كما المياه في الأنهار . تلفح وجوهنا حرارة ورخامة قبوكم . كم كان الهواء لذيذاً حين يأتي من حيزكم . تعدكم واحداً ، واحداً ثم نلملم الصور في جلساتنا على ضفاف الفرات ، كي تتشكل منها قصيدة طويلة ، رشيقة كقاماتكم .

أيها الكرستاني.. لا أدري هل هي رحمة ونعمة بقاؤنا هكذا ، شهوداً على زمن رديء كهذا ..؟ !أم أنك فزت بالسبق وغادرت ..؟ فحين أتذكر رحيلك وأُقارنه بما ساقنا من زمن وحشي ، أقول :أنت الأكثر فوزاً ، ولكن حين أنظر إلى ما حولي أهمس إلى نفسي :لقد فاتك أيها الفتى ما يُسر، فأنت مولع بالتأريخ السياسي ، وجرأة الطرح ، وهذا ما يعاكس حالنا . فأنا أحلم أن تمرك ما أدركناه على مرارة ، أتمنى لك ما لا أتمناه لنفسي ، غير أني أهمس لك :لقد ضاعت العبارة التي كان يخطها المعلم حال دخوله الصف ، وقبل شروعه في الدرس (أمريكا عدوة الشعوب) ...لقد مسحها الزمن ، و لم نعد نرى سوى المراوغة ..!

خـــــــــالــــــــد .. كنت تطوي نسيج الكلام طرياً ، وتهيؤه كما هو قرص الخبز . ففاكهة الحديث لديك على أوج نضجها ، وباقات زهورك يانعة على طول الزمن ، لكن السؤال الذي يلاحقني : هو كيف أن لك أن تصبر وتتحمل ذاك الألم الذي داهمك في قصر النهاية ، وأنت السيسبان الملموم على عظمه ..؟ ! في مساء أحد الأيام كنت أ جالس الأخوة(حسين السيد فليح وكريم القصاب) ، وكانت والدة كريم تصغي لحديثنا . حدثنا ولدها عنك ، وحدثنا حسين عن تلقيه خبر إستشهادك وتساؤله في المنفى .السؤال نفسه الذي راودني ، قال :في لحظة سماعي خبر الاستشهاد، وفي غمرة إعدادنا للاحتفال التأبيني لخالد ، كان السؤال يراودني ، ولكن ليس بحزن طاغ ، بقدر ما كان بفرح الرجولة الصابرة . كيف تحمل خالد كل الآلام حد الموت ..؟! وما زلت أسأل ويسأل حسين وكل الأصدقاء . وكان (كريم خميس القصاب) رحمه الله قد حدثنا كثيراً عن خالد وعلاقته بثوار هور الغموكة ،وعلاقته بــ الشهيد (خالد زكي) وآخرين . لكنه ركز على مشهد قال أنه لا ينساه أبداً إذ قال : رأيته بأم عيني في آخر أيامه في المعتقل . كنا لا نرى خالد أول الأمر بقدر ما نتعلم أخباره من هذا أو ذاك . فكل منا في زنزانته . لكني لا أنسى تلك البقعة الخضراء بالثيل وسط المعتقل . كانوا يـــُخرجون خالد من زنزانته ، وهو يسير الهوينا على أطراف أصابعه المسلوخة الحمراء جداً . كان جسده نحيلاً وضامراً أكثر مما اعتدناه. يرتدي فانيلة بيضاء وبنطلون بيجامة مقلم

، يقوده السجـــان واضعاً ساعده تحت إبطه ، كأنه يحمله وهو يتحامل على أصابعه بحذر ، حتى يصل إلى منتصف الثينة. يجلسه أمام شاشة التلفزيون ويغادر . كنا نراه ساهماً داخل حوض كرسيه ، ولم نره من بعد ذلك مطلقاً وضاعت أخباره . فقط سمعنا بالخطأ الذي وقع فيه الجلاد (ناظم كزار) بأن أحرق قدميه بعد أن لفهما بالقطن المغمس بسائل السبيرتو، وحدث ما حدث وضاع خالد مع جمع الضائعين المانحين الوطن أعز ما يملكون. وقلنا ما قلناه، وسمعنا ما سمعناه ولكن الموت واحد ، سواء زحفت الغنغرينا أو هوت على رأسه طلقة الرحمة ، فنامت إلى الأبد . فخالد راحل وباقٍ في آن واحد ، موصولة صورته مع جمع الشهداء الميامين.

أيها الكرستال.. كم فكرت أن أستلك من رواية(جمعة اللامي)الثلاثية الأولى ، كي أتحدث عنك خارج النص ، غير أني حاذرت من اقتحام حرمة النص وقدسيته ، فاكتفيت بالتذكر ، فصورتك المنشورة كانت الإشارة الأولى التي شرعت أمام ذاكرتي البوابة ، إذ كانت خير مدخل استطعت أن أقف من خلاله على بعض مما يسعفني ، مبقياً ما كثر مناسبات أخرى ، فأنا ما زلت أبحث في أوراقي عن ورقة فيها قصيدة لك ، وبخط يدك الجميل . أحتفظ بها منذ أكثر من خمسين عاماً . علّها تثير لي صوراً فأحرر نصاً يليق بك أيها الكرستال الشيوعي .

حديقتك يا خالد ورصيفك الباهر:

الحديث عنك يطول يا خالد ، أيها القصيدة التي مازالت تتهادى على غصنها النحيف ، متجولة بين شوارع المدينة وأزقتها . وها أني أثير مفقات الذاكرة مجدداً .. أيها الكرستال ولأجل هذا أزح عنك غواية السحر مرة أخرى ، لكي نصطلح مع أزمنتنا التي امتدت بيننا كمسار هيولي ، لكنه ثقيل ، لم نستطع من خلاله سوى أن نطأطئ قاماتنا لكي تمر قواقله الحديدية . وأنت براء من زمن كهذا ، فقد اكتفيت بزمنك النقي والنثاير ، والذي صاغ صيرورتك ، ونحت قاعدة نصبه . فيا خالد ، لنعد ولو قليلاً لبعضنا ونلملم شتات ما بعثرته منا السنين ، فالظهيرات ما زالت قائمة ، لكنها ليست كمثل تلك الظهيرات التي احتوتنا أجنحة مثابرة على صنع الحياة ، فقد تذكرت الآن ما قلته من خلال ثلاثية جمعة اللامي الأولى ، حيث قلت متحمساً موقفاً آمنت فيه حد الفناء :

(عزيز.. لا أستطيع أن أخرج من جلدي)

فقد يتصور القارئ أن هذا قول رواية ، تطلبته الصياغة ، فهو لا يعرفك . ولكن نؤكد لمن يعرفك جيداً من مثل أصدقائك ورفاق دربك ، من أن موقف كهذا لم يكن ضرباً من الخيال الروائي ، فأنت من سار على منوال القول الذي ترسخ في لا وعيك ، وتمثل سلوكاً يحتذي خطوات من سبقك في التضحية من الشعراء . كنت أرى فيك هذه التضحية ، يوم

كنت تغادر برودة بيتك وسحر الظهيرات المثلجة، وأنت منحدر – كما يعرف أهل المدينة – من أسرة مترفة توفرت لها سبل العيش بارتخاء واطمئنان ، غير أنك كنت تغادر مثل هذا المكان ، تاركاً حقل الأسرة اليانع لكي تمرح وسط حديقة منزلك الذي شيدته بقناعة تامة ، ففي تلك الأيام كان لكل منا نفس المنزل ونفس الحديقة التي نـــشيــد من خلالهما أحلامنا غير الرومانسية . كنــا نحاول أن نقترب من الحياة ، من خلال دخولنا المنزل البهي الذي ربـــانا على أحسن صورة ، فترك لنا حرية الاهتمام بحديقته الوارفة ، ولم يعترض على توقنا وإصرارنا ونحن جمع الشباب الذي ترعرع على أيدي من أحسنوا تربيتنا على حب الوطن عبر حب المنزل عن وعي تام وقـــرار ، مندفعين إلى تأثيث حدائقنا بشتى أنواع الزهور والأشجار المعمرة حتى لو اقتنيناها من رصيف شارع زهورك أو من رصيف (سان جون بيرس) أو (ايلوار وأندرية بريتون) . لكنك لم تدخر شيئاً من بيتك بل وهبت كل ما امتلكت ، ففي جسدك أكثر من خلية نحل وأنت تسير تحت وقد الشمس في ظهيرات صعبة ، لكي تنجز واجبك للمنزل الذي أمـــنك على ممتلكاته التي هي ممتلكاتك ، بل ممتلكاتنا جميعاً. فقد تربينا على أن لا نقول .. هذا لي ، وإنما ..هذا لنا .ووسط هذا كنت تردد :

(الغلط كان في الابتعاد عن البندقية)

والمرة الثانية عدت من هناك ، من المسطحات المائية لتقول :

(لا فائدة .. أن الخارج كله خداع في خداع).

وأي خارج تعني ، هل مغادرتك المسطحات ، حيث صحبك هناك .. خالد أحمد زكي .. عقيل حبش ، حسين ياسين ، مظفر النواب ... من..؟ فاضل ، كمال كمالة ، أمين الخيون ، الفلاحين ، صيادو السمك وسط غمر المياه الأزلية في الغموكة ، منطلق الثورة واختيار الطريق لإزالة القهر . كنت مثابراً تدور كالبندول تفاوض هذا وتصارح ذاك ، تبذل كل ما تهيئ إليك من إمكانيات كي تحافظ على منزلك وحديقته .. كلنا صحبتك في المنزل وفي جهدنا لتأثيث الحديقة .. عبد الرزاق رشيد الناصري ، قتيبة الشيخ نوري ، حسين السيد فليح ، ستار حسناوي ، عبد الرحمن طهمازي.. لكنك تختلف عنا في اندفاعك وفهمك لما يحيطك . أنت واحد في جماعة ، وجماعة في واحد ، هذا ما أتصوره وأنا استعيد تلك السنين أيها الكرستال ، فها هم صحبك وسط منزل كبير وحديقة غناء ، على الرغم من قسوة السنين التي غيبتهم في المجهول . فأنت الوجه الذي لم يغادر مراياهم ، ففي كل صباح مشرق أو مدلهم ، كانت صورتك تنعكس ، مستظهرة كل ثقل السنين ، مبددة وحشة الأمكنة في الزوايا التي دخلتها ، والأحلام التي لم تحققها . فقد أكد (عزيز الموسوي) ، وأنت تعرفه أكثر منا، ليس عزيز البطل في نص اللامي ، بل هذا ومما عرفته في الحياة ، وعرفناه ، بل تتلمذنا على يديه . قال لي الراحل (مهدي السماوي) يوماً، بعد لقائه بالموسوي .. لم يترك لي فرصة للحديث ، إنه مكتبة متجولة .

حدثني عن الفلسفة والاقتصاد والفن والأدب ، تأريخاً وواقعاً ، واستطرد في المسرح وتاريخ الأديان ، وحين حاولت أن انتشل منه حيزاً من الزمن لأحدثه عن المسرح والإخراج المسرحي وكتابة النص ، انبرى للإسهاب في هذا المجال . هذا هو عزيز الموسوي ، الذي حوله الجلادون إلى هيكل لا يعي شيئاً ، وسجل اسمه في صفحة غامضة ، فقد كان متحمساً على اندفاعك المبدئي ، وعلى همتك ، لكنه لا يرتضي إليك الحزن ، لأنك من الكرستال الثمين ، كان يقول : { ماذا فعل خالد الأمين بنفسه ، وماذا هو هذا الشوق إلى الماء والأرض والبردي والماضي ..؟ } ، ولا أشك في أنه لا يدري بأنك ولدت قرب ضفة الفرات ، فبيتكم لا يبعد عن مجراه سوى أمتار ، لذا لقمتك أمك حلمة النهر ذو المياه المقدسة ، فالفرات أبوك وأمك لأنه يمتد مع أجسادنا صيفاً وشتاء ، فالمولود قرب ضفافه يرضع من أثدائه ، والآخرون الذين ولدوا بعيداً عنه ، أودعت مشيمتهم وسرهم في حوض مياهه ، فباركهم منذ تلك الساعة وهمس في آذانهم ، أن نذرتكم للوطن والشعب ، فلا تبخلوا عنه بشيء . وفعلاً كان السباقون ومنهم.. السيد وليد ، وأبو كريم وعلي وصباح وأبو أيمن ، فتية المنزل وشيوخه ، وزهور حديقته الوارفة الظلال . ثم خفقت بهم ، رافع الرأس ، منتبذاً أحلى قصائدك التي نعرفها مهما طالت عليها أيدي الآخرين الذين لا يعرفون سر الشعر وملكوته ، فراحوا يصنعون لهم تاريخاً أو وجوداً واهياً .

قال (كريم القصاب) بعد خروجه من قصر النهايــة .. في لحظــات خروجنا إلى المغاسل ، مغادرين الزنزانات ، تحت حالد وهو يســير علــى أطراف أصابع قدميه ، بهدوء المتألم الحذر ، فقــد كــان باطنــا قدميــه مسلوقتين، كان يرتدي بنطلون بيجاما مقلّـم وفانيلا داخليــة ، يســير أفويتا باتجاه الحديقة . كان كعود السيسبان ،خيط حرير يمشي متهادياً ، لا يستطيع حمل جسده وأقول له الآن : إنه قصيدة تتمشــى ، تتحــدى الجلادين برهافة . ثم قال : لم نره بعد ذلك مطلقاً على الرغم من مجــاورة زنزانته لنا . وأنا أؤكد أنه قصيدة رثاء تمشي لتنسج تاريخ الأسى لكل من غُــيّــبوا في الأقبية ولم يــغُيــبوا عن الذاكرة ، فها هي صورهم تشــع كالأقمار ، فقد غابت عنك الصور البشعة التي رأيتها ، أو التي نطقت من خلال جسدك الواهن وهم يرسمون عليه كرابيجهم وسياطهم ،فأنت تنظر إلى أكباد الدم فوق المناضد وتحتها تماماً رأس جثة فصل عنها رأسها . نظرت إلى الرأس ، أنه ليس رأس خالد الأمين بالتأكيد . يبدو أنه يشبهك تمامــاً . من غرف التعذيب إلى أناشيد الجبهة .. هل هــذا صــحيح ..!؟ وكــان الصمت سيد المكان . وكنت كمن يمشي فوق الماء ، جليلاً كما كــان ينظر إليك (حسين السيد فليح) نظرة المتصوفة ، برمالة ورقة وأبوة فائقة الرهافة والجمال ، ويومها حدثني حيث كنا في بيت كــريم القصــاب .. تلقيت خبر رحيل خالد وأنا في ألمانيا ، وصدقته وكذبته في آن واحد ؛ فقد صدقته لأني أعرف طبيعة خالد الذي لا يبخل بجسده حين تحين الســاعة ،

إذ عرفت إقدامه واستعداده إلى التضحية ، لأنه قرين المبادئ ، وكـــــأنه

لأن ثمة وقت لابد أن يتاح له لكي يقدم المزيد ، على العكس منـــا حـــين

قررنا مغادرة الوطن .

فيا أيها الكرستال الشعري أزح عنك غواية السحر وأفق .. فلنا معك مشاوير طوال بعـــــــــــد .

من حكايات المثقف المتحاور مع الذات والآخر

مدينة الناصرية حاضنة لذوي الاهتمام الاستثنائي في الثقافة والمعرفة . وهم ولادات حتّمت وجودها الاستعدادات الجينية المعرفية بمقابل المعرفة المكتسبة .ومثقف المدينة ؛ هذا أو ذاك ، لا يتعب من اقتناء مصادر ثقافته . فهو منتمي يومي للمكتبات والأكشاك (مكتبة الأهالي /جبر غفوري ، ومكتبة طاهر غفوري ، الوعي الوطني) والأول له باع في تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي ، وله علاقة مباشرة مع الماضي (كامل الجادرجي) كان يوزع جريدة الأهالي ، ويُصغي إليه كل من جالسه للحديث عن تاريخ الحركة الوطنية في البلاد وعلاقة حزبه بالتشكيلة الوطنية . والسيد جاسم من روّاد المكتبة . فكثيراً ما كنت أصغي وأنا أفتعل البحث وقراءة عناوين الصحف ، أو أصطنع حالة البحث عن كتاب ، لكي أنهل من تلك الصياغات الكلامية المتفاهية عن السياسة والتاريخ العريق للحركة الوطنية ونضالاتها ، قامة قصيرة إزاء قامة تعلو بكل مقومات العلو. كان السيّد

متحدثاً جيداً ، يسترسل بعفوية متمكنة فكرياً وسياسياً ، وفي كلامه ربط موضوعي ، وتسلسل منطقي . كنت أحسه وأرافقه وأنا شاب في مقتبل العمر ، لأن حديثه يولّد لديّ قناعات ، فهو لا يبتعد عن وحدة الموضوع الذي يتحدث فيه المتحلقون حوله .هذه المركزية في الكلام لاحقتني حتى في مهنتي كمعلم .

يعيش يومه مع الثقافة ، ابتداء من المكتبة المركزية العامة في المدينة ، وأمينها (صبري حامد) وهو أديب ومتخصص في كتابة القصة ، جايل معظم المهتمين بحقل الثقافة ، ومنهم (عبد القادر رشيد الناصري ، عزران، عزيز السيد جاسم، رزاق النجّار ، عبد الرحمن مجيد الربيعي ، كاظم عجمي ، عبد الواحد الهلالي ، حسين الهلالي ، محمد الأزرقي ،عبد الخالق العطار ، قيس لفتة مراد ، رشيد مجيد ، قاسم دراّج ، الفنان صبري فرج ، وعبد الرزاق رشيد الناصري ، خالد الأمين ، فخري رشيد ، أحمد الباقري ،ملقيس نعمة العزيز، مهدي السماوي) ومن أتى من بعدهم من أجيال اذكر منهم (عبد الجبار العبودي ، محسن الخفاجي ، أحمد الجاسم ، رمثة الجاسم ، حيدر الجاسم ، كاظم الخالدي ،عبد الرحمن الناصري ، جاسم عاصي ، عبد الهادي والي ، رزاق شناوة ، حسن عبد الرزاق ، سلمان داوود الشويلي ، زيدان حمود) وغيرهم من الجيل الثالث ، فهم كثر ، ونماذج مثابرة على الثقافة ، تتلقى منهم الأجيال درس الثقافة وكيفية أن يكون لها دور في بناء الإنسان .

ذكرت عن مسيرته اليومية ابتداء من المكتبة المركزية وصولاً إلى مقهى (أبو أحمد) مستقر المثقفين وموطن الأجيال المتعاقبة . فالمدينة ولاّدة، يحتضن الأول الثاني ويرعاه ، أي أن الرواد يجدون في شلة الشباب مرايا يستعيدون من خلال صفاء ونقاء سطحها صور وجوههم المتعبة .ولكي يتطلعوا إلى سحنائهم التي أتعبتها السياسة قبل الثقافة . فبمثل انتمائهم إلى إرثهم السومري ، كان انتمائهم إلى فكر معاصر يرشدهم إلى الكيفية التي يتم عبرها بناء الحياة . إنهم أجيال توّاقة للتجديد .

المقاهي مستقرات:

المقاهي تعددت في المدينة . وهي ذات تخصصات مهنية . أي أنها تأوي ذوي الحرف . وملتقاهم داخلها من أجل التداول بأسرار مهنهم . وللمثقفين مقاهيهم . وكما ذكرنا مقهى (أبو أحمد) صاحبها الذي اعتاد أجواء المثقفين ، التي تخلقها أمزجتهم الزئبقية ، ويتقدم باحترام لذوي التاريخ المزيج بالسياسة والثقافة العامّة والمتخصصة . فهو أنموذج يفرز الأنواع من بين بعضها . لذا فالأديب حين يأتيه ضيف ؛ لا يذهب به إلا إلى مقهى (أبو أحمد) والأدباء لا يتفقون على اللقاء إلا داخلها . فهي تسحبهم بتلقائية دائمة . ينشأ الأديب لكي يحوز على فرصة المساهم في التجمع داخل ملتقاهم . فكيف تكون الخمسة التي تضم السيد عزيز ، وشلة بيت (آل عمران) وهم مجموعة من الموزعة اختصاصاتهم بين الأدب

والسياسة والمسرح والتشكيل . وقد اكتسبوا هذا اللقب من جدهم (عمران) وهو مختار قدير .

كان السيد عزيز صديق العائلة ، لا يفارقهم ، سواء في بيوتهم أو مجالات ممارستهم لاختصاصاتهم . فهو الأب الروحي لهم . لم ينسهم حتى عندما استقر في بغداد . حين انحدر من ناحية النصر ، تجده مع (عزيز عبد الصاحب) الفنان المسرحي والشاعر القدير ، يلتف بعضهم مع البعض الآخر في المقهى أو المكتبة . وقد تجمعهم مقهى (التجار) وهي وإن اتخذت من مهنة التجارة اسماً ، لكنها بالتدريج وبتعاقب الأزمنة ، غدت مقهى المعلمين وبعض المثقفين . يزاولون داخله لعبة (الدومينو والطاولي) وأذكر إن هذا أثار حفيظة ومزاج(كاظم عجمي) يوماً ، وهو صديق حميم للسيد جاسم ـــــ كما سأتناول علاقتهما ـــــ ولأنه مثقف يمتاز بالعصبية ، والمتأتي من الخوض الفلسفي في ثقافته ، وقف في ذلك اليوم وسد باب المقهى ، معترضاً الداخل والخارج مرتجلاً خطبة ما بعدها خطبة في تاريخ التعليم ، فهو معلم أيضاً قائلاً : ماذا تفعلون ، العطلة ليست للهو ، أدخلوا المكتبات ، وانهلوا من علمها وثقافتها ، وزودوا أنفسكم بالثقافة لكي تربوا الأجيال عليها جيداً .. ؟ وما إلى غير ذلك من الكلمات الرنانة . وكادت أن تنشب معركة بينه وبين أطراف من روّاد المقهى ، لولا تدخل البعض لإبعاد (عجمي) عن المقهى ، وربما ذهب إلى مقهى (أبو أحمد) المهم ابتعد عن مقهى التجار وقتها .

وثمة مقهيين هما (العروبة واللواء) وهما يستقبلان السياسيين من روّادها ، وكثيراً ما كان يتصاعد الصراع بينهم ، يصل حد الصراع بالأيدي .

أما مقهى (عزران) فهي أقدمهم جميعاً ،وحسب ما يروي الرواة ، كانت مستقر حلقات المثقفين الروّاد في المدينة . تدور حواراتهم على نار هادئة كل يوم ، وصاحب المقهى (عزران) لا يفارق المجلس قط ، حتى لو ابتعد لشأن يلبي من خلاله حاجات الزبائن ، لكنه تدرب على الاصغاء عن بُعد . إذ تراه يُسارع مقترباً من الحلقة ليُرد على ما تحاورت المجموعة بشأنه في ضروب الثقافة : شعراً وقصة وفلسفة واقتصاداً وسياسة ، فلا يستغرب أفراد الجمع منه ذلك ، لأنهم يعرفون من يكون (عزران) هذا ، إذ له بحوث في الفلسفة ، وحصراً أنجز كتاباً عن (سقراط) لا يُعرف مصيره .

السيّد جاسم وروّاد المقاهي:

ضمن هذا المحفل اليومي وعلى مدار السنة ، كان المفكر والأديب ذي القلب الكبير(عزيز السيد جاسم) قد ترعرع ، بعد أن انحدر من ناحية النصر القريبة من قضاء الشطرة ، من أسرة شكّلتها المعارف ، فأبوه رجل دين ، وسيد جليل يحتكم في مجلسه القوم . إما ليفضّ نزاعاتهم ، أو لزيادة معارفهم في أمور الدين . (السيد عزيز) درّب نفسه منذ البدء لاحتواء معارف متنوعة ، لا لكي يمارس فعل الظهور والتشدق بمعارفه ، وإنما لبناء شخصيته الثقافية ، فمنه تعلّمت التنوع والتحوّل والتجديد في الكتابة ،

والمعرفة قبل كل هذه الفعاليات . وكما كتبت في مجال آخر ، أن معظم أصدقائه ، اختاروا له اسماً اقترن بواحد من روّاد الثورة الفرنسية ، ألا وهو (ميرابو) لا لشيء يخص الثقافة والثورية فحسب ، بل أنه اقترن بخاصيته ، كونه خطيب الثورة وملهم الجماهير للتمرد على حكم لويس السادس عشر وعائلة (آل بوربون) فالسيّد خطيب من طراز خاص ، ولباقته بين الجموع المتظاهرة ، تكتنفها قوة الشخصية المتأتية من شجاعته التي اكتسبها من معارفه . فهو يلتهم ما يرد في مصادر الثقافة . ينهل ويرمن استثنائي من تلك المعارف . وهذا ما شهدت له دراساته في الآداب الثورية عن الثورة في أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا، وحصراً في كوبا ، وما كان قد وجده في أنموذج (جيفارا ودوبريه) وما كان يحلم بجمع رجال الثورة الذي طغى على جمعه صفة جبهة المثقفين ، من شعراء وفنانين تشكيليين ومسرحيين وموسيقيين وأطباء وسياسيين . هؤلاء رفدوا بمواقفهم وتضحياتهم من أجل القضاء على الجبروت الأمريكي . أتذكر حين أطلق (كاسترو) صفة (أمريكا نمر من ورق) أثناء حصار مضيق جزيرة أم الخنازير ، هبّ له المثقفون الثوّار في المدينة ، وكان (عزيز) في مقدمتهم ، مرفوعاً على أكتاف المتظاهرين ، ليلهمهم قوة وتواصلاً تعبيراً عن الفرح الذي طغى على أهم مناطق العالم وفي قلب الولايات المتحدة الأمريكية . وبمثل هذا كان فرح السيد عزيز ما كان من ثوّار أفريقيا (لومومبا ، مارتن لوثر كنج، ستوكلي كارامايكل) كانوا يمثلون القوة السوداء بوجه أمريكا وبقية

قوى الاستعمار . وكتب آنذاك عن (جيفارا) ودخوله إلى غابات وأحراش بوليفيا ، مستمراً في النضال والكفاح ضد الاستعمار . لم يثنه أو يبعده عن النضال كرسيّ الحكم .فقد كان وزيراً للزراعة في الحكومة التي شكّلها (فيدل كاسترو) غير أنه آثر الاستمرار في تحرير الأرض والاستمرار في الكفاح المسلّح .وأثنى على تصرّف (ريجيس دوبريه) في قراره المتضمن العودة إلى فرنسا ، مبشراً ثورياً ، لأنه اعتاد حياة ناعمة في ضواحي باريس، متحدراً من طبقة برجوازية متميّزة في المجتمع الباريسي ، لكنه تميّز بالانسلاخ عن طبقته ، والانتماء إلى الثوريين في العالم .

حكاية السيد التي ولدت حكايات:

حكاية (عزيز السيّد جاسم) لم تكن حكاية قام بتأليفها الكُتّاب ، بل أنه كتبها بسلوكه اليومي ونضاله المستمر ، واعتزازه بما كان فيه . له من الاجتراحات الفكرية المهمة والخطيرة ، يعرفها كل من جايله ، وقرأ فكره المطروح في مؤلفات ورواياته . يكتب في كل شيء ، فقد وجد ملـكته ميسورة السبيل عن هذا أو ذاك . وفي يوم أخبرني فرحاً الكاتب المسرحي (مهدي الناوي) بأنه نظّم موعداً مع المفكر (عزيز السيّد جاسم) وأنه سيلتقي به في صباح اليوم التالي . قلت له محذراً ، وبما أعرفه من مهدي من قوة معرفة باختصاصه ، مندفعاً ومتحمساً للمسرح والتجديد فيه ، كتابة وإخراجاً . قلت بالحرف الواحد : احذر من السيّد . ولم اكمل عبارتي ، لكي أتمم المعنى ؛ أن احذر من ثقافته الموسوعية ، فلا تذهب بك الخيلاء ،

وتعتقد بأنه سيتخذ منك مصدراً لمعرفة خفايا المسرح . وفي اليوم الذي تلا لقائه ، وجدته على دهشة لا يستطيع الفكاك منها ؛ وذكّرته بما حذرته منه ، لكنه لم يتركني أكمل عبارتي وقتها ، وحدثني عما واجه من الموسوعة الثقافية المذهلة والمتمثلة في شخص السيّد. عندها قال ساردا حكايته : التقينا ؛ وزحفنا مشياً حتى منتزه المدينة . كان السيّد لا يكّل عن المشي ، فقد أشباه الكلام المليء بسر المعرفة طول المسافات ، فتارة نجلس على مساطب المتنزه ، وأخرى ندور في منعطفاته المشجّرة . والسيّد يحدثني، عن المسرح الإغريقي واليوناني ، معرّجاً إلى تجربة (صموئيل بيكت ومسرح بريشت) وراح يُحلل نص (في انتظار غودو) بروية وعمق ، رابطاً بين تفاصيل النص وتفاصيل الحياة الأوربية . معرّجاً إلى المسرح الطليعي ، والمسرح العربي منذ حركة الروّاد في مصر . ثم تحدث عن المسرح العراقي بتفاصيل قد لا أعرف بعضها ، وأتى على مسرح الفنانين (يوسف العاني ، كرومي ، صلاح القصب) بجرأتهم في التجريب المتقن والمنضبط .واعتبر وجودهم ضمن كادر التدريس الأكاديمي قفزة نوعية ، ستُعطي نتائجها ضمن الأجيال القادمة . وما زادني استغراباً ، أنه كان مطّلعاً بتميّز على بعض ما كنت قد قدمته من أعمال مسرحية . كان بالفعل قد شاهدها . وهذا ما لمسته من التفاصيل في شرحه . حينها تذكرت ، وكان بودي أن أعيد ما كنت قد أخفيته من معارف في شخص

السيّد ثقافياً ومعرفياً . فقط اطلقت ابتسامة الرضا والفرح لما حققه من انجاز نتيجة لقائه ذاك .

حكايته مع عجمي:

كاظم عجمي ، وكما ذكرنا شيئاً عن طبيعة شخصيته المتناغمة مع انفعالاته الثقافية ، التي حققتها ثقافته العالية ، لاسيّما الفلسفية منها . فهو شديد الحرص على الإنسان ، خاصة بناء وعيه . وعنده الأداء الوظيفي في الحياة ، متمركز في حاصل تحصيل الثقافة والمعرفة المتحركة ، المعرفة البنائية للوجود ، وليست تلك المكرّسة وجودها داخل الذات ، وإنما المتحركة في مجالها الاجتماعي . فالوظيفة مهما كانت صفتها مقرونة بالوعي العالي . وهو صديق للسيد جاسم ، بل من خلّاصه المقربين في وجوده الاجتماعي والثقافي والسياسي ، شأنه شأن (آل عمران) إذ يروى عنه وهو المعلم الجيّد في أداء وظيفته . كان تلاميذه يعرفون أنماط أدائه للدرس . فتلاميذ الصف في ريف الجنوب ، حيث يعمل ، وحسب أوامره ، يُفرغون غرفة الدرس القصبية (الصريفة) من الرحلات ، ويفرشون الأرض بالحصران المصنوعة من خوص النخيل ويهيؤون حصيراً خاصاً للمعلم يتميّز بنقشه الملوّن . هكذا يؤدي درس التاريخ ، فصحوناً جالساً مقابل صفوفهم . يروي لهم أحداث التاريخ ، ضمن لغة اختار أوسطها فهماً لهم . لذا كان درسه عبارة عن حكاية ، أو مروية يمكن هضم تشابكها التاريخي . وضحك السيّد يوماً وهو يسمع حكايتين عن عجمي ، جرت أحداثهما

تعزل عن يومياتهم الأولى : حين قرر عجمي اكمال دراسته الجامعية ، ليكون معلماً جامعياً . وبعد أن حضر أكثر من محاضرة : سأل المحاضر : وهل هذا ما لديك من درس ؟ قال الأستاذ : وماذا تُريد غيره ، إنه المنهج ! قال: هذا ماعرفته قبل سنين طويلة من الكتب التي قرأتها . قال الأستاذ : هذا ما متوفر في مناهجنا ، وربما تكون أنت مختلفاً عن ثقافة الطلاب ! لحظتها وكما يروى ، ترك (كاظم عجمي) قاعة المحاضرة ، ولم يعد إلى الجامعة قط .

أما الحكاية الثانية فتروى أن الفنان (طالب القرغولي) كان أميناً للصندوق في نقابة المعلمين في ستينيات القرن المنصرم . وقد كلفته النقابة باعتباره محاسب النقابة، أن يُرافق (عجمي) للعلاج في بغداد . ونفّذ المهمة . يقول (القرغولي) حين مثلنا في غرفة الطبيب ، دار حديث طويل بينه وبين عجمي عن مرضه . غير أن عجمي دخل مدخلاً مفاجئاً لي وللطبيب النفسي والعقلي . قطع الطبيب حديثه معه لضرورات العمل في العيادة ، ملتفتاً لي قائلاً : أنت جئت لي بمريض أو فيلسوف ؟!!

هكذا هم صحبة (السيّد جاسم) متعمقون بثقافتهم ، يحملون أسئلة صعبة الإجابة ضمن وضع اجتماعي وثقافي ، لذا وجدناهم يعشقون الكتاب ، الذي ذهب بهم نتيجة الكبت الثقافي والمعرفي ، إلى أن يُفعّلون أسئلتهم حال تحين اللحظة ، لاسيّما أثناء ما يُصادفهم من خطأ في الوجود الاجتماعي والإنساني . وهذا أيضاً ما أوصلهم إلى الأطراف المحرجة مع

واقعهم بسبب وعيهم العالي . فمن الصعب هضم أسئلتهم ، ومن الصعب أكثر الإجابة عليها . فعانوا ما عانوا ، ولاقوا ما لاقوا من حيف وصدّ بحجة من واقع الحال . فكاظم مات في الغربة ، وعزيز استقبل مصيره بروح صوفية ساكنة على الإيمان . أين كنت زمنها وأنت يا سيدي تتجوّل إبان الانتفاضة الشعبانية في كربلاء ؟ أنت تعرّف الظروف التي أحاطت بنا، والتي دفعتنا إلى الاحتباس في بيوتنا ، والمحافظة على أولادنا . أسفي على زمني الجاحد الذي حرمني من أبسط الواجبات التي كان من المؤمل تقديمها إليك . ولو أني كنت أتتبع أخبارك حتى ما بعد عام 2003 فعرفت ما عرفت .. فطوبى لك من مناضل ومثقف أصيل ، معلم أول لي في حياتي الثقافية .

حكاية طاهر النداف وصحبه الكرام:

من هو النداف طاهر هذا ؟ إنه واحد ممن يمتهنون صناعة الفُرش والأغطية القطنية (اللّحاف) والوسائد . لكن ما يُميّزه عن باقي أصحاب المهَن من أمثاله كونه : صديق المثقفين . ولكن من هم صحبه ؟ هم من يكون دكانه المتواضع في المحنة الشعبية مأوى لهم . ولكن كيف تم ذلك ؟ هل الصدفة ؟ لا يعرف أحد هذا ، فقط أن دكان طاهر يجذب المثقفين كدكان (الناصري) أما صحبه فهم (عزيز السيّد جاسم ، عزيز وعدنان وعمران عبد الصاحب) وغيرهم الكثير . يعمل (طاهر) في شأن اكمال قطعته ، بينما الجمع الواقف أو الجالس أمام دكانه ، يتحاورون في الشأن

الثقافي . وهو يُصغي إلى أحاديثهم ، فتعلّم الكثير منهم وقويت شكيمته ، خاصة في السياسة . ويومها قال : إن للسيّد فضل عليّ ... وكان متابعاً لما كان يلاقيه السيّد نتيجة قلق علاقته السياسية والفكرية مع حزبه ، ونزوعه إلى المعارضة ، نتيجة ما كان يجده خطأً في الواقع والممارسة ، فنُعت بالمتطرف !! كان طاهر خير حاضنة لهموم السيّد حين يلتقون على انفراد ، وكان الجميع يتخذونه موطن أسرارهم ، فهو المحب لهم والعاشق لأفكارهم ، نشأ في أسرتهم المعرفية ، واقترن اسمه بوجودهم حاضراً وتأريخاً .

حكايته مع رزاق النجار:

السيّد جاسم ، لا يُقيم علاقة إلا مع النماذج الاستثنائية في واقع المدينة . ولعل (رزاق النجار) بدماثته وسترته ، وعزيز كذلك متأبطاً كتاباً ضخماً ، وهما يرتادان المكتبات ، أو يجلسان في مقهى (أبو أحمد) أو يتخذان من كورنيش نهر الفرات ملاذاً أمناً لهم . وحكاية الكتاب الضخم الذي يحمله السيّد ، حكاية طريفة . ذكرها في مجلة الآداب في معرض كتابته عن يوميات السياسي والمثقف . ذاكراً ما كان يعانيه من مراقبة يومية من بصاصيّ دائرة الأمن . حتى دبر لهم مكيدة ، بأن حمل كتاباً ضخماً ، ظنه رجل الأمن واحد من مؤلفات (ماركس) فقرر إلقاء القبض عليه متلبساً بالجُرم . وفعلاً اقتاده ــــ كما كتب السيّد ــــ إلى دائرة الأمن ، فرحاً معتداً بنفسه . وحين مَثُل أمام مدير الأمن مع الشرطي،

قال له المدير : هكذا وبكل وقاحة تحمل كتباً ممنوعة وتتجوّل في المدينة ، متحدّياً لنا ؟!! سأل السيّد: وما ذا تعني بالكُتب الممنوعة ؟ قال : هذا الذي تحمله ، ألم يكن واحد من مؤلفات ماركس ؟ فما كان من السيّد إلا أن سلّمه إلى المدير قائلاً : تفضل أستاذ . قلّب المدير الكتاب ، بأن فتح غلافه السميك ، ثم طال تطلعه في العنوان . وحين لم يقنع سكوته بشيء ، التفت إلى الشرطي قائلاً : ولك هذا قاموس انكليزي وليس كتاب ماركس، السيّد يريد تعلّم اللغة الإنكليزية ليس غير . وذهبت هذه الحكاية كونها من الطُرف التي يجيد صناعتها السيّد . وقد أضافت لشخصه ميزة أخرى ، خاصة من باب التنكيل بخصمه . أما حكايته مع رزاق النجار ، فلم تكن إلا حكاية معرفية خالصة . الرجل اكتسب لقبه من مهنته ، لكن ما عُرف عنه ، كونه يُنجز عمل النجارة ، بما يتوافق مع ثمن مصاريف عيشه وخاصة شراء الكُتب . والسيّد يعرف النجار جيداً ، عرفه من طبيعة ثقافته وما كان يجري بينهما من محاورات في المقهى والمكتبة ، والذي اكتشف من خلاله الكيفية التي يتحاور النجار بها مع نفسه . لذا لم يستغرب من مصيره ، حيث التحق بصفوف المقاومة الفلسطينية وهو الرجل الذي تجاوز سن الشباب ، واختفى إلى الأبد ، تاركاً الأقاويل عنه وعن مصيره الغامض إلى الآن !

حكاية دكان عبد الرزاق الناصري:

لقد ذكرت ؛ إن مواقع الثقافة في الناصرية كثيرة ، تتعدد مثقفيها وتشعب ثقافاتهم . وكما ذكرنا من مواقعهم ؛ كان دكان الأديب والمثقف (عبد الرزاق رشيد الناصري) واحد من تلك المواقع . فلا تشاهد وأنت تمر في السوق إلا شلة من المثقفين يقفون أمام واجهة الدُكان ؛ بعد أن يضيق بهم داخل المكان . وحين كبرنا عرفنا منهم (عزيز السيّد جاسم ، عبد الرحمن طهمازي ، خالد الأمين ، قتيبة الشيخ نوري ، عوني كرومي) كان في جوف دكانه ، ثمة حيّز يحفظ فيه الكُتب ، يُعيرها للآخرين ، كذلك يحفظ أماناتهم من الكُتب . يُناقش الأعمال الأدبية ، سواء ما مطبوع منها أو مخطوط . تدور الأحاديث على درجات ، فمنهم من ينفعل فيجذب أنظار المارّين ، ومنهم يستقبل الحقيقة بكل رحابة صدر . إنه مشغل وورشة للثقافة والمعرفة . فالناصري يكدح لتوفير سبيل العيش لعائلته ، وبالمقابل ينهل من علوم الكتب ؛ متخذاً من المجالس مدارس . ونادراً ما وجدته مغادراً دكانه ؛ ولا تُفارق الابتسامة ثغره قط . كان السيّد يجلس داخل الدكان ، إما لزيارة وتواجد خاص ويومي ، أو أنه على موعد مع آخر . وكم يفرح الجميع حين يجدوه وهو عائد من بغداد ، لأنهم يعرفون أنه يجلب معه نفائس ما لفظته ماكنة الطباعة في بيروت والقاهرة ؛ فالعراقيون قرّاء من طراز خاص .

حكاية كطران الركابي وجاسم عاصي:

إنها حكاية أحاول أن أنهي بها ورقتي هذه ، التي أعتبرها شهادة وفاء للأبوة الثقافية المبكرة. في يوم مشمس جاء أحدهم بحمل ثقيل من مقهى (لقيط) حيث كنت أعمل معلماً في مدرسة القرية المحاذية لمحطة القطار في قرية (لقيط) قال الحامل : أنها حاجيات معلم جاء نقلاً من الموصل . استغربت ، مسترسلاً مع نفسي .. نحن مبعدون عن مجالنا ، فكيف لآخر يُدفع من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ويرمى وسط صحراء لا أول لها ولا آخر .قلّبت العفش ، فعرفت أنه ليس من الموصل . مستنداً إلى غطاء صوفي (إزار) فمن نقشه عرفت أنه من نتاج مدينة الحيّ التابعة لمدينة الكوت . وهي ما كانت تشتهر به من الصناعات الأخرى ، حتى بات الوصف بـــ (إزار الحيّ) وحين مثُل بيننا وجدته أقرب إلينا في كل شيء . كما وعرفت أنه من ناحية النصر ، وأنه كان في الموصل ، طلب النقل إلى الناصرية لغرض الدراسة في البصرة ، فاختيرت له مدرستنا لأنها أقرب إلى البصرة ، وأفضل وسيلة لاكمال دراسته . وحين عرف بُعدها عن كلا المدينتين ، خاب ظنه وترك فكرة الدراسة . وفي واحدة من جلساتنا المسائية سألته إن كان يعرف عزيز السيّد جاسم ، ابتسم قائلاً : إنه ابن مدينتي ، ترعرعنا سوية ، وهو مثقف كبير ، ومفكر راقي . وهكذا استمر الركابي واسطة لي لمعرفة أخبار السيّد ، وكان ينقل وجهة نظره في ما أنشر من قصص ومقالات . وكانت آراؤه طيبة في ما قرأ لي ، مما شجعني على الاستمرار بوتيرة أكبر ، لأني حصلت على شهادة طيبة من لدن مثقف

ومعلم كبير. رحم الله (عزيز السيّد جاسم) انساناً كبيراً ومثقفاً أكبر ، ومفكراً من طراز خاص .

الأبوّة المبكرة :

لا يمكن توصيف شخصية (عزيز السيد جاسم) إلا من خلال صورة الأب .والأبوة المعرفية . فكيف بأب شامل الثقافة والمعرفة والإدراك العقلي؟ إنه لا يدّخر كل هذا لنفسه . بمعنى يقدم فرشته المعرفية للآخرين ، ويصرّح بما يمنحه عقله من أفكار واستنتاجات حول ما يحيطه في الواقع ، ولا تهمه الاشكاليات ، وما تأتي به من أهوال سلبية حادّة . لذا حصد جرّاء مواقفه تلك نتائج لم تحمد عقباها . الحديث عنه طويل ، بل يستنبت أسئلة منها : من أين يبدأ امرء ، أمن مقهى (عزران) وشلة المثقفين العضويين آنذاك . تلك المجموعة التي ما انفتحت إلا على مصادر الثقافة . تضاربت الآراء بينهم واشتد أوارها ، وزعت المعرفة إيقاعها على الجميع ، ولكن بنسب مختلفة . حصلت الانتماءات إلى الأفكار من خلال الأحزاب . غير أن الجميع على صفاء موقف ، ووحدة كلمة ، ومحبة تفيض من مياهها الأنهار . وعزيز من بينهم متميّزاً ، مثقفاً عضوياً كما قال (غرامشي) يقول الحق . بل يندفع كالتيار من بين الجميع ، وما كنت أجده في اندفاعاته وأنا فتى استقبل الحياة من خاصرة السياسة ، يُحيلني إلى جمرة متقدة ، تدفعني إلى تمثله على هذه الهيئة من الثقافة التي صقلت شخصيته الثورية . حتى سمعت ما كان يُلقب بـــ (ميزانو الثورة) ولم

أعرف وقتها ماذا يعني هذا اللقب ، حتى تقدمت في الدراسة ، وعرفت من خلال درس التاريخ (جان جاك روسو ؛ وروبسبير ، وميرابو) عرفت عن دورهم قبل قيام الثورة الفرنسية ،وبعد قيامها . أدركت فصاحته وشجاعته وملكته في استتباب الكلام بكل ثقة . ولا أنسى يوم تصدى إلى (عبد السلام عارف) وهو يعتلي شرفة محافظة الناصرية ، وهو يرتجل كلاماً غير مؤتلف مع بعضه ، حينها انبرت إليه المناضلة (أميرة عبد الأمير) صارخة بوجهه ، لحظتها لم يمسك بزمام لسانه وهو نائب رئيس الوزراء ، فقد تركه يهذي بكلام لا تقبله الأخلاق . ولحظتها انتصبت قامة (عزيز) على أكتاف الرجال بدشداشته وسترته ، وخطب مؤنباً إياه بكل شجاعة ، موضحاً للجماهير ما يمكن أن تكون أخلاق السياسي . تأزم الوضع وأمر (عبد السلام) بإلقاء القبض عليهما . لكن المتجمهرين أضاعوا أثرهم . هذا ما شاهدته بأمي عيني ، وكان لي درساً بليغاً . ذكرت به الأب (عزيز) فما كان منه سوى أن ابتسم . حدث هذا بعد أن عرف أني سلكت طريق الثقافة والمعرفة ، وابتدأت بكتابة القصة والمقالة . وما أن تقدم الزمن سريعاً أو بطيئاً ، حتى كان يرسل لي سلامه وملاحظاته على ما أنشر بواسطة الأستاذ الدكتور (كطران الركابي) رحمه الله ، إذ كان معلماً ميعداً معنا في قرية (لقيط) وعرفت من الراحل الكاتب والمخرج المسرحي (مهدي السماوي) ما دار بينه وبين (عزيز) أثناء لقائه معه ، قال بالحرف الواحد (لبش حلاتي أحجي ، فهو يعرف كل شيء)

ضحكت وقتها ، قائلاً : هذا هو المثقف الشامل يا أخي . قال حدثني عن المسرح في العالم والتاريخ القديم ، وعن المسرح العربي ووصل إلى المسرح العراقي ، وإذا بي أجده ملماً بكل تفاصيله ، متابعاً لكل العروض في كل الأزمنة .

وما زلت أقول من أي بوابة يدخل المرء إلى عالم النموذج هذا . لعل وطنيته دفعته إلى أقصى حالات التعب وسط واقع لا يريد أن يعرف أو يفهم . ووسط هذا التعب المرّ ، عمل (عزيز) الأب على تقديم خلاصة فكره ، ضمتها كتباً فكرية وأدبية . كانت بحق سبلاً للمعرفة ، واستزادة في البحث عن الطريق . ورواياته تبحث عن نموذجه الذي يحب ، والذي هو صياغة أخرى لشخصه وأفكاره . روائي من طراز رفيع في تقصّي المتغيرات، وتحليل الشخصية ، وتمثل التاريخ المعاصر ، ليكون مادته في النص . وزّع أفكاره على شكل كتيبات ، ضمت ضروب الدرس الثوري والنضالي . كانت أفكاراً متوازنة ، وحصيلة لعمل ميداني ومعرفي مكتسب بحق . انحاز إلى الحق ، وكانت محطته التي حققت له إشكالية مع السلطة ، وأعني به كتابه (الإمام علي وسلطة الحق) وقد تحادثت مع الدكتور (حسين الهنداوي)الذي عمل على تشكيل حملة كبيرة في العالم لإطلاق سراحه آنذاك . قدّم الهنداوي معلومات مهمة كان ميدانها خارج الوطن ، وأدليت بما عندي عن هذا التاريخ الذي لا أقول مسكوت عنه ، وإنما فيه ملابسات . فالراحل اعتقل مرتين ، مرة مع أخيه بسبب الكتاب المذكور

في مشروع المائة كتاب ، ومرة بعد أحداث عام 1991 وهو التاريخ الذي لم يتسامح إزاءه النظام ، فقد عرفت أن شجاعة (عزيز) وصراحته ، أوصلته إلى أن يكون خالداً في ضمائرنا ، فقد التحق مع صفوف المضحين بالكلمة الصادقة قال الحق ... فخلد .

صورة الفنان
في مماته

استقراء الذات:

عبد الرحمن ضهمازي لك السبق دائماً ..في الكشف عما تختزنه ذاكرتك ..

كم تعلمنا منك .

لعل الصبر أول ما تعلمناه ..وهو الذي قادنا من خلال الذاكرة إلى خطوة نادرة ..

وأنت يا سهيل سامي نادر ، استرسلت حيث كان السؤال يلح علينا ..

أنتما جعلتما غير الممكن ممكناً وفتحتما لنا باب الدخول إلى ملكوت الفنان فائق حسين والتطلع إلى مسراته الغامضة....

الحفريات العسيرة :

ليس سهلاً أن يُقدِم المرء على وضع خطوة قلمه الأولى ضمن عالم يفصله عنه زمن تجاوز الستين عاماً .زمن الطفولة والصبا . غير أن الإشارة المبتدأ كانت لــ (سهيل سامي نادر) يوماً وهو يتذكر الفنان (فائق حسين) صديقاً وفناناً وأخاً . ثم (طهمازي) في ولوجه ممْلكة غائبة حاضرة ، محاولاً فك اللغز الذي غيبه الزمن .هذا ما شفع لي محاولة استخدام مفتاح طالما أضعته في زحمة الكون . مما جعل مفتاحه الكينونة التي ترصد لي مآل المفتاح الذي أهداه لي ساحر هندي ــ كما ذكر (البياتي) في إحدى قصائده ــ مفتاح الكينونة التي ترصد ما غمض من وجودي . لقد أضعته في زحمة الوجود ، فاختفى كل شيء مبهج . فكلما عثرت عليه محاولاً فك اللغز ، أفتقدته ثانية . وهكذا كنت بين عثور وفقدان . حتى اختلفت الموازين وتباعدت الذوات عن بعضها فربما كانا أيضاً(طهمازي وسهيل) يبحثان عن مفاتيح أخرى تسد دونهم وحشة الغربة . فكل منا يقضي مشوار حياته باحثاً عن مفتاح ما لفك اللغز المستعصي . و(فائق حسين) ذهب بعيداً في البحث ، حتى غابت عنا قامته الرشيقة ، حفرت له الأزمنة نفقاً طويلاً لا نهاية له ، بينما بقينا نحن ندور في فلك مدمر وبائس . آه يا فائق .. أنت تعذرني كثيراً لأني لم أودعك . فأنت مثل بقية الأصدقاء الذين رحلوا دون وداع ، مغتربين يبحثون عن مفاتيح لصناديقهم المقفلة .وأنا حين عدت إلى قمقمي العتيدة بحثاً عن مرادي المؤجل ، فاجأتني الصورة التي تُسجل انهيار القلعة . ولكي لا أقف

عند مفترق الطُرق عانجت مفتاحي المخبأ في جيبي ، فلم أعثر عليه . كانت بضعة علامات باقية تُشير إلى سرداب غامض يحتوي كنوز لا يفتح طلسمها سوى مفتاح الجندي الساحر . قلت .. ليتني لن أغادر إلى سفر بعيد ، بل ليتهم وفائق بينهم ، لم يُسافروا إلى مجاهل غائرة في القسوة . لا أدري هل عثروا على مفاتيح مغاليقهم ..؟ أم أنهم مثلي مارسوا لعبة العثور والفقدان ، حتى ابتلعتهم الغربة. تركونا نُدير أوجاعنا ونتلقى محنة السؤال . نبحث عن جدوى الوجود وسط فوضى البحث عن وصية ما متروكة بين الكتب أو بين وحشة المقابر والمغتسلات وودائع الجنود العائدين من ساحات الحروب صامتين مبعثرة طموحاتهم خائبين، مطفأة مشاريعهم . أو ممن ماتوا دون هوية . ما الذي سوف نعثر عليه من بعد ذلك ..؟! هل هي لقية أو طُرس كتب عليه مجموعة الوصايا أو القصائد المؤجلة ؟ ونحن بدورنا سوف ندون على هذه الطرس أوجاعنا وقصائدنا الغائمة وسردياتنا المحكمة بالألم والحزن. فها هو الدكتور الفنان (فاضل السوداني) يرمي بحرقة تنور ألمه ، وهو يُثير الذاكرة كسهيل نادر أو كطلهمازي ، وذلك بعودته إلى الفنان (كاظم الخالدي) في غربته . مما دفع العلامات إلى ناصية الاشتباك والتداخل مع بعضها ، غير أن السؤال المر كان يراودني ومفاده .. لِمَ حُكمنا بفواجع رحيل الأصدقاء هكذا ..؟! فالعلامات تستقر على هيئة أكثر تراجيديا . وهو اقتران الرحيل مع الغربة عن الوطن . هذا الاقتران الذي لم أجد له مفتاحاً خارج المأساة للدخول سوى مستودع الذاكرة

الأثير . الذاكرة الراحلة نحو أسطورة الصبا . هل هو القدر الذي دفن (عوني كرومي) بالقرب من قبر (بريشت) الذي كان يتأمله من خلال زجاج ليل الغربة الموحش ..؟! فهم لا يثيرون سوى غموض العالم ولغزه وبراءته ، فقد تبعهما الفنان (أحمد الجاسم) .. يا للخيبة والخسارة المفرطة ..!! فإذا كان (سهيل سامي نادر) قد وضعني في منتصف الغليان والحيرة ودفعني إلى فعل الحفر طيلة زمن امتد حولي وأنا أُقلب من خلاله صفحات كي أكتب عن جوّانية الفنان . لا أدري إن كانت روحية هذا القول قد أطلقها (همنغواي) وهو بصدد رصد نماذجه المغتربة والمفجوعة بالفقدان . غير أنها بطبيعة الحال خير ما أجده ينطبق على حياة هذين الفنانين . إذ أرى ثمة صلة بين طفولة وغربة (فائق وكاظم) . بل ومع الموت أيضاً . وليس من المفارقة أن يكونا من مدينة هي الناصرية ، ومن مكانين متجاورين ، أو ليسا بعيدين عن بعضهما على الأفق ، فالمدينة عبارة عن قرية بلبوس مدينة شُيدت على ضفة النهر ليكون شاهداً على مآسيها وفواجعها : على تساقط ثمارها الناضجة ، من فرط حبها لبنيها ، إنها مدينة نوفت كثيراً ،فهي ليست كالمدن التي تفرّط بأبنائها . كانت تكبت همها وهي تواجه فم (أبو جلّاحة) بحر الظلمات الذي يتربص بها وبأبنائها ، فأين جلجامش فيها من أنكيدو جديد يفيض فكره وإجراءاته ليشمل كل شيء في أوروك المدينة ، حيث يُشيع العدل والتوازن كما فعل سابقاً . نحن بانتظار فعله الآن . هل يجتمع مجلس الآلهة كي يغتال أنكيدو

كما ذكر ناجح المعموري ..؟ أم يتركونه يتحول في قبافي الأرض جرية تامة ..؟ لا أعتقد ذلك ، فرجال المعبد شاخصون في كل زمان ومكان يُغيبون من يعمدون تغييبه ، ويستقبلون من يحمي بريقهم الزائل . أرى أن (أحمد الجاسم) قد توزع على أطراف المكان ــ حيث شكّل أحد رؤوس المثلث الذي يشعنه الثلاثة . وبنفس التميّز في الفن ، سواء في بيئتهم أم البيئات الأخرى التي احتضنتهم مهاجرون ومنفيون عن ديارهم ..! فما أثاره (سهيل) في داخلي هي الحقرية الفائقة والعسيرة التي عليها أسلوبه دائماً . إذ يُبقي على الدوام ذلك الألم الدفين متوارياً خلف حس بكر مع الأسى والألم ، رغم عظمته وسلطته عليه . فبذات الإحساس الذي لا يعكس سوى العفوية البكر ، المرح والدعابة في أشد حالات الحزن والتراجيديا . غير أنني أراها عند (سهيل) آخر الطلقات التي يوجهها إلى صدر الموت وخيبة العالم وبؤسه . وهي تجاهله من باب دفع النظر بعيداً عنه تأثيراً . بينما يلح بي ظهماري إلى ملكوت الفن الخالص الذي لا يخفي سمة الرثاء للذات . السؤال لم يظهر كعلامة تتوارى على سطح ماء واسع مداه ، سطوح مائية متلألئة متموجة كالمرايا . لا يحاول تخديش الراقد ــ المتحرك في ذاكرته . تاركاً السؤال المهم والعالق .. لماذا ..؟ وكيف ..؟ وها هو يترك ذات السؤال في رأسي .. كيف اقترن رحيل الفنان بالغربة ، الذي أجده صورة حددت مسار أكثر من فنان كـ (فائق حسين وكاظم الخالدي وأحمد الجاسم .) لقد أسهمت هذه المفارقة والقرينة في تحديد

المصادر التي يعرفها جيداً أولئك الذين أوغلوا في الغربة الأخوة الثلاثة (حيدر عبد الحسين الجاسم ، رمزية الجاسم ، أحمد الجاسم) حيث تقاسمت وجودهم الأمكنة المشطورة بالبحار والمحيطات والبراري الموحشة ، ثم (فائق حسين والخالدي كاظم والأسدي جواد والزملي محسن ثم السعدون عبد الهادي) . الغربة تنث تأكل من جروف أفكارهم بشكل موازٍ لما أكلته الغربة داخل المكان من جروفنا أيضاً .ماذا بقي من جروفنا والطوفان أكثر هولاً في أيامنا الموحشة ..؟! أرى أن هذا متعلق بالمكان حصراً . فهم عانوا من الغربة فيه . فـــ (فائق) طفولة يتيمة وسط مدينة أكثر يتماً . استجاب الرب لنداء رعايا أوروك من جديد فأوعز لأرورو أن .. خلّقي مدينة يحدها الماء من كل الجهات . فما كان من الإلهة المحلّقة إلا أن قرصت عجينة بعد أن بللت كفها بالماء وكورت عجينة طين رمتها في البرّية وصيرتها مدينة الناصرية التي تبدلت أسماؤها على وفق الهوى السياسي ، غير أنها استقرت في العقل الجمعي على الناصرية ، فتغنت بها الأفواه والحناجر ، ونسج الشعراء أبناؤها البررة قصائدهم ، والروائيون والقصاصون سردياتهم التي تدون وعيهم للمدينة مكاناً أثيراً وصانع الصورة والتاريخ . لقد اقترن اسمها بالإبداع . لا شك أن (أورورو) لا تعرف سر الأرض وترابها وماء الفرات وقدسيته ، فهي تستجيب للنداء . إنما ابتسمت في داخلها قائلة : إذا أردتم أن تضعوا المدينة ومن فيها تحت قبضة سلطتكم فارحموها وارحموا أهلها ، فإنها نشأت وصيّرت من عجينة

وغرّيّن أسطوري أحمر كلون حجارة زقورة أور أو لكش أو جدران سور أوروك العتيدة . فما نبتت المدينة سوى في حاضنة سومرية أعادت لها الخلق من جديد ما بذله أبناؤها وما بذله (طه باقر) من جُهد في حفرياته، وما راود (عبد الأمير الحمداني) من حلم لبس كحلم (سانتياغو) كوئلهو الذي عاد متقهقراً إلى كنز الأرض ، بل كان اصراره أن لا كنز هناك إلا في أرض سومر . مدينة أنهكتها الحروب ، ورثاها الشعراء ؛ وها هي تُعيد مجدها من خلال فعاليات أبنائها البررة . وستلد أرحام زوجات أبنائها ذرية بررة أشداء مثل آبائهم ، يحاربون بكل الأسلحة عدا القاتل منها لجوهر الإنسان . يخلقون المعرفة ويتبعون خطاها ويبثوا تفاصيلها كالعطور بين الناس ، فتكون علامة تُشير إلى مصائرهم التي هي جزء من مصائركم . عرفتهم الآلهة ، سيّما (نيدابا) فقد أهدتهم قلم القصب وورق البردي ليدونوا لواعجهم . فكان (فائق السيد حسين) واحداً منا . ممن لا يعرف في طفولته مقهى (عزران) واجتماع القوم داخله . بل سمع عنه وعنهم .. مفكرين ومبدعي نصوص ورسّامي لوحات ومدوني تاريخ المدينة شعراً ونثراً ، ومبتكري لقطات صورهم . كانت الكلمة سر وجودهم والعلامة التي حددت مصائرهم . وما زلت أتذكر ذلك الصبي المقارب لعمري ؛ وأنا أشاطره الحركة داخل منزل كان يجمع أكثر من عائلة ؛ والدته الهادئة الموسومة جبهتها بالخشوع . ينظر بياض وجهها المضيء قماش العصابة والشيلة . وأخته وصوت ماكنة الخياطة . كان فائق

يظهر مثل طائر الخور الملوّن ، الملموم على نفسه . فهو يباغتنا بالاختفاء والظهور من على سطح الكون الرائق الجميل . يسير كما لو أنه يحبو بجسده النحيل المائل إلى الاحديداب . تنبهت له يوماً وهو عائد من اسبانيا . كان ببدلته السوداء الأنيقة ، غير مفارق مشيته التي يُميّزها موازاة ساعديه وهو يشمّر بهما ذات اليمين وذات اليسار في حركة متناوبة ، تطارد كل واحدة الأخرى ، فحين تحاول إحداهما الوصول إلى الأخرى ، تبتعد تلك عنها وهكذا تتناوب الحركة ، وهو ينظر مطأطئ الرأس كالباحث عن شيء أضاعه . هو فعلاً افتقد المكان أو تنبأ بفقدانه . فهو لم يُفارق السؤال الذي ظل محتبساً في ذاكرته . غير أني أجزم أنه تساءل دائماً عن المكان الذي دحنه فنياً وتقنياً كما ذكر في واحدة من قصائده ولوحته المعنونة (برتقالة تتسول في الظل) . فحين وصل ذلك الصبي الخبر على (فرشي) باحة الدار ، لم يدر أن ساقيه ستقودانه نحو خارج البيت ، بل خارج المدينة ومن ثم بعيداً عن الوطن إلى حيث أرض الغربة . كان يُحدّق بعينين سوداوين يؤطرهما حاجبان كثان وأنف طويل نسبياً . ولحظة يهم بالكلام تسبقه ابتسامته ، هي في الأساس قماشة اللوحة على وجهه . بعدها تبدأ الوحدات تأخذ مسارها بتعليق أو دعابة أو نكتة . جمعتنا المدرسة وقبلها (الملّة) وفرقتنا الأزمنة المرة . انتقلنا من الملّة إلى الملاية ، وفائق يزداد بهاءً مثل فتاة تستقبل بواكير أنوثتها وفتنتها . كان يجمعنا البيت والشارع بأرصفته والفرات بمسناته ومياهه وبساتينه وحضرة أشجاره

ونخيله وثمارها . ثم أروقة سينما البطحاء والأندلس ، وما يروق لنا سوى المقاعد الأمامية لقربها من الشاشة ورخص ثمنها . ولكن الجميع لا يدركون مرامينا في اختيار هذه الأماكن ، إذ تكون لنا حضوة في مشاهدة كل شيء على الشاشة بوضوح . كان في كل هذا يمتاز بالهدوء ؟. غير أني ما زلت أتذكر أن في نفسه شيء من التأني في التعامل معنا ومع الأغراب . ويبدو منشغلاً بشيء خارج إطار وجودنا . تنفذ عيناه في خضرة البساتين ، وتلك الحشائش التي تُعرّش على الأرض فيمسد سطحها ولا يقطفها . لم أره يوماً يستخدم أي أداة لصيد العصافير أو الطيور أبداً ، فقط كانت همه حركة الماء في النهر ، وهي تُداعب جسده الصغير وكتفيه اللامعتين ، أو تعبث موجاته بخصلات شعر رأسه الفاحم . وحيث يبتسم يضم شفتيه إلى بعض ، حابساً ابتسامته لكي لا تفلت من فمه وتتبعثر طائرة على عجالة . كان يحاول الاحتفاظ بها مثل طائر جميل يخطف بألوانه فلا يترك سوى بريق الألوان . وخطفة بمر (كوزان) أو (شنيشل) وهما من كانا يمثّران الدعاية والاعلان لعروض السينما . ذلك بدخولهما أسواق المدينة ، متقدمين اللوحة الكبيرة التي يحملها صبيان . كل واحد يمسك من جانب، تتكئ على كتفيهما زاوية اللوحة الكبيرة بالساقين الطويلين . كنا نسير خلفهما ونتقدمهما في حركات دائرية لإثارتهما ، وهما يبتعدان عن طريقنا بالدعابة وتقليد أداء (اسماعيل ياسين) أو بحركات كروباتيكية من (شنيشل) كحركة أقساع وجهه أو أداء حركات يستقيها من الأفلام .

فبقدر ما كان (كوزان) قصيراً كان (شنيشل) أمرداً أسود ذا شفتين كبيرتين ، وعينين حادتين مخيفتين لنا . وكنا نخاف طلعته وحملقته المريبة ، بالرغم من وجهه الطفولي الصغير ، لكن عضلات جسده كانت بارزة كالرياضي موشومة باللون الطاعن بالزرقة خطوط ووجوه والتفاتات سحرية كالتمائم. غير أنه بحركاته الدائمة يُطفئ الخوف عن قلوبنا ، إذ نعرف أن ما بداخل قلبه طفل ليس إلا . وحين يتعبان من التجوال ، ونحن نتبعهما ، يُرخون لوحتهم على أقرب حائط أو عمود كهرباء في مدخل السوق ، لكي يرى الصور كل من دخله أو غادره . ثم أني ألمح (فائق) يُسارع إلى اللوحة بشغف ، وأراه مدققاً بكل صورة ، معلقاً على محتواها المستل من الفلم الجديد . مشيراً إلى هذا وذاك رابطاً بين الصور ، كأنه شاهد الفلم فعلاً . وتطول الحكاية هكذا مع كل مجموعة تؤدي عمل تسويقها لعروضها السينمائية ، فهم يستميلون المشاهد لزيارة صالة السينما والسعي لتوفير ثمن البطاقة . تماماً كما تبدو ثرثرته الخبيئة بعد خروجنا من العرض ، مفوضاً نفسه أمر إعادة ما شاهدناه سوية . يؤلف حكايته عن الفلم ، بشحذ مخيلته الخصبة ، مستعيناً بحركاته الجسيمة المعبّرة . إذ تكون قصته مادة لأحاديثنا في الشارع وعلى الرصيف . ما زلت أتذكر يا فائق لحظة عودتنا ــــ أخي وأنا ــــ من البصرة بعد سفر طويل يدوم ثلاثة أشهر . فأنت ما أن تعرف بمجيئنا حتى تجتمع الشلة (فائق ، حسين نعمة ، مجيد حميد ، مهدي وعلي عبد الأمير الشكرجي ، يقظان إبراهيم)

يتصفحوا ما أتينا به من كنز الاعلانات الخاصة بالأفلام ، التي كنا نجمعها ونحن نطارد موكب (تومان) في الأسواق وأزقة العشار. جامعين الإعلانات ومقطعات من الأفلام التي نعثر عليها في النفايات قرب دور السينما . يقرأها الأصدقاء من أشعة الشمس ـــ عين الشمس ـــ ليعرفوا ما تحتويه ، فيلكز كل منهم صاحبه مبتسمين ، وفائق أكثرهم تبحراً ورقة في اللمس والنظر لتلك القطع السميكة .إذ نلجأ إلى ابتكار فانوس سحري من مصباح نفرغه من محتويات مالئين زياده بالماء ، لكي يكون خير عارض مكبر للصورة التي يحتويها المقتطع من الفلم . فبعد أن يبتدئ بنظرة فاحصة محتوياتها ، يسترسل بالشرح والتعليق والسؤال كعادته . ولا أدري وقتها ماذا كان يريد بالضبط ..؟ لكني عثرت على سر ذلك من دون معرفة مباشرة بالقصد ، حين التقينا في أحد الشوارع بعد عودته لزيارة المدينة حيث كان مقيماً في اسبانيا ، سألني وحيرني سؤاله إلى الآن ، إذ قال : هل توجد لديك تلك الصور ..؟ قلت : لا والله . لحظتها لمحت على وجهه علامات خيبة الأمل ، يومها كان يعمل على تصميم أغلفة الكتب . كذلك واكب الكثير من الاحتدامات الفنية التي تسود عالم الفن التشكيلي كالكرافيك وفن اللصق (الكولاج) . فقد ضمر سؤاله وجوابه تاركاً اسبانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

كان (فائق) يؤثث عمارته في اللوحة على هندسة الرؤية الخاصة ، مستعيناً بالرؤية الشعرية والخط المستقيم الطويل والقصير والتقائهما في

الزوايا ، وما زال الخط القصير يلتقي بالخط الأطول والقائم ، ليشكلا رأس هرم أو نافذة . ودائماً ثمة شيء ما في الأعلى يتطلب القطف . بينما الإنسان موجود في مربع يضيق عليه . يحتمي بالجدران ، وربما برحم الأم الذي افتقده والذي يُحيل إلى رحم المكان . لأنه يخشى العيمة المُربكة والغامضة والمتربصة ، ذات الطنين الذي لا يسمعه سواه وأمثاله من مرهفي الحساسية .

لقد واجه في متوسطة الجمهورية في الناصرية فتوته معناً مستقبلاً إياها بفرح . وكانت غرفة الصف أبعدته عن مرسم (عبد الرحمن مجيد الربيعي) آنذاك . فالصف كان مشغلاً لفن آخر ، هو فن الكتابة . وفائق من بين الجمع المتميّز في نظر الأستاذ (حسين علي الجبوري) الذي يجلس على آخر رحلة في الصف ، بينما الطلاب يتناوبون على اللوحة السوداء ليقابلوا جميع من في الصف ، مركزينَ في شخص المدرس ، شاهداً ورقيباً شغوفاً لسماع ما كتبه من إنشاء ، وفائق يُبحر أيضاً كزملائه في موضوعات غريبة يطلب المدرس الجبوري الكتابة فيها :

- أوراق الخريف .
- استكانة شاي .
- استيقظت صباحاً فوجدت نفسك حشرة .
- حذائي القديم .

كلها عناوين تُثير الخيال ، وتفوق ملكتنا وذخيرتنا اللغوية . لكنها بفعل حميمية الأستاذ وأبوته المشجعة ، كانت تستهوينا ، حيث يأتي دور (فائق) من بعد (منير ومحسن) مثلاً ليسير مرتبكاً بين مجال تحدده صفوف الرحلات . يتلعثم ويحتبس صوته ولا يرفع عينية قط ، بل يبدو كأنه مشدود إلى الدفتر الذي يرتجف بين كفيه . غير أنه يتلو ويجيد قراءة ما كتب ، إذ يحمر وجه الأستاذ وتظهر على فمه ابتسامة ، هي بمثابة إشارة الرضا ، وفائق لا يكتشف هذا خطتها فقط تتجسد تلك النظرات التي كنت أسرقها نحو الأستاذ تارة ولفائق في أخرى ولزملائي ثالثة . ينطلق الصف باتجاه ملكوت الخيال البريء والبكر ، إذ لابد أن تكون قد تذكرته في غربتك يا فائق .. يا بن السيد حسين .. نعم تذكرته بدليل سؤالك عن الإعلانات وحاجتك إليها . تذكرت بعد ما تغربت ، ورحلت دون وداع . غير أني يا فائق سيد حسين ما زلت أقلّب دفتر إنشائي الذي احتفظ به منذ أكثر من ستين عاماً ، وقد خلا من درجات التقييم التي لم يعتد الأستاذ وضعها آنذاك ، مكتفياً بما سمعه ، متلذذاً بعذوبة العبارة وجمال الصورة . فقط كان يُعلن عن اعجابه أما بكلمة أو اثنتين أو جملة فائقة الصياغة، فيحمرّ وجهه طرباً ورضا واندهاشاً . وفي أحايين كثيرة يُصفق دون ارادة منه ويهم بالوقوف . أعتقد أنه بذلك وضع أكثر من علامة – كما أرى الآن – فقد أبقاها علامات مفتوحة لا تحدها الأرقام بقدر ما تُضللها الرؤى المفتوحة على المخيال . وبذلك واصل بناء دربتنا

على استخدام المخيلة في الكتابة ، واستثمار المخيال الميداني الذي هو مادتنا وذخيرتنا التي اكتسبناها من الملالي والتكيات والمجالس الحسينية في عاشوراء، أومن الطقوس التي كانت تُقام في المناسبات ، ابتداءً من طقس (الإمام موسى الكاظم) (ع) الذي يدوم نهاراً كاملاً في المدينة وعلى ضفتي نهر الفرات ، فبين سجن الإمام في الصوب الثاني وبين مجلس (هارون الرشيد) في الصوب الأول يفصلهما جسر متحرك عائم على سطح نهر الفرات . كان خيالنا ينمو وتشتد عمارته من هذه الطقوس والشعيرات.

هكذا يا قاتلي يا بن السيد حسين .. هكذا بقي قلبك وبقيتَ صورة للبراءة والأصالة ، فمن نهر الفرات شربت ، ومن أثداء أرض سومر رضعت، ومن عمق الميثولوجيا ارتشفت المعرفة . فأنت عصيّ على الفراق، ونحن نحلم بعودتك على هذا النحو أو ذاك . فالغائب حاضر والحاضر غائب في هذا الزمن العسير .

سؤال
لم تكتمل إجابته

منذ زمن لا أحسب مسافته قط ، كان سؤالي عن سؤال طرحه البعض ثم غادروا دون حصولهم على جواب ما ،فتركونا نتقب عنه في خضم الفوضى هذه أو تلك ، لكن تصفحي لبنية الذاكرة بشكل متواصل أبقاني على صلة بما مضى من الزمان متلذذاً بمباهجه البريئة وحزنه الشفيف والأصيل بعيداً عما يحبطنا من لغو مفرط وألوان هجينة لا تتناسق مع الذات المتطلعة والمعذبة منذ أمد بعيد ، فما كان منها إلاّ أن حصدت الشوك الذي أدمى كفيها وباطن قدميها . وجراء النبش في الذاكرة استطعت أن أقف على إجابة نيابة عنهم . فإذا كان ثمة شيء من هذا حققه لي (فائز الزبيدي) حياً منفياً عن وطنه ، فقد إستنفرت الجواب صورة (خالد الأمين) راحلاً . وما زال الآن في ذاكرتي جمع من الأحبة وعدد من الصور (سيد وليد وأبو أيمن وعلي وطارق السبهان وفؤاد مكطوف وأبو كريم). الفجر والحقول البكر ، أن توفر لي الإجابة عن اسئلة أزلية

مفادها :لماذا..؟ وكيف ..؟ وإلى أين ..؟ هذه الأسئلة مازالت تسري سريان الكون وحركته ، في انتكاسته وتقدمه . الأمر الذي يحيل الإجابة داخل الذات والكامنة في كل هذه الصفحات . الوجوه النقية والبريئة براءة الشجر . فهي لم تحمل زوادة السفر من هذا الكون سوى النسيان ، فكل أحلامها انطفأت، غير أنها كانت ذات قناعة بأنه انطفاء يعني في ما يعنيه بقبض الضوء الذي يتسرب إلى الأمام ، لذا لم يبالوا في أن يهبوا أنفسهم قرباناً للوطن ، فقد بقيت أسماؤهم علامات لمن يحترم التأريخ الناصع كالورق ، كي نتعامل مع ما تركوه بروح صوفية خالصة عبر علاقة الذات بالذات الراحلة ، لأن خطابهما متجاور ينطلق من وطنية لا تعرف تلون الوجوه وبريقها ولا تعتبها على الإطلاق لمعان المستجد فهو غواية تقود إلى التهلكة .

السيد وليد .. كما أراه الآن وكما أحاول ان ارحـــــل نظري إليه ، عابراً أكثر من أربعين عاماً مضت ، وهي مهمة صعبة معه أو مع غيره ، لكني أحسبها علامة تعايشني وتحاول تدشين ذاكرتي وتعيد إليها حضرتها وبهاء سريرتها، حيث تدفعني إلى التعامل معها لا من باب الأرخنة، بقدر ما أتعامل معها كمبدع لنص سابق أعيدت صياغته سرداً و روحاً شعرية . وبالتأكيد ستطمئن أرواحهم لانبعاث عطر ذكرياتهم ، وستكون أداة مرهفة لمشاركة الآخر في صياغة كرنفاله من أجل ذلك ، بعد أن يزاح غبار الزمن عن كل شيء ، وحيث لا تبقى سوى طلعات وجوههم وقوة فعلهم

ونظرتهم كما أراها أنا ، باعتباري شاهد أدبي ـــ إبداعي على ما هو إبداع في فعل فناء الجسد قرباناً . فجل ما أتبعه هو ما كنت أراه وما أنا راءٍ له الآن .

السيد وليد .. من يريد أن يعرفه فالسرد واقعته ، ويتواصل مع ما سطره القلم .. شاب كانت له هيبة عندي حين أمر على مقهاه المواجهة لفرن الخبز ، ومحل المكوجي والخاذي محل (عكّاز) الذي يقابله محل الأحوين (يعقوب وحسن) ومحل (الكبيجي أبو مجيد) . فقبل أن تأخذك قدماك إلى سوق الخضار مغادراً السوق المنفتح على (شارع الهوى) الجبولي لابد أن تقف كي تنعطف يساراً . وخطة تدير نظرك إلى اليسار أيضاً سيكون بمواجهتك طلعة وجه السيد وليد بلباسه الكاكي في معظم الأحيان أو البنطلون والقميص ، وبشعر رأس أسود فاحم ، وشارب مستقيم بشكل خطاً أنيقاً يعتني به كثيراً فهو مفرط بأناقته الفطرية المضافة إلى وسامته ورشاقة جسده . ربما ينظرك من بين المارة ، أو يركز عليك بشكل خاص ، فهو دائم التفحص بالمارة وكأنه يدعوهم إلى مضافته. مقهاه كبير ورواده كثر في المساءات ، وإذا ما مررت في كل وقت تجده مكتظ بالجلاّس من مختلف المشارب والطبقات والفئات ، فأمام المقهى منقلة الفحم وخلفها رجل ضعيف البنية مشغول دائماً بإدخال قطع اللحم او الكبد في الأسياخ ، ويصفـــــها على قطعة الخشب التي امامه .

فرواده دائميون سيما بعد انتهاء عروض سينما الأندلس والبطحاء ، وبعد

أن تفرغ البارات من روادها ، فلا يخلي العشاء والسمر إلاّ أمام مقهى السيد وليد . فالرجل لا يعنيه العملُ الروتينيْ ولا يهمه إن باع أو لم يبع بضاعته ، فهو يميل يساراً ويميناً ويردد أُغنيته مع لازمتها وحامي المهفة وهو يزيد من حركة ساعده كي يتوهج الجمر ويبدو لاهثاً ، فإنه يردد مع من حوله من طالبي العشاء الذين يعرفون سر أغانيه وطرائفه فيشاركونه إياها بالترديد أو الضحك البريء . وفي كثير من الأحيان تكون بسماته عفوية ، والمشاركة معها كذلك . مقهى يجمع البسطاء الكادحين والمثقفين من المعلمين والسياسيين وقراء الصحف والمجلات والكتب الثخينة كالوسائد ، أركيلات ودومنيو ونرد .والسيد وليد يدير أمر المقهى ولا يتوانى مع صحبه من عشاق السهر عن سماع الأخبار وقراءة ما استجد من أخبار في الصحف والإذاعات والتعليق عليها وتحليلها ، حيث يشتد النقاش والحوار وتتفق الآراء أو تختلف لكنها لا تتقاطع وفي أحايين كثيرة تأخذهم حنجرة(أم كلثوم) بعيداً فتكون خير ما يهيل تراب الأيام التي تراكمت لتنجلي صفحة الحياة على أشد نقائها . ذاك المجمع يسفر عن ميثيولوجيته، فرواد المقهى وكل من يحيط بالسوق يسهمون مع موكب الخضـــارة في أيام عاشوراء ويستبدلون سهرهم ذاك بسهر آخر له نكهة خاصة تحيل مشاعرهم إلى الجذور الأولى فـــــــــــي ذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع)والذي يشرف عليه خاله محمد عبود) ولمدة عشرة أيام يقيم مـــــــــــن خلالها مجالس العزاء وفي اليوم السابع يبدأ صوت

الرادود(جبار أونيسة) يتردد من على منبر العزاء ، بين يديه مجموعة من الأوراق تحوي قصائد لشعراء لا نعرفهم .فإذا كان الجمع قد طرب لصوته قبل هذا فإنه الآن يثير شجنهم ويعجل من بكائهم ، ويطلق حرقة لوعتهم على أبا عبد الله أو على ظلم يحيطهم ، بمثل ما نشاهده الآن من هرع نحو المقدس وكل منا يحمل مندبته الذاتية وشكواه على زمن رديء كهذا جميعهم يبكي خيبته في دائرة الواقع الذي خدعهم وظللهم . يجتمع حول منبره الرجال والفتيان والصبية العراة إلى المنتصف ، والموشحون بالسواد والضاربون على صدورهم بأكفهم حتى تحمـــــرّ أو تتشقق قشرة الصدر . وبعد أن يكتمل العزاء والتدريب على اللوازم والقصائد يترل (جبار أونيسة) من على المنبر ويشير إلى ابتداء تقسيم الموكب على شكل فصائل دائرية ، حيث يتحققون مع المواكب في محلة السيف جنوب المدينة .وهو مكان انطلاق المواكب نحو مركزها . تسير المواكب وعلى رؤوس اللاطمين قناديل الضوء ومكبرات الصوت واللوكسات وفي المقدمة يرفع الشباب الرايات الملونة ولافتة كتب عليها اسم الموكب ثم صور للأئمة للإمام العباس على المشرعة والإمام الحسين يتقرفص حول جسد مدمى . يسير الموكب وسط شارع الهوى الساطع الأنوار والمحتشدة على أرصفته النساء والرجال والفتيان والصبيات ؛ باكيات لاطمات، صارخات وهم يتطلعون إلى (مجيد ظحماج) حاملاً المشعل ، وهو سفينة من الضوء ينوء بحمله بعد أن يطلق عبارته ..حيدر..،و السيد وليد مع خاله يتوسط حلقة

الموكب ، حاله الذي لا يستقر في مكان ضمن دائرة الموكب ، بل يتحول من زاوية إلى أخرى ، يتفقدهم جميعاً .

السيد وليد .. من المدينة الجنوبية التي لا تلد سوى المثقفين والأدباء والسياسيين ، فقد تفتقت عيناه على طقوس المدينة وأحزانها الدفينة ، وكان ينظر إلى مآسي شعبه وبانعتاقه للحرية والاستقلال، فامتلأ فؤاده بالحب له . أحب الناس وأحبوه . عاشرهم وعاشروه ، ولم يتمس أحد بسوء عليه ، فقد كان ملاكاً تربى في حقل وافر الإيمان والمعتقد . وفي غفلة من الزمن القاسي ضاع السيد وليد من بين صحبه وسط كون صاخب وجائر كما يضيع الآن حيرة قتيتنا دون شعور منا بمدى الخسارة هذه فالدم جاري والقربان يقدم يومياً على مذبح الرب ولا تأمة تنم عن اهتمام بهذا أو ذاك، كل ما يدور محض صراع وتمويه ونفاق . قيل .. وقيل عن السيد وليد ، حتى غدا الحديث عنه كالأسطورة . لكن الأقوال قد اجتمعت في قول واحد : لقد رحل عنا السيد وليد نحو الأبدية الغامضة ...؟ !غير أن ما قاله صحبه عنه يثير الكثير . فمن قائل :لم تتبين له وجه قط في آخر خطاته فقد احتلطت أجزاؤه ،جراء التعذيب و فادوه محمولاً في وضح النهار خارج المدرسة التي تحولت إلى معتقل . وقائل :شاهدتهم وهم يسحبوه على عجالة ويخرجون به خارج المدرسة ولم تسمع عنه خبراً . لكن الحقيقة تكشفت وأسفرت عن معنى لكل ما قيل، فقد سارع الجميع مع من ادعى معرفة فيرد في بادية الصحراء. أشر لهم بإصبعه عن المكان :

هنا دُفن السيد وليد ، وقد كان حياً أثناء دفنه وكان يتوجع ، إذ سارع أحدهم بأن أطلق عليه رصاصة الرحمة .

شاهدته بام عيني وهو يُسحب من باطن الأرض ، ويُرفع على أرض الله الفسيحة . كان ضامراً تلتم حول جسده بدلته الكاكية، ويداه مسبلتان على جنبيه وقد بدا إصبعه الأوسط من يده اليمنى مؤطراً بحلقة ذهبية . فقد كان خاطباً لأبنة خاله يومها دفن حلمه بالزواج منها معه . كانت ملامحه واضحة وعيناه مغمضتان ، بينما شاربه خط أعلى شفته بسواد مشوب بالغبار ، فيما بدا فمه مفتوحاً .

السيد وليد .. حُمل على أكتاف الرجال ، حيث انطلق به موكب التشييع يجوب شوارع المدينة وشارع الهوى الذي أحب . بدا ضيقاً علينا، لم يستكمل مشواره بعد ، ولم يحصل على إجابة لسؤاله قط .

السيد وليد راهب كان ، يرتل أناشيد الكنائس والمساجد والكاتدرائيات ، أناشيده جليلة رفيعة الشأن . وبقي على رهبانيته نقياً لم تلوثه الأزمنة ، أتى إلى الدنيا بريئاً وعاد إلى ربه بريئاً . كان يتأمل الواقع آنذاك ويحتمل المستقبل ،لكنه ضاع في زحمة الصراعات كما ينتظر كل منا ضياعه الآن .

السيد وليد .. علامة زهو لمن مروا به أو مر بهم . ومقهاه ما امحى من الذاكرة ، فلابد للسابلة المارين بالمكان أن ينحوا إليه ، وبعد أن يميلوا بنظرهم نحو اليسار ، أو يتبضعوا من المحل الذي شغله، يقرأون سورة الفاتحة

بعد أن يذكروا أن المقهى كان هنا ، وأن فتى هو سيد الفتيان كان يديره ، وأنه مات غدراً وغيلة . فيا أيها القوم تذكروا شهداء مدينتكم بفخر واعتزاز وأقيموا لهم العلامات وفاء فما بالكم تأخذكم حرارة وغواية ما يجري ..؟ ! واعملوا ولو بالمرور على أماكن حافظت على ملامحهم وذكر أطيافهم وهذا أضعف الإيمان .

أبا أيمن ....
أيقونة التآلف

من منا يكون البادئ بإثارة الذاكرة يا أبا أيمن ..؟ هـــل يجـــول بخلدك الآن أن تفتح صفحات كنت قد تركتها تضـــوع بـــين حنايـــا صحبك (فالح القصاب ،حسين علي عباد، محمود ولي ،أبو الوليد ،ابـــا دلف ،أبا ريـــان ،أحمد عبد الصاحب ،عمر معن) أم تتركني أُقلّبـــها لوحدي كي أُسمع صحبنا أخبار وصوَر ما إزدوت من أحداث هي عين الأخلاق الوطنية الرفيعة وعلاماتها المترفعة ،إذ لم يدر في خـــلد أحد منا تأثير الاختلاف فيما نعتقد ونرى ، فلكل منا رؤيته وحسن اختياره. غير أن الجامع بيننا كوننا أصحاب رأي ومعتقد وليس محتـــرفي سياســـة أو أصحاب دكاكينها ، فحين كنت تردد أمامي :لماذا طلبـــت مـــؤلفي (هكذا نبدأ)..؟ كنت أقول لك بثقة عالية :تهمني قراءته ..؟ ولِمَ هـــذا الاهتمام..؟ أُجيبت :كي أتوقف على أصول فكرك ونبته ، وهذا يهم علاقتنا بطبيعة الحال . لحظتها ترسخ في كل منا رمز الثقة التي أطّـــرت

علاقتنا جميعاً . مازالت مساءات الأهوار المضاءة بسحر القمـــر تحتـــل رقعة الذاكرة فتضيئها ،ولم تختفِ لوحة الماء والبردي في وضح النـــهار حيث ينتشر سرب الطيور لاهياً مع بعضه بعفوية وبـــراءة لا تباغتـــه طلقات الصيادين ، ولا تخيفه شباك صيادي السمك ولا فـــلاقهم ذات الرؤوس الحادة والمدببة ،كل شيء كان يتمتع ببراءته على العكس ممـــا عليه نحن الآن . فقد ازداد التدافع بالمناكب ، وغمر ذوي الأصول غطاء النسيان والأسى .. !فسار الناس على غير هدى ، فبتـــنا بيننـــا الآن لتشهد ما لم نتمناه لك ، يامن قنيت وجودك من أجل أن يتغير الزمن ، فكنت تحلم بيوتيبيا تلم الناس إلى بعضهم وتبعد ما يفرقهم أو تبعد عنهم عوادي الدهر ، ولا تثير في حياتهم إلاً ما يضيء وجودهم . وحســـبي سيضجرك مثل ما نحن عليه الآن ، لأنك متمسك بأن حصاد الماضيين وممن اختاروا الفناء من أجل الكلمة الشريفة هو السعادة فقـــط ، ومـــن بعدها يقوى عودهم ويصلب قوامهم ليكونوا ملتمين مع بعضهم . أنا أذكرك بلغة بعيدة عن بلاغة السياسة والمبادئ، فلا تؤطرها الإيديولوجية والمفاهيم ، وإنما أستذكر معك البنى الأخلاقية التي تعلمناها ، والتي علمنا بها كبار المفكرين كلينين ، ومحمد باقر الصدر وماركس وفهد ونـــديم البيطار وغوركي ودستويفسكي وغيرهم . لا فرق عندنا بين هـــذا أو ذاك ، بقدر ما نبحث معاً عمن يوفق ويوائم لغة البلاغة الوطنية ، فأنت استلهمت بلاغتك من مهد الدين ، والآخر من صحبك قل من فكـــر

المادين . ولم يكن ثمة عائق بيننا في هذا الضرب أو ذاك ، وإن اختلفنا فيما هو خاضع لنص لا يحسمه سوى أبا الوليد (وارد) بنعته الفكهة والمحببة إلى الآخرين ، فيحيل كل ما دار نحو دائرة الصفاء والتوائم ، مؤكداً أن لا شيء مستحيل ، مازال الكون يدور حولنا ، فلابد أن تتغير المفاهيم والرؤى . وخطة أقرأ للكثير من المفكرين الإسلاميين الآن سيما جماعة مجلة (الوعي المعاصر) أو طروحات المفكر (عبد الجبار الرفاعي) أتذكر طروحاتك المتقدمة وطروحات (أبو الوليد والأخوة) فالح وحسين وعمر . فكيف لي وأنا بصدد طرح صورتك الآن ، لا لشيء سوى وفاء لكل لقطة زمن قضيناها معاً مجتمعين ، حيث كانت بيئة الأهوار خير ما يوفر لنا الزمن الأطول . أتذكر حين كانت تدوم لقاءاتنا حتى الساعة الرابعة من صباح اليوم الثاني ، حيث يحين أذان الفجر ..؟ أتذكر ذلك ..؟ وهل يتذكر هذا صحبنا ..؟ أنا أذكره ، بل ذكرته في روايتي (إنزياح الحجاب ما بعد الغياب) ولكن ذكرها كان من أجل أن أضع البديل للأخلاق الفكرية ـــ السياسية استجابة لواقع يسيء للمفاهيم بالأفعال . أتذكر لحظة نهم إلى النوم مما تبقى لنا من الليل ، ستأخذك العاطفة الاجتماعية فتقبل جبين أحدنا تختاره بنفسك ، فأنت المفوض بهذا التقليد ، عندها يعرف كل منا أن الإشارة تؤكد مكان السهرة في زمن سوف يتفق عليه الجميع، وعلى المُقبَّل جبينه أن يعد العدة لذلك . ثم نهم بتقبيلنا

واحداً تلو الآخر بحميمية لا تعرف الزيف . ويومها لم أصبر بل سألتك: ولماذا تختارنا من دون صحبتك الملتحين ..؟ تبتسم وتجيب ببلاغة لم أنسها قط ، بل غدت سبيلاً لي في حياتي الثقافية والفكرية . كنت تجيبني :لكي تستسلم للوسادة وأنت لا تحمل غيضاً عنا يا أبا فدوى .

فأي بلاغة كان يحمل ذلك القول الذي لم يصدر إلاّ من لدن مؤمن بقوة علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ، فكيف تكون عليها العلاقة بين المثقفين ..؟ لقد فاض جمعنا بكل ما أتيت وما أتى صحبنا من دروس مهمة أطَّرت حياتنا ، وأبقت فينا عزة النفس وحب الآخر ، وملاحقة المختلف ، ليس من أجل تسفيه فكره ، بقدر ما هي محاولة لاستيعاب ما ينتجه من فكر يكون زاد المبدعين في الحياة . أبا أيمن يا (عبد الغني الشمري) شاء القدر أن يبقينا أحياء ، لنعيش ما ترى ، ونحسب ما هو غامض ، ولنكون خير حافظين لذكراكم ، ففي لحظات انتكاسة الذهن جراء ما يجري نتذكر حكمتكم ، وقوة إرادتكم ،فصحبكم بخير وهاهم يطاردون المعرفة وضروب الثقافة ومضان الفكر أياً كان مكانها وبعد مصدرها ، فمسيرتك مازالت مع مسيرة كل الخيرين تتواصل . نقرأ لبعضنا ولا همنا الظواهر بقدر ما يشغلنا باطن الأشياء . لك منا كل الحب وطيب الذكر ، يرحمك الله ويرحم إخوتنا الراحلين .

عزلة الناسك

في المدن القصبية ، أو في المدن التي وجدت متسعها على أرض ضربت في عمق العقل الإنساني ، فأنتجت عقلاً تنويرياً خالصاً . في هذه المدن نشأت الأفعال وردودها ، بل لنقل الصراعات على أشدها ارتخاء مسارها . وفي خضمه كانت المدن بمثابة الأرحام الدافئة التي ولدت رموزها .وتلك حكمة وجود المدن ، إن اتسعت أو ضاقت فهي الأخرى شهدت تكثيفاً ونوعاً مبرّر واقع التأثير والتأثر مثل هذه الرموز ولا أقول الكارزمات ؛ فالرمز أكثر مرونة مما تنم عنه النوعية ، فهو دال ، والكارزما تحيل إلى...

من هذا المنطلق تحثني الذاكرة إلى استعادة رموز مدينتي الغافية والمستسلمة لخط مياه الفرات منذ قالوا لها أنت المنتفك،وأنت الناصرية ثم أنت ذي قار . وهي صامتة لا تريم ، فقط اكتفت بمد سواقيها في حوض الهور ومسطحات المياه وفيافيها وبراريها المائية . هذه الرموز تتحرك في حاضنة الذاكرة بتأثير ضغط معايشتها أم التأثير بها عن بعد ... وأنت يا (فؤاد يا ابن مكطوف) تتشعب عند عتبتك المرايا لتعكس الصور ذات

المناحي المتعددة . فلا يدري المرء الناظر هل يفحص مشهدك التربوي أم الاجتماعي أم السياسي ..؟ فلكل من هذه الضروب قبضها . فإن كان الأول فالمسألة تطول لما يستذكره صحبك وتلامذتك من خير التجارب والرؤى وأنت مع من حمل المبادئ الخيّرة لشعب طيب معطاء على حد قول ... الدرس في الصغر كالنقش في الحجر ... ، لذا فرموزنا في هذا كثر ابتداءً من (إبراهيم دوبارا وأحمد عبد الكريم وفائز الزبيدي وعبدالله ناصر وعطشان وطعمة مرداس وستار طاهر وعزيز جاسم وكاظم العجمي وسعد النجيلي وخالد الأمين) وصولاً إليك . فيما لو كان الجانب الاجتماعي، فأنت من شكّل مسافة لا تقاس إلاّ بأصغر الوحدات لمعرفة ما بينك وبين من يحيطون بك ، فابن مكّطوف هو أقرب الأولاد للأمهات والآباء ، وأقرب الشباب للآباء ، وتحفل طقوس المجتمع الصغير في محلتك الشعبية بحيويتك وإسهاماتك . فأنت غير بعيد عن فعالياتهم ، وبالتالي فهم من نتاج طينتهم الأصيلة ، التي فاض بها رحم الفرات في مسيره . لذا فالثالث السياسي كان أقرب معنى لهم ، حيث امتزج الثلاثة معاً فأنتجوا نموذجاً لرؤيا الآخر لك ، إنهم آباؤك وأمهاتك ، أصدقاؤك وبنوك وتلامذتك ، فذاكرتهم تشير إلى أي حد كان سفير بينهم البار وهو يواصل مسيرته خارجاً مرةً وداخلاً أخرى إلى مقابض البلد ، بين بغداد والعمارة واحدة . وفي كل واحدة ترتفع بك قامة المدينة لتتباهى بين المدن بابنها. غير أني أحاول حصر صورتك في زاوية أراها

أكثر الفترات تأثيراً عليك ، فهي خلاصة الخلاصات لماضٍ مثلك . فما زلت أذكرك كناسك آثر العزلة وسط صومعته الصغيرة ضمن محلة أصيلة وعريقة قرب ديوان (الشيخ عباس) رحمه الله ، كنت أمام ملذاتك المتواضعة.. طاولة خشبية عليها منفضة للسجائر وكأس يستقر بسلام وشاعرية وكتاب تتغير عنواناته وبضع أوراق وقلم حبر . لذا فلم تسعك حينها سوى كرستالية العزلة وضوؤها الروحي في زمن تبلد فيه كل شيء، ودخل الأسود باتجاه رحم الأبيض فأحال لونه . وما عزلتك تلك إلاّ من أجل التمعن في اللحظة وليس في الماضي أو المستقبل . فقد أدركنا السر الدفين الذي داخل هذه العزلة الصوفية الخالصة ، والتي لم تنشط خلالها سوى نواة غائرة في كيانك ، ذات لا يستطيع جبابرة الفكر أن يفضوا سرها ويكتشفوا معناها ، فهو كامن في نموها وكثافتها ونسقها الذي لا يخرج فيضه إلى الخارج، بل يبقى على استقراره وتبرعمه الداخلي . فالذي يراك يا فؤاد آنذاك يدركه التفكير في أنك مصاب بداء الكآبة ، وأنك تخطو نحو عالم يوتيبي كجبران خليل جبران مثلاً . لكن هذا المرء لا يعرف سر حقلك المترع بالاخضرار وتداخل الألوان . فحين وجدناك لم يبدر بخلدي غير صورة السيد المسيح والحواريون . فلا السيد المسيح قد تخلى عن تلاميذه ، ولا هم نسوه في عزلتهم في الكهوف . فهو ذكرهم على خشبة الصلب ، فاحتضنا لهم وهم يهرعون كالفراخ المذعورة التي داهمها الخطر فجأة ، فاختطف رمزهم وعنوان صيرورتهم . فما انتباهنا حين توسط

البحر ، وتغلبت عليه الحزن وتقرحت كفاه جراء سحبه للحبل المتعلق بثقل الحوت ؛ كان يردد... ليت مانالو كان معي ... هذا الاستذكار ماذا يعني..؟! فمانالو الصبي الموثوب على الساحل الكوبي ، ليس له القوة بعد ، لكنها إشارة إلى المسكوت عنه في الدنيا . فالتأريخ لا يأخذ بقلم المدون إلا بما يناسب السلطان أو صاحب النفوذ . بل أن كل إشعاعات الأطراف والمهمشين تتركز وتذوب في الكارزما. فمن فصّل الدرس في أمر واحد من الحواريين الذين تربوا على سماحة السيد المسيح لاكتشفت المعاني ، لكنهم خلّدوا في الذاكرة فقط . لو سأل أحد نفسه عن زمن استقرار الجيش على الساحل بعد أن عبر مضيق جبل طارق ، بعدته وعتاده ، لعرف الجواب . ولو سأل الكارزما سؤالاً ولو على بعد زمني .. لماذا العبور ..؟ ولماذا أُحرقت السفن ..؟ ولِمَ أُطلقت عبارة ... البحر من ورائكم والعدو من أمامكم ... لكنهم نظروا إلى البحر فوجدوا سفناً تحترق ، فقد أُضرمت فيها النيران ، ولم تزل الأشرعة يحرقها اللهب ، وأعمدتها تتساقط بفعل الاحتراق..! في حين تمتد ألسنة النيران بمسارها إلى خشب السفن متحدية موج البحر ..! كان الجنود ينظرون بأسى ، يحدقون بسفنهم وهي تختفي رماداً وسط مياه البحر منتظرين عدواً مفترضاً لم يروه ولم يسمعوا به قط ولم تكن لهم عداوة معه ، لكنهم عرفوا قطيعتهم معه من لدن الكارزما، مما حدا بهم إلى كبت ما يخالجهم ، معتبرين أن الحرق ما هو إلاّ إنذار للصمت .

هكذا يافؤاد يابن مكطوف يسير الزمن على هدى أو بغير هدى . غير أنه يسير بمعزل عنا ، فعزلتك كانت بعد حروب خضتها لوحدك أو مع جمع الأقران المهمشين في الدنيا ، فوجدت أن لابد من محطة يستريح فيها الخارب .. يومها عقدت معنا (الأخ حسين علي عبد وأنا) موعداً للخروج ،بعد أن فشلت محاولتك في إقناعنا على قضاء السهرة داخل صومعتك ، وبسبب فطرتك التي ما غادرت طباعك أيها الجنوبي الأثير ، ذعنت لمقترحنا الذي تدارسناه سوية قبل المجيء إليك .

ما الذي كان يتخلل جلستنا تلك ..؟ ما زلت أتذكر انعكاس ما ذكره الأخ (حسين) عن يومياتك في هذا المقبض أو ذاك ، إذ تحاول التخلص من هيمنة الخاص على العام ، وهي دربة قد طوعت عليها شخصيتك وضعتها . فالحديث فيها قد يؤدي بك نحو علل الأنا ، فأنت حاذرت من كل ما يخص الذات وآثرت الحديث عن العام والآخر والمجموع.. عن تأريخ الجماعة وليس الفرد على الرغم من قيود العزلة والإحباط المكبلين لوجودك ، كنت تقرب مما يخص نقد الآخر وتتمسك بمفاصله المضيئة . ولحظة إنساق الحديث عن الأدب شعراً وقصة ورواية ، انفتحت أساريرك ، فقد ذكرك حسين بما قدمته من مداخلة نقدية عن رواية نجيب محفوظ – الشحاذ في مقبض العمارة ، فرحت تمسك بدفة السفينة مرجئاً الحديث عن كل الأشياء إلاّ الأدب والفن . وبدأ تترك الشفاهي المركز يترى على أحسن صورة ، مقدماً قراءة ذكية

لبنية الرواية وطبيعة شخصياتها ، مستذكراً ما كتبته يوماً ، متناولاً تركيبتها الفنية ، ومقارنتها مع بعض من رواياته الملازمة للمرحلة آنذاك ، أو التي كُتبت سابقاً . ثم تطرقت إلى الأحداث والتطورات في بنية المجتمع المصري ومدى علاقة أحداث الرواية بها وبالتأريخ السياسي لمصر ، وما الذي تعبر عنه . لكنك بدوت متعلقاً ببطلها ، مؤكداً على أنه ناتج صحيح لمرحلة معينة ، هي مرحلة الانكفاء السياسي التي أدت إلى الانكفاء الاجتماعي. وكانت صورة بطل الشحاذ تتداخل في رأسي مع شخصيتك إلى حد كبير . وقلت وقتها مع نفسي ، ثم همست لحسين بعد الخروج من النادي .. ألا تجد أوجه شبه في النتيجة بين بطل محفوظ وفؤاد ..؟! وقتها أجاب أيضاً ... إنهما ناتج مرحلة ، وسوف نكون نحن كذلك فالخيبات تنتظرنا أيضاً ، ما زلنا لا نميّز بين هذا أو ذاك ، وما زال العقل تقل فعاليته في ما نحن بصدد ممارسته . يا فؤاد يابن مكّطوف.. كانت صومعتك تلك حاضنة للمعرفة وتداول ما كان محظوراً عليك ممارسته بسبب عدم استقلالية نشاطك الذهني . لكن للأسف لم ننتبه إلى هذا إلاّ متأخرين ، لكي تنفتح لنا العزلة على أشدها ، معتقدين كما كنت تعتقد : إن لكل شيء خصوصياته ما طال الزمن أو قصُر ، فلابد من وجود فعل ورد فعل. فنحن مازلنا يا فؤاد نقاد هكذا ، يعبرون بنا إلى هذا المكان أو ذاك، هذا البحر او غيره ، باتجاه هذا النهر أو سواه ، يدخلون بنا النفق ويدعون الخروج منه ..! فما نجد أنفسنا إلاّ وسط الحرائق مازلنا نتدافع

بالمناكب لكي نحصل على حيز يسد عقدتنا فلا نعطي للآخر شيئاً ، لأننا أصلاً غير قادرين على العمل. نحن في سوق عاج بالخضار والطيور والسمك واللحم المقدد والرؤوس المحزوزة والقناني الفارغة ،بين العيون الحادة والشهوة للاحتلال والاستحواذ. نحن في آتون ملتهب ، ينتظرنا أمر غامض ، باب أو عتبة أو هاوية أو نفق ستنفتح أمامنا في كل خطوة ، حيث لا خروج أبداً . فإذا كان شحاذ نجيب محفوظ قد جذبك وأسرك فشحاذونا في قاع ضيق ..!وما نحن سوى جامعوا نص لم يُكتب بعد .

فهل لك فرصة قراءته حتى في داخل كرستال عزلتك الأبدية يا فؤاد مكطوف..؟ اقرأنا كي تعرف أن شحاذك ، بل أن الملابسات التي خلقته اندفعت نحونا بجنون ، لتشكل صور تمهد لتعرفة لشحاذ يخرج كالعنقاء لينجب شحاذين جدد . يخرجون من رماد هذه المرحلة أو تلك .نحن في أشد الأزمنة رداءة ً يا فؤاد الحبيب .

بلاغة الدرس

كثيرة هي الأسئلة التي يتعرض لها المنتمي إلى حزب سياسي من قبل عامة الناس ومن المقربين إليه . لكن السؤال الأهم والمتكرر هو : ما الفائدة من الانتماء ..؟ وبغض النظر عن الجانب السياسي الذي يخصه السؤال وغيره من المهام الوطنية ، يكون جوابنا في هذه المداخلة هو الدرس الأخلاقي الذي يكتسبه المنتمي من خلال عمله الذي يعرف له زمناً مقتطعاً من حياته ، وربما الزمن كله في أحايين كثيرة . وما نقصده بالدرس الأخلاقي هو التطبع والانزياح في ما هو راسب جراء التربية الاجتماعية والأسرية . وهنا لا أتصدى أو أتكئ على متن نظري يعينني على فرز القناعة في ما أنا أزمع التطرق إليه . فالتطبع على سلوك معيّن يشكّل عائقاً ومشوهاً لما يلحقه من ممارسة ، أو ظاهرة تفرز ازدواجاً ظاهراً بين السلوك والممارسة . لذا فأول ما ترمي إليه التربية هذه هو إزاحة السلبي من الراسب . وهذا لا يتم إلاّ خلال الممارسة وظهور المثال في حياة المنتمي . بمعنى ظهور ما يمكن التمثل له والاقتداء

بتفاصيله، لتكون منهج عمل أولاً ومن ثم تغلب آخر يُضاف عن تشكل الشخصية . وفي ذاكرتي كثير من الدروس ، كما هي في ذاكرة كل شيوعي . هذه الدروس هي بمثابة مكتسبات أنتجها العمل الدؤوب الذي يفرز الكم والنوع ويعمل على إزاحة الراسب والحلول محله . وفي أدناه أثبت بعض من هذه الدروس التي اكتسبتها من الآخرين ، فكانت منهج عمل يسعفني حال حصول ما يقترب من تلك الحالة أو هذه الظاهرة وغيرها . إن هذه التجارب التي أتعرض إلى تدوينها ، صغائر العمل ونتاجه ، لكنها من كبائره إذا ما قيست بقوة حسمها في لحظة وقوع المشابه . كما وأنها اكتسبت أهميتها جرّاء حلولها سلوكاً حزبياً أولاً واجتماعياً ثانياً كذلك وظيفياً ثالثاً . وهي بالتأكيد ثقافياً من باب سداد الرأي وثباته بالرغم من صعوبة الظروف وتعقدها ، وهذا ما لم أمر عليه تدويناً في حياتي ، بقدر ما كانت وتكون تجربة الآخر هي خير ما أقتدي فيه وأضعه عنواناً لا يتجزأ عن تجربتي في المبدأ العام . وسوف أحرص على عدم ذكر الأسماء حفاظاً على الأمانة الشخصية.

الدرس الأول:

في العام 1961 وما تلاه كنت أغتني من تجربة الآخرين من المنتمين إلى الحزب العتيد ، الحزب الشيوعي العراقي . يومها كنت أتعلم من

السياق اليومي ، وما يأتي عليه حالي ، وهو كادر عمالي يعمل في لجنة عمالية في مدينة البصرة . وكنت أتلقى الدروس العملية والنظرية من خلال السلوك اليومي وتنظيم الاجتماعات ، كذلك مما أطالعه في الأدبيات والصحف العلنية والسرية ، وكنت أنظر إلى المنتمين نظرتي إلى المقدس . ومن خلال هذا الحراك كان درس جديد فيه من البلاغة السياسية والاجتماعية والتنظيمية الكثير .وكنت أنتبه إلى صغائر الأمور بدليل تذكرها الآن ، وحسبي أني كنت متقيا ً لأهمها بلاغة . كان بالصدفة أو السياق أن تخلى أحد الرفاق عن انتمائه وانحرف إلى انتماء آخر في حزب أو تشكيلة مهنية أخرى ، لا لشيء سوى أنه لم يتحمس العمل خارج السرب . وهذا الموقف منه كشف لي أمور هي بمثابة درس جديد ، حيث كان محور أحد الاجتماعات في الغرفة المجاورة لغرفتنا في مساء شتائي جميل ومداولة حارة وساخنة بين أعضاء التشكيل في أمر التعامل مع هذا الذي تخلى عن العمل وغيـّر مجرى عمله . فتضاربت الآراء بين من قال تصفيه لأنه يشكل خطرا ً عينا ، وبين من قال نتركه هكذا ولا نمنحه احترامنا بما يشبه العزل لكي ننهي وجوده بين العمال ، وتضاربت الآراء وأخذت زمنا من النقاش، ونحن نسمع والدي وأخي وأنا في الغرفة المجاورة ، ونعرف جيدا ً من يكون هذا الرجل وما هي صفاته ، فقد كان يقربني من مجلسه ما أن ينتهي الاجتماع ، ويعمل على تدريبي على موهبة الرسم ، كذلك يعطيني قائمة بالكتب التي يتوجب

قراءتها ، فله فضل معرفي عليّ . أذكر تشعب الحديث واستقر على إجراء عزله ، إلاّ واحد من الرفاق قال معترضاً : لا هـــذا ولا ذاك ، فـــالأمر يتعلق بمجموع العمال ، وما نحن سوى حامي أهداف مهنية تخصهم ، وهذا الشخص سوف يـــستفاد من تجربته المهنية ويكون له عنواناً بينهم فلمَ لا نستفيد منه من أجل هذا فيكون عوناً لنا بدلاً من عدو مريض ، سيّما كونه بالأمس كان منتمياً إلينا ، وسلوكنا الحسن ســيزيد مـــن اعتداده بنفسه ولا يتخلى عن العام من مبادئه ، لذا توجـــب توظيفــه لصالح حاجات العمال ومطالبهم . ويكون عنصراً منتمياً لنا اجتماعياً من خلال انتمائه المهني مع العمال . وكان أن أخذ الجميع بوجهة نظـــر الرفيق . وكنت أراه بينهم وأسمع أخباره وهو خارج التنظيم إذ ألهمـــني درساً لم أنساه ما حييت .

الدرس الثاني:

تعقدت الظروف السياسية ، فأفرزت ظواهر منها نفي بعض أعضاء التشكيل إلى الثكنة الحجرية في مدينة جلولاء ،ومن ضـــمنهم خــــالي ، فبقيت عائلته دون معيل ، سيّما النفي أو السجن كان يرافقه الفصل من الوظيفة . حيث كانت تعاني العائلة من العوز ، لكنها كانت تعمل على عدم الظهور إلاّ بمظهر الاعتزاز بموقف وليّ أسرتها وعمله السياســـي . وفي ليلة شتوية أيضاً ، طرق باب بيتنا طارق ، فسارعت إليه ، وعنـــد

فتحه ظهر لي رجل زنجي قصير القامة ، فجفلت ، وكان رد الفعـــل أن أغلقت الباب بوجهه ، وسارعت لأخبر والدتي التي بـــدورها ارتـــدت العباءة وخرجت من الغرفة باتجاه الباب ، ووالدتي امرأة شجاعة كانـــت قد تمرست في العمل السياسي والمهني في منظمة رابطة المـــرأة العراقيـــة انذاك . حققتها إذ سارعت بالسؤال عن الطارق فأجاب بـــ أنا ــــ ، فما كان منها إلاّ أن فتحت الباب وتنحت عن الطارق الذي دخـــل مسرعاً ، لكن والدتي فوجئت بمنظره ، وسألت .. هـــا .... مـــن غيرك هكذا ..؟ وجرى ما جرى ، فقد كان زائراً لتفقد العائلة وتقديم ما يستطيع جلبه من مال لتمشية أمورها المعاشية، وطال مكوث زائرنـــا بالرغم من شكله الذي كان يثير الضحك بين آونة وأخرى . ولـــبّ الدرس هنا ، هو الإجراء الذي اتبعه الرفيق للوصول إلى العائلة وتفقدها ، فقد كان مطارداً من قبل السلطة . هذا الدرس بالنسبة لي كان هـــو البلاغة بعينها . أما البلاغة الثانية ، فلابد أن تسبقها معرفة هذا الشخص ، فهو نفس الرفيق الذي اعترض على عزل الرفيق الذي تخلى عن انتمائه ، فما زادني إلاّ بلاغة بتخفيه هذا ، فقد كان يمتاز بشقرة شعر رأســـه وحاجباه ورموش عينيه وشواربه ، فما كان منه إلا أن صبغ كل ما هو ظاهر للعيان ، فأصبح زنجياً قصيراً يعمل على تأدية مهامه الحزبية بكل حرية.

الدرس الثالث :

يوم كنت مع رفاقي مفصول عن الدوام في دار المعلمين ، وكـــان أحد الرفاق قد فتح دكاناً لكوي الملابس ، وكان قريب من الـــدكان يشغله سكرتير محلية الناصرية (أبو إيمان) له ولرفاقه الذكر الطيـــب . وفجأة اختفى الرفيق عن المدينة ، ودارت الدوائر ، وأصبحت المـــدارس سجوناً ، ودخل فيها من دخل وعـــُذب من عـــُذب واستشهد مـــن استشهد ، واقتحم بيت أبو إيمان الأمن وعاثوا في أثاثه واختلطت الأمور ، وإذا بعودة أبو إيمان معتقلاً ، على حال يرثى لها ، بدشداشة بالية لا تستر جسده ، وسيقان وأقدام متورمة . فقد كان مناضلاً صلباً ، وكنا نراه وما زالت صورته ماثلة أمامنا بكل استقامة قامته وسمرة وجهه ، فلم يـــُصب أحد من أبناء المدينة بأذى جرّاء اعتقاله ، حيث كان معتقلاً في زاوية هي من أكثرها قذارة في بناية المدرسة ، فقد أرادوا إضعافه بمثـــل هذه الطريقة اللا إنسانية ، لكنهم باءوا بالفشل الذريع . وحين تسقطت أخباره آنذاك ، عرفت أنه ورفاقه دوهموا في بيـــت للحـــزب في أحـــد أطراف مدينة البصرة ، فهرب من هرب خـــلال مســـتنقعات للميـــاه، واعتقل أبو إيمان مع عنصر نسوي . أما من بين من هرب والذي كـــان مصاب بطلق ناري في ساقه كما عرفت ، فهو الرفيق الذي اعتـــرض على عزل الرفيق الذي تخلى عن انتمائه ، وهو نفس الرجل الأشقر الذي صبغ هيئته كي يصل إلى عائلة خالي لتقدم يد العون لها .، إنه الرفيـــق

عبدالله. ترى هل أن هذه تفاصيل من رواية ، أم أنها الرواية نفسها التي تسردها وترويها لنا الحياة والسياسة لتكون خير دروس لنا في حياتنا ...؟

الدرس الرابع :

الأعوام التي تلت ، والتي ازدادت قتامة ثم انجلت ، وبدأ العمل ببهو الضيافة والمركز الثقافي في الناصرية ، متمثلاً بتشييد بهو البلدية ، فوجئت بالرفيق الذي تخلى عن انتمائه موجود في المدينة . وحين سألته قال : أعمل مع أحد الرفاق المختصين بالكهرباء لتجهيز وتأسيس البهو بكل ما يحتاجه من إنارة وأجهزة تبريد . وبقيت أرافقه في جولاته بعد الانتهاء من العمل ، وعملت بما دعا إليه الرفيق الذي طلب جزل عطاء الاحترام والتقدير لهذا الرجل لأنه ثروة ينتظرها العمال وكنت أناديه بخالي ، وزاد سؤاله عن قراءتي ، وعاملته بكل احترام وتقدير كي لا ابتعد عن رؤية خالي الثالث. ألم تكن مثل هذه التجارب دروساً لازمت حياتنا وخاصة المهنية منها ، فكانت عنواناً للعمل المثابر والمخلص للشعب والوطن ولم نزل . ألا يحق لي ولغيري البحث في مثل هذه الدروس لكي تكون مناراً لنا ..؟ أعتقد في كونها دروساً فعلاً، لكني أجزم في كونها ألهمتنا الحكمة ، ورسمت لنا الدرب بأخلاق تركز على عدم التخلي عن الصديق في الدروب القصيرة والطويلة ، وأن لا

نتخلى عن المبادئ في كل صغيرة وكبيرة ، وتلك هي فضـــيلة الانتمــاء السياسي . فما يـــُخلـــّف سوى الرفعة من الأخلاق والتخلـــي عـــن الشوائب السلبية التي تسم الشخصية . فلكم منا كل التقـــدير والــــذكر الطيب يا معلمي مدرستنا الأولى وملقني الـــدرس الأول الـــذي تتتـــه الدروس التي لا تــُحصى ، لكنها تظهر في سلوكنا اليـــومي ، لأنكـــم أحسنتم تربيتنا على أفضل صورة وطريقة.

■ ■ ■

الفهرس

إشارة 5

امتلاك ذاكرة الماء والطين والشجر 9

القسم الأول / نُخب القاع 22

توطئة 22

شيشل الساحر الواعد 26

عمي جوعـــان 32

كريم الربيعي 36

كريم الزهيري 41

أبو صدّام 46

جليل المتحطم 52

الإنسان الآلي.. 57
جواني.. 61
القسم الثاني – نُخب الوسط.............................. 67
حسين جني .. مهلاً فقد أيقظت ذاكرتي..................... 68
مسلم بلدية 75
أبو أحمد في مقهاه 79
الحاج ناصر وأدوية الأعشاب.............................. 83
فالح محطة 88
السيّد كاظم .. طبيب العائلة............................. 92
كَزان .. وصورة إسماعيل يس............................... 96
الفتى سماوي.. 100
طالب هوبي... 107
توفيق السرّاج 114
القسم الثالث/ نُخب السطح 121

قاسم أفندي........................ 121

نادي الفتيان الرياضي 126

الست لندة .. القابلة الإنسانة 130

طاهر غفوري 134

جبر غفوري 138

الخال نوري حضير .. الجيل والمدرسة........... 141

أبو سلام .. نشاط المدينة وذاكرها............. 146

التنور + الخبز – الشعر 150

عزران القهوجي........................ 154

بدري قمر 157

الشاعر العصامي........................ 160

إليك فقد حان الوقت الآن.................. 162

صورة الصف من صورة المربي.............. 167

الداخل بيننا في الصباحات المشرقة 172

الشاعر المناضل 177

في الماء والبردي والطير 189

رواد المسرح في الناصرية 198

الملا أحمد وحكاية الصابونة والغراب 204

الملا حلبوص 207

الملا جاسم .. الأبوة الفائضة 210

ما كان يزخر به بيت الملاية زهرة.......................... 213

أم عبد الرضا وهموم البيت والأخ المفقود 217

ديوان الشيخ عباس 220

كانوا لنا صفوفاً ومعلمين 224

من يوميات مفكرة العائلة العراقية المناضلة 231

وجوه من رحلة التعب... 245

أيها الكردستان أزح عنك غواية السحر 255

من حكايات المثقف المتحاور مع الذات والآخر..................... 273

صورة الفنان في شبابه.................................... 292

سؤال لم تكتمل إجابته.................................... 306

أبو أيمن .. ايقونة التآلف.................................... 314

عزلة الناسك.................................... 318

بلاغة الدرس.................................... 325